التوكل على الله

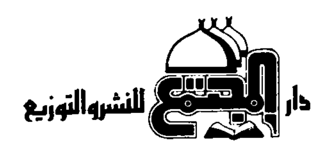
حقيقته - منزلته وفضله - خصائصه وثمراته

بقلم

الدكتور سالم بن محمد القرني

الأستاذ المشارك بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

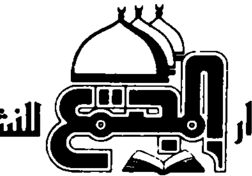
كلية الشريعة وأصول الدين بالجنوب



دار المجتمع للنشر والتوزيع

الطّبعَـة الأولى

١٤١٧هـ/١٩٩٧م



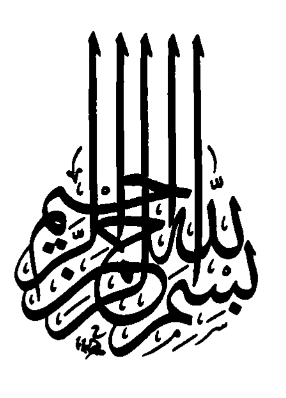
للنشر والتوزيع

الرئيسي : جدّة - ميدان الجامعة - ص.ب: ٤٠٨٤٥ - جدّة ٢١٥١١
الادارة ٦٨٩١٤١٧
المكتبة ٦٨٩٤٤٦١
الفاكس ٦٨٩٤١٤٤

الفروع : الخبر - شارع الأمير نايف - تقاطع ١٦ - ص.ب: ٢٣٢١ - الخبر ٣١٩٥٢
المكتبة ٨٩٤١١٣٦
الفاكس ٨٦٤٣٧٣٥

المدينة المنورة - شارع الستين - ص.ب: ٢٠٢٤٢
المكتبة ٨٢٣٦٣٠٦
الفاكس ٨٢٣٦٢٧٩


التوكل على الله



مقـدّمـة

الشيخ صالح بن فوازن بن عبد الله الفوزان
حفظه الله

الحمد لله رب العالمين؛ والصلاة والسلام على خاتم النبيّين، نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فقد أطّلعت على الكتاب المسمى: (**التوكّل على الله، حقيقته، منزلته وفضله، خصائصه وثمراته**) لمؤلفه فضيلة الدكتور الشيخ: سالم بن محمد القرني الأستاذ المساعد بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في كلية الشريعة وأصول الدين بالجنوب، فألفيت هذا الكتاب ـ بحمد الله ـ وافياً في موضوعه، جيداً في عرضه وأسلوبه، متضمناً لمعلومات قيّمة في موضوع التوكل الذي جعله الله شرطاً لصحّة الإيمان فقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فجزى الله المؤلف خير الجزاء ونفع بهذا الكتاب، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتبه
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
في ١٨/٦/١٤١٧هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمـة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ با لله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده ا لله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألاّ إلـه إلاّ ا لله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسـوله خـير المتوكلـين علـى ا لله تعالى صلى ا لله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً .

أمَّا بعدُ : فإن التوكل على ا لله سبحانه وتعالى بالاعتماد عليه وحده لا شريك له ، وتفويض الأمر إليه سبحانه ، والاستعانة به مع الأخذ بالأسـباب المـأمور بهـا ، واعتقاد أنها لاتجلب نفعاً ولاتدفع ضراً لذاتها ، بل السبب والمسبب فعل ا لله والكل بمشيئته فماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، مقام جليـل ، بـل مـن أعظـم الواجبـات ، وأفضل الأعمال والعبادات المقربـة إلى رب الأرض والسـماوات ، وأعلـى مقامـات التوحيد .

ومنزلة التوكل على ا لله أوسع المنازل وأجمعها ، بل هو الأصل الذي تتفـرع عنـه العبادات جميعها ، وأحد مباني التوحيد – أعني توحيد العبادة – ، وصفة عليَّـة مـن صفات عباد الرحمن ، وشعارٌ يتميزون به عمن سواهم ، وعلامةٌ بـارزةٌ لهـم : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ا للهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾[1] .

---

(١) سورة الأنفال : ٢ .

جعل الله التوكل سبباً لنيل محبته سبحانه : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيْظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوْا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[1] .

فالخلة التي يحبها الله ، ويحب أهلها هي التوكل على الله . إنه شرط الإيمان فينتفي الإيمان عند انتفاء التوكل ، ويقوى الإيمان إذا قوي التوكل ويضعف الإيمان إذا ضعف التوكل : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

المتوكل على الله حق توكله : عزيز لايذل ، على منهج الأنبياء والرسل رفيع الدرجات والمنزلة ، يعيش في حفظ الله لايخشى أحداً غيره ، يدخل الجنة بغير حساب ، سعيد مطمئن النفس في الدنيا والآخرة ، راضٍ مرضي : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[3] .

والعبد المعتمد على الله سبحانه بالتوكل عليه يكفيه الله مؤونة الناس والحاجة إليهم وإن لم يرضوا عنه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَايَحْتَسِب وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[4] .

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُم النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ فَانْقَلَبُوْا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوْءٌ

---

(١) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٢) سورة المائدة : ٢٣ .

(٣) سورة الفجر : ٢٧ - ٣٠ .

(٤) سورة الطلاق : ٢ ، ٣ .

وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ الله وَالله ذُو فَضْلٍ عَظِيم ۞ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَتَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(1) .

التوكل على الله زاد العُبَّاد ، وحال الداعية إلى الله ، وقوة المجاهد في سبيل الله ، وسبب الرزق ، وزاد المهاجر في سبيل الله ، ووسيلة رضى الله عن الحاكم ، وختم المشورة والعهود والمواثيق ، ووصية الله لرسوله محمد ﷺ في آخر ما نزل ﴿ وَلله غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(2) .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيم ﴾(3) .

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَالله وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾(4) .

﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(5) .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِمَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ

---

(1) سورة آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤ .

(2) سورة هود : ١٢٣ .

(3) سورة التوبة : ١٢٩ .

(4) سورة آل عمران : ١٢١ ، ١٢٢ .

(5) سورة الشورى : ٣٦ .

الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۞ الَّذِيْنَ صَبَرُوْا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ ﴾[1] .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ العَزِيْزُ العَلِيْمُ ۞ فَتَوَكَّلْ عَلَى ا للهِ إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِيْنِ ﴾[2] .

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوْنِي مَوْثِقاً مِن ا للهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ا للهُ عَلَى مَا نَقُوْلُ وَكِيْلٌ ۞ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَتَدْخُلُوْا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوْا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ ا للهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُوْنَ ﴾[3] .

وفي آخر ما نزل : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُوْلٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيْزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيْصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِيْنَ رَؤُوْفٌ رَحِيْمٌ ۞ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ا للهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيْمِ ﴾[4] .

فكانت الوصية بالتوكل على ا لله رأس الإيمان وأعلى درجاته .

إنه وسيلة جاب المصالح ودفع المضار والمصائب ، ومن الأسباب المهمة لتقوية القلب وتنشيطه للعمل والعبادة ، وأصل لجميع المقامات ؛ بل هو بمنزلة الجسد من الرأس فكما لايقوم الرأس إلاّ على البدن فكذلك الإيمان لايقوم إلاّ على ساق التوكل على ا لله .

---

(١) سورة النحل : ٤١ ، ٤٢ .

(٢) سورة النمل : ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) سورة يوسف : ٦٦ ، ٦٧ .

(٤) آخر سورة التوبة : ١٢٨ ، ١٢٩ .

إنه حماية من الدجال ومن الشيطان ومن الشر كله ، يقضي به العبد على التردد والنكوص عن المطالب العالية والهمم الرفيعة ، وقوة روحية ومعنوية للمسلم في كل أموره ، فيارب اجعلني من المتوكلين عليك ، الداخلين في رضوانك ، الفائزين بجنتك وعفوك وغفرانك ، اللهم اجعلني ممن توكل عليك فكفيته .

سبب اختيار الموضوع :

الأمة المسلمة – الفرد المسلم – لايكون أهلاً لحمل لواء الإسلام والدعوة إلى الله وإنقاذ البشرية من الهلاك إلاّ إذا تحققت فيها أو فيه صفات عليا من أهمها التوكل على الله تعالى .

ولهذا فإن الجيل الأول من هذه الأمة كان مؤهلاً لحمل لواء الإسلام ونشره في أنحاء الأرض ، وإنقاذ البشرية من الهلاك ؛ لقوة توكله على الله وحده لاشريك له ، وثقته بالله عزوجل ؛ واعتمادهم عليه دون سواه ، فكان للأمة ما كان من عز ومكانة رفيعة . وتحقق النصر على أيديهم ونشروا دين الله تعالى ، وأبلغوه للناس . فدخل الناس في دين الله أفواجاً .

لقد حقق المسلمون التوكل على الله فتحققت لهم السعادة والقيادة والريادة ففتحوا بالتوكل على الله تعالى مشارق الأرض ومغاربها .

ولكن سرعان ماضعف التوكل على الله وكثر الاعتماد على الأسباب المادية فهان من هان وانهزم من انهزم ودب الخور في نفوس كثير من المسلمين فانقلب التوكل الذي كان الباعث القوي لحركة الجهاد في سبيل الله والانطلاق في نشر دينه وإعلاء كلمته والسيادة على الأمم إلى تواكل رخيص سماه المتصوفة يقيناً وسماه الآخرون قناعة واحتسبه الكل عند الله .

قال أبو حامد الغزالي – ويعد من معتدلي الصوفية – في بيان مقامات التوكل :

(**الأول** : مقام الخواص ونظرائه ، وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعاً وما فوقه ، أو تيسير حشيش له ، أو قوت ، أو تثبيته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك ...

المقام الثاني : أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والأمصار ، وهذا أضعف من الأول . ولكنه أيضاً متوكل ؛ لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة معول على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ، ولكنه بالقعود في الأمصار يتعرض لأسباب الرزق ...)[1] .

وإذا كان مثل هذا يكتب والحملات الصليبية على أشدها وخيرات البلاد ينهبها الأعداء من كل مكان والحاجة إلى الجهاد في سبيل الله قائمة والقوة بغير قوة الله هشة ضعيفة أدركنا مدى ضعف التوكل على الله والانحراف عن العقيدة الصحيحة التي من أساسها : التوكل على الله ، والثقة به ، والاعتماد عليه ، وفعل الأسباب المأمور بها : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ﴾[2] .

فالصلة التي تربط العباد بربهم صلة الإيمان والتوكل على الله وحده . ولكن

(١) إحياء علوم الدين ٤/٢٤٧ . دار القلم – بيروت .

(٢) سورة الملك : ٢٨ ، ٢٩ .

لما انقطعت أو ضعفت هذه الصلة صارت الأمة على شفا الهلاك والذل والفقر والتبعية بل صار لها من الويلات مانشاهده ونسمع به في كل وقت من الأوقات .

لقد أسند كثير من المسلمين القوة إلى القوة المادية الكافرة فذلوا ، وأسندوا بحث قضاياهم ومعالجة أمورهم واعتمدوا على البشر فانهزموا ، وتركوا اتخاذ الأسباب فضلوا ، واستعانوا بالبشر ونسوا الاستعانة برب البشر فصاروا إلى ماصاروا إليه .

وبعضهم اتكل على الأسباب ونسي رب الأسباب فوكل إلى ما اتكل عليه .

في إحدى الحوادث والكوارث التي عصفت بالبلاد الإسلامية في إحدى السنوات وصل الأمر بضعاف التوكل على الله والثقة به إلى اتخاذ وسائل وفعل أسباب عجيبة اتكلوا عليها في رد قضاء الله وقدره ، ونسوا أن الله ربهم مايشاؤه يكون وما لم يشأه لم يكن ولو شاءه بنو آدم كلهم ، أغلقوا الأبواب ، وسدوا منافذ الهواء بإحكام شديد خوفاً من الغازات ، وملأوا البيوت من القوت ، وخزانات المياه من الأرز والحبوب أو البترول ، ونسوا مافطروا عليه من أن الله وحده هو الحافظ المحيي المميت المعز المذل الرازق ذو القوة المتين بيده الأمر كله وله الأمر كله وإليه الملتجأ وعليه التكلان .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُوْلُنَّ الله قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ الله عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المُتَوَكِّلُوْنَ ﴾[1] .

---

(١) سورة الزمر : ٣٨ .

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِيْنٍ ﴾[1] .

إن التوكل والاعتماد على غير الله تعالى في جلب منفعة أو دفع مضرة أو حصول نصر أو غير ذلك مما لايقدر عليه إلاّ الله سبحانه وتعالى شرك بالله ينافي التوحيد .

لهذا وذاك رأيتُ أن أكتب في هذا الموضوع (التوكل على الله عزوجل) وأجمع فيه مايتيسر مما أذكِّرُ به نفسي وإخواني المسلمين ، وأحظهم به على التوكل على الله وحده في الأمور كلها الدنيوية والأخروية ، وعلى العمل بما أمر به سبحانه من الأسباب التي تشعر بالافتقار إلى الله وحده دون سواه ، وتزيل الذلة لغير الله ، وإيذاء الناس بالسؤال والتكفف منهم سواء فيما يتصل بالقوة المادية ، أو الروحية ، أو الرزق ، أو غير ذلك .

وقد اشتمل البحث على :

هذه المقدمة والمباحث التالية :

١ – تعريف التوكل لغة واصطلاحاً .

٢ – حقيقة التوكل على الله .

٣ – منزلة التوكل على الله وفضله .

٤ – درجات التوكل على الله .

---

(١) سورة هود : ٦ .

٥ – الفرق بين التوكل والتواكل .

٦ – أقسام التوكل وأنواعه .

٧ – مايضاد التوكل على الله .

٨ – التوكل وفعل الأسباب .

٩ – التوكل عند القدرية .

١٠ – التوكل عند المتصوفة .

١١ – التوكل وطلب الرزق .

١٢ – التوكل والتداوي .

١٣ – خصائص التوكل على الله .

١٤ – منافع وثمرات التوكل على الله .

١٥ – الخاتمة وتشتمل على ماتوصلت إليه من نتائج مع بعض الاقتراحات .

ثم وضعت فهارس للبحث .

أ) – فهرس للآيات القرآنية الكريمة .

ب) – فهرس للأحاديث النبوية الشريفة .

ج) – فهرس للآثار .

د) – فهرس للأشعار .

هـ) – فهرس للأماكن والبلدان .

و) – فهرس للأعلام .

ز) – فهرس للمصادر والمراجع .

ح) – فهرس للموضوعات .

أسأل الله تعالى لي وللمسلمين التوفيق والسداد في القول والعمل والنصر على أعداء الله في كل موقع وكل موطن .

وصلى الله وسلم على محمد القائل فيما رواه البخاري في أول كتاب التهجد : « اللهم لك أسلمتُ ، وبك آمنتُ ، وعليك توكلتُ ، وإليك أنبتُ ، وبك خاصمتُ ، وإليك حاكمتُ ، فاغفر لي ماقدمتُ وما أخّرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلاّ أنت » ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه

الدكتور سالم بن محمد القرني

أبها - ١٤١٤/١٠/٢٦ هـ

تمهيد :

لقد علم الناس كلهم أجمعون أن الله تعالى هو الخالق الرازق المحيي المميت ، بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولايجار عليه ، المتصرف في كل شيء ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل ، رب العالمين : ﴿ اللهُ الَّذِيْ خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيْتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيْكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ ﴾(1) .

﴿ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُوْنِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِيْنَ مِنْ دُوْنِهِ بَلْ الظَّالِمُوْنَ فِي ضَلَالٍ مُبِيْنٍ ﴾(2) .

﴿ أَمْ خُلِقُوْا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُم الخَالِقُوْن ۞ أَمْ خَلَقُوْا السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بَلْ لاَيُوْقِنُوْنَ ﴾(3) .

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾(4) .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيْعُ البَصِيْرُ ﴾(5) .

---

(1) سورة الروم : ٤٠ .

(2) سورة لقمان : ١١ .

(3) سورة الطور : ٣٥ ، ٣٦ .

(4) سورة مريم : ٦٥ .

(5) سورة الشورى : ١١ .

الأحد الفرد القـدير الأزلي	الصمد البر المهيمن العـلي
علـو قهر وعلـو الشـــأن	جل عن الأضداد والأعوان
كذا له العلو والفوقيـــة	على عبـــاده بلا كيفية[1]

الواحد الذي لاينبغي التوكل إلاّ عليه وحـده لاشريك لـه ؛ لأنـه لا ضـد ولا شريك في الإلهية والربوبية ، ولا متصرف معه في ذرة من ملكوته .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (... ما ثَمَّ خالق إلاّ الله ولا رب إلاّ الله ، ولايجيب المضطرين ويرزق العباد إلاّ الله ، فهو يعطي ويمنـع ، ويخفـض ويرفـع ، ويعز ويذل ، وهو الذي يستحق أن يستعان به ويتوكل عليه ويسـتعاذ بـه ويلتجـيء العباد إليه ، فإنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ولاينفع ذا الجد منه الجد ، كما قال في فاتحة الكتاب : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ ، وقال : ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّـلْ عَلَيْهِ** ﴾[2] ، وقال : ﴿ **قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَاب** ﴾[3] .

قال : لاينبغي لهم أن يخافوا إلاّ الله ، كما قـال تعـالى : ﴿ **فَلاَتَخْشَوْا النَّـاسَ وَاخْشَوْنِ** ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ **الَّذِيْنَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْجَمَعُـوْا لَكُـمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً وَقَالُوْا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيْل ۝ فَـانْقَلَبُوْا بِنِعْمَـةٍ مِـن**

---

(١) منظومة سلم الوصول إلى علم الأصول للحكمي ص ١١٦ .

(٢) سورة هود : ١٢٣ .

(٣) سورة الرعد : ٣٠ .

(٤) سورة المائدة : ٤٤ .

ا للهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوْءٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَتَخَافُوْهُمْ وَخَافُوْنِ ﴾[1] .

وكذلك لاينبغي أن يرجى إلاّ ا لله ، قال ا لله تعالى : ﴿ مَايَفْتَحِ ا للهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَايُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ العَزِيْزُ الحَكِيْمُ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ ا للهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ا لله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ ا للهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المُتَوَكِّلُوْنَ ﴾[3] .

فلا ينبغي أن يتوكلوا إلاّ على ا لله ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَى ا للهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُوْنَ ﴾[4] ، ... وأنه لاينبغي أن يعبدوا إلاّ ا لله ... ولا يدعوا إلاّ ا لله ... سواء كان دعاء عبادة أو دعاء مسألة)[5] .

وإذا كان تعالى هو ربنا ومليكنا وإلهنا ، فلا مفزع لنا في الشدائد سواه ، ولا ملجأ لنا منه إلاّ إليه ، ولا معبود لنا غيره ، فلاينبغي أن يدعى أو يخاف أو يرجى أو يحب غيره ، ولايذل ولايخضع لغيره ، ولايتوكل إلاّ عليه ؛ لأن من تخافه وترجوه وتدعوه وتتوكل عليه إمّا أن يكون مربيك والقيم بأمورك ، ومتولي شأنك فهو

---

(١) سورة آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٢) سورة فاطر : ٢ .

(٣) سورة الزمر : ٣٨ .

(٤) سورة إبراهيم : ١٢ .

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢/٤٨٨ ، ٤٨٩ .

ربك ، ولا رب لك سواه ، وتكون مملوكه وعبده الحق ، فهو ملـك النـاس حقـاً ، وكلهم عبيده ومماليكه ، أو يكون معبودك وإلهك الذي لاتستغني عنه طرفـة عـين ، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك .

فهو الإله الحق إله الناس ، فمن كان ربهم ومليكهم وإلههم ، فهم جديرون أن لايتكلوا على غيره ، ولايلجأوا إلى غـير حمـاه ، فهـو كـافيهم وحسـبهم ونـاصرهم ووليهم ومتولي أمورهم جميعاً بربوبيته وملكه وإلهيته لهم .

فكيف لايتوكل العبد على ربه في كل أمر من أموره ؟ ! .

إن الاعتماد والتوكل على غير الله في أي أمر من الأمور يخالف قولـه تعـالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴾ ، وقوله : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْـبِيَ ا للهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيْم ﴾[1] ، وقوله : ﴿ وَتَوَكَّـلْ عَلَـى الحَـيِّ الَّذِيْ لاَيَمُوْتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوْبِ عِبَادِهِ خَبِـيْراً ﴾[2] ، وغيرهـا مـن الآيات والأحاديث التي تبين التوكل وحقيقته .

* * *

---

(١) سورة التوبة : ١٢٩ .

(٢) سورة الفرقان : ٥٨ .

تَعْرِيْفُ التَّوَكُّلْ لُغَةً وَاصْطِلاَحاً

(أ) – تعريف التوكل في اللغة :

التوكل في اللغة معناه الاعتماد والتفويض .

قال ابن الأثير[1] : (أصل التوكل : يقال : توكلت بالأمر إذا ضمن القيام به ، ووكلت أمري إلى فلان : أي ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه ، ووكل فلان فلاناً : إذا استكفاه أمر ثقة بكفايته أو عجزاً عن القيام بأمره)[2] .

ويقال : (وَكلت الأمر إليه وَكْلاً : من باب وَعَدَ ، ووكولاً : فوضته إليه واكتفيت به ... تقول : وتوكل على الله : اعتمد عليه ووثق به ، واتكل عليه في أمره كذلك)[3] .

فالتوكل : إظهار العجز والاعتماد على الغير[4] .

---

(١) هو : المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري ، أبو السعادات مجد الدين المحدث اللغوي الأصولي ، ولد سنة (٥٤٤ هـ) في جزيرة ابن عمر ، ونشأ فيها ، وانتقل إلى الموصل فاتصل بصاحبها فكان من أخصائه ، وأصيب بالنقرس فبطلت حركة يديه ورجليه إلى أن توفي في إحدى قرى الموصل سنة (٦٠٦ هـ) . انظر ترجمته في : وفيات الأعيان ١٤١/٤ ، والأعلام للزركلي ٢٧٢/٥ ، ٢٧٣ .

(٢) النهاية في غريب الحديث ٢٢١/٥ .

(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ٨٣٨/٢ . دار الكتب العلمية – بيروت .

(٤) مختار الصحاح ص ٧٣٤ ، ولسان العرب ٧٣٦/١١ . دار صادر .

وأصله من الوكول ، يقال : وكلت أمري إلى فلان : ألجأته إليه ، واعتمدت فيه عليه[1] .

قال الإمام النووي رحمه الله وعفا عنه : (والتوكل : الاعتماد ، يقال : توكلت على الله تعالى ، أو على فلان ، وهذا الأمر موكول إلى فلان ، ووكلت الأمر إليه وكْلاً ووكولاً : إذا فوضته إليه وجعلته نائباً)[2] .

(والمتوكل على الله : الذي يعلم أن الله كافل رزقه وأمره ، فيركن إليه وحده ولايتوكل على غيره)[3] .

(يقال : وَكِلَ بالله ، وتوكل عليه ، واتكل : استسلم إليه)[4] .

وقيل : التوكل مشتق من الوكالة ، يقال : وكل أمره إلى فلان : أي : فوضه إليه ، واعتمد عليه فيه ، ويسمى الموكول إليه وكيلاً ، وقد تطلق كلمة الوكيل بمعنى الحفيظ ؛ لأنه الذي يدير الأمر ويعني به ، وقد تطلق بمعنى الرقيب المطلع ؛ لأن من شأن الوكيل أن يراقب مايوكل إليه ، وقد تطلق بمعنى الناصر ؛ لأن الوكيل يركن إليه من يكل أمره إليه[5] .

وقد ورد لفظ التوكل بالإفراد والجمع والماضي والمضارع والأمر في القرآن الكريم

---

(١) فتح الباري ٣١٢/١١ . المطبعة السلفية .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ١٩٥/٤ . دار الكتب العلمية - بيروت .

(٣) لسان العرب ٧٣٤/١١ .

(٤) لسان العرب ٧٣٤/١١ .

(٥) المسلم في عالم اليوم ٢٢١/١ - ٢٢٢ .

ثنتان وأربعون مرة . كلها جاءت بمعنى الاتكال والاعتماد على الله تعالى وتفويض الأمر إليه والركون عليه ثقة به سبحانه وتعالى .

فالاسم من توكل : التكلان - بضم التاء - : يقال : اتكل على فلان في أمره ؛ إذا اعتمده[1] . واتكلت على فلان في أمري إذا اعتمدته[2] .

وقد ورد في حديث الترمذي رحمه الله تعالى : « اللهم هذا الدعاء وعليك الاستجابة ، وهذا الجهد وعليك التكلان »[3] .

وفي حديث ابن ماجه رحمه الله : « ... بسم الله لا حول ولا قوة إلاّ بالله ، التكلان على الله »[4] .

وعند الإمام أحمد رحمه الله تعالى : « ... أنه قال في قول عثمان رضي الله تعالى عنه : « الله المستعان ، اللهم صبراً ، وعلى الله التكلان »[5] .

ومنه الاتكال : قال ابن الأثير في منال الطالب : (والاتكال : اعتماد الإنسان على غيره في كفاية مهامه ؛ لعجزه وكسله عن توليها بنفسه)[6] .

---

(١) مختار الصحاح ص ٧٣٤ . دار الفكر - بيروت .

(٢) لسان العرب ٧٣٦/١١ . دار صادر .

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ، باب مايقول إذا قام من الليل ، وقال عنه : هذا حديث غريب لانعرفه إلاّ من حديث أبي ليلى من هذا الوجه .

(٤) أخرجه ابن ماجه في الدعاء ، باب مايدعو به الرجل إذا خرج من بيته . وفي الزوائد : في إسناده عبدالله ابن حسين ، ضعفه أبو زرعة والبخاري وابن حبان .

(٥) أخرجه في المسند ٤٠٧/٤ . ط / ليدن .

(٦) منال الطالب في شرح طوال الغرائب ص ١٢٣ . ط / جامعة أم القرى .

ويقال : تواكل القوم تواكلاً : اتكل بعضهم على بعض[1] . وواكله مواكلة : اتكل كل واحد منهما على صاحبه[2] .

قال الجوهري[3] : (ويقال : واكلت فلاناً مواكلة : إذا اتكلت عليه واتكل عليك)[4] .

وفي صحيح مسلم وسنن أبي داود من حديث الفضل بن عباس وعبدالمطلب ابن ربيعة : « ... ثم دخل ودخلنا عليه ... قال : فتواكلنا الكلام »[5] .

والتواكل أن يكل كل واحد أمره إلى صاحبه : يعني أراد كل منا أن يبتديء صاحبه بالكلام دونه .

والاسم : الوكالة : ... ووكيل الرجل الذي يقوم بأمره ، سمي وكيلاً ؛ لأن موكله قد وكل إليه القيام بأمره فهو موكول إليه الأمر[6] .

---

(١) المصباح المنير ٧٣٨/٤ ، ولسان العرب ٧٣٥/١١ .

(٢) مختار الصحاح ص ٧٣٨ ، ولسان العرب ٧٣٥/١١ .

(٣) هو : إسماعيل بن حماد أبو نصر الجوهري ، أول من حاول الطيران ، ومات في سبيله ، لغوي من الأئمة ، أشهر كتبه : الصحاح الذي اختصر الرازي في مختار الصحاح ، توفي سنة ٣٩٣ هـ . انظر ترجمته في : سير أعلام النبلاء ٨٠/١٧ ، والأعلام للزركلي ٣١٣/١ .

(٤) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١٩٥/٤ .

(٥) صحيح مسلم : الزكاة ، باب ترك استعمال آل النبي على الصدقة ، حديث ١٦٧ ، وسنن أبي داود : الإمارة ، باب في بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذي القربى ، حديث ٢٩٨٥ .

(٦) لسان العرب ٧٣٦/١١ .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : (والوكالة يراد بها أمران :

أحدهما : التوكيل : وهو الاستنابة والتفويض .

والثاني : التوكل : وهو التصرف بطريق الإنابة عن الموكل .

وهذا من الجانبين ، فإن الله تبارك وتعالى يوكل العبد ويقيمه في حفظ ما وكله فيه ، والعبد يوكل الرب ويعتمد عليه .

فأما وكالة الرب عبده ففي قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُوْا بِهَا بَكَافِرِيْن ﴾[1] .

قال قتادة[2] : وكلنا بها الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرناهم - يعني : قبل هذه الآية - .

وقال أبو رجاء العطاردي[3] : معناه إن يكفر بها أهل الأرض فقد وكلنا بها أهل السماء ، وهم الملائكة .

---

(١) سورة الأنعام ٨٩ .

(٢) هو : أبو طالب قتادة بن دعامة السدوسي الأكمه ، كان يسكن البصرة ، روى عن عدد من الصحابة منهم أنس رضي الله عنهم ، كان قوي الحافظة واسع الاطلاع متضلعاً في العربية ، ومن هنا جاءت شهرته في التفسير ، له كلام في القدر . توفي سنة (١١٧ هـ) . انظر : ترجمته في : سير أعلام النبلاء ٢٦٩/٥ ، والتفسير والمفسرون للدكتور محمد الذهبي ١٢٥/١ - ١٢٦ .

(٣) هو : أحمد بن عبدالجبار بن محمد التميمي العطاردي ، ولد بالكوفة سنة (١٧٧ هـ) ، قدم بغداد وحدث بها عن جماعة ، وكان عنده عن أبي معاوية تفسيره ، توفي بالكوفة سنة (٢٧٢ هـ) . انظر ترجمته في : تاريخ بغداد ٢٦٢/٤ ، والأعلام للزركلي ١٤٣/١ .

وقال ابن عباس ومجاهد : هم الأنصار أهل المدينة .

والصواب أن المراد من قام بها إيماناً ودعوة وجهاداً ونصرةً ، فهؤلاء هم الذين وكلهم الله بها .

فإن قلت : فهل يصح أن يقال : إن أحداً وكيل الله ؟ .

قلت : لا . فإن الوكيل من يتصرف عن موكله بطريق النيابة ، والله عزوجل لا نائب له ولايخلفه أحد ، بل هو الذي يخلف عبده كما قال النبي ﷺ : « ... اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل »[1] ، على أنه لايمتنع أن يطلق ذلك باعتبار أنه مأمور بحفظ ما وكله فيه ، ورعايته والقيام به .

وأما توكيل العبد ربه : فهو تفويضه إليه وعزل نفسه عن التصرف ، وإثباته لأهله ووليه ؛ ولهذا قيل في التوكل : إنه عزل النفس عن الربوبية وقيامها بالعبودية . ومعنى كون الرب وكيل عبده : أي كافيه ، والقائم بأموره ومصالحه ؛ لأنه نائبه في التصرف ، فوكالة الرب عبده : أمر وتعبد وإحسان ، وخلقه منه عليه ، لا عن حاجة منه وافتقاره إليه كموالاته .

وأمّا توكيل العبد ربه : فتسليم لربوبيته ، وقيام بعبوديته)[2] .

---

(١) أخرجه مسلم في الحج ، باب مايقول : إذا ركب إلى سفر الحج وغيره ، وأبو داود في الجهاد ، باب مايقول الرجل إذا سافر ، والترمذي في الدعوات ، باب مايقول إذا خرج مسافراً ، وفي باب ما يقول إذا ركب الناقة ، والنسائي في كتاب الاستعاذة ، باب الاستعاذة من كآبة المنقلب ، والدارمي في الاستيذان ، باب في الدعاء إذا سافر ، والإمام أحمد في المسند ٢/٤٠١ .

(٢) مدارج السالكين ٢/١٢٦ - ١٢٧ .

والوكيل : الكافي ، وهو الكفيل بأرزاق العباد ، والقائم عليهم بمصالحهم[1] .

ومنه قول المسلمين : « حسبنا الله ونعم الوكيل » . أي : كافينا ونعم الكافي ؛ كقولك : ارزقنا ونعم الرازق .

وقد ورد اسم الوكيل سبحانه بهذا اللفظ في القرآن الكريم خمس عشرة مرة . كلها بمعنى : الكافي ، أو الحافظ ، أو الكفيل بأرزاق العباد والقائم بأمورهم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (وأمّا الحسب فهو الكافي . والله وحده كاف عبده ؛ كما قال تعالى : ﴿ الَّذِيْنَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ ﴾[2] ، فهو وحده حسبهم كلهم . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِيْنَ ﴾[3] ، أي : حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين : هو الله ، فهو كافيكم كلكم)[4] .

(ب) – التوكل في الاصطلاح :

عرف التوكل على الله بتعاريف عديدة يمكن أن أذكر منها :

– أن يعلم الإنسان أن الله كافل رزقه وأمره كله فيركن إليه وحده ، ولايركن إلى غيره .

---

(١) شأن الدعاء للخطابي ص ٧٧ .

(٢) سورة آل عمران : ١٧٣ .

(٣) سورة الأنفال ٦٤ .

(٤) الرسالة التدمرية ص ٢٠١ ، بتحقيق د . محمد السعوي – الطبعة الأولى .

— تفويض الأمر إلى الله عزوجل والثقة بحسن النظر فيما أمر به .

— تفويض الأمر إلى الله تعالى والثقة به مع ماقدر له من التسبب[1] .

— رد الأمر إلى الله وحده في النصر والهزيمة وفي الحياة والموت ، وفي كل خطوة من خطوات الطريق ، وفي كل أمر وفي كل اتجاه .

— وقال ابن رجب[2] رحمه الله : (هو صدق اعتماد القلب على الله عزوجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها ، وكلة الأمور كلها إليه ، وتحقيق الإيمان بأنه لايعطي ولايمنع ولايضر ولاينفع سواه)[3] .

وقال الحسن[4] رحمه الله تعالى : (توكل العبد على ربه : أن يعلم أن الله هو ثقته)[5] .

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين حفظه الله : (صدق الاعتماد على الله عزوجل ، في جلب المنافع ودفع المضار مع فعل الأسباب التي أمر الله بها)[6] .

---

(١) مختصر شعب الإيمان للقزويني ص ١٦ . دار البيان - دمشق .

(٢) هو : زين الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي ، ثم الدمشقي الحنبلي المشهور بابن رجب ، المتوفى سنة (٧٩٥ هـ) . انظر ترجمته مستوفاة في : ذيل طبقات الحنابلة .

(٣) جامع العلوم والحكم ص ٤٠٩ . دار المعرفة - بيروت .

(٤) هو : الحسن بن يسار التابعي ، مولى زيد بن ثابت الأنصاري ، وأمه مولاة لأم سلمة ، ولد في أواخر خلافة عمر ، وحضر الجمعة مع عثمان رضي الله عنه ، وشهد يوم الدار ، دعا له عمر فقال : اللهم فقهه في الدين وحببه إلى الناس . توفي سنة (١١٠ هـ) . انظر ترجمته في : سير أعلام النبلاء ٥٦٣/٤ - ٥٨٨ .

(٥) جامع العلوم والحكم ص ٤٠٩ .

(٦) المجموع الثمين لابن عثيمين ٦٦/١ .

وقيل في تعريف التوكل : (هو اعتماد القلب على ا لله مع الأخذ بالأسباب ومع كامل اليقين أن الرازق الخالق المحيي المميت والمعطي هو ا لله سبحانه وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه)[1] .

وقيل : التوكل : اعتماد القلب على ا لله وحده مع الأخذ بالأسباب المأمور بها واعتقاد أنها لاتجلب بذاتها نفعاً ولاتدفع ضراً ، بل السبب والمسبب فعل ا لله والكل بمشيئته .

وقيل في تعريفه : (عقيدة تتضمن الاعتماد على ا لله والرضا بقضائه وقدره ، والرجوع إليه في كل شيء مع الأخذ بالأسباب)[2] .

وقيل : التوكل : أن يستوي الإكثار والتقلل[3] .

وهناك تعريفات للمتصوفة والزهاد نقل ابن القيم رحمه ا لله تعالى كثيراً من هذه التعريفات ، ولعل ماسيأتي من تعريفات تتضمن كثيراً منها .

قال أبو إسماعيل الهروي[4] : (التوكل : كلة الأمر إلى مالكه ، والتعويل على وكالته)[5] .

---

(١) الطريق إلى ولاية ا لله ص ١٩٩ .

(٢) دراسات في الثقافة الإسلامية لصالح ذياب هندي ص ٥٧ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ٩٢/٣ .

(٤) هو : عبدا لله بن محمد بن علي الأنصاري ، شيخ خراسان ، من كبار الحنابلة ، ومن ذرية أبي أيوب الأنصاري ، كان بارعاً في اللغة ، حافظاً للحديث ، عارفاً بالتاريخ والأنساب ، ولد سنة (٣٩٦ هـ) ، وتوفي سنة (٤٨١ هـ) . انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٥٠٣/١٨ - ٥١٨ ، والأعلام للزركلي ١٢٢/٤ .

(٥) مدارج السالكين ١٢٦/٢ .

قال ابن القيم : (أي تسليمه إلى من هو بيده ، والاعتماد على قيامه بالأمر والاستغناء بفعله عن فعلك)[1] .

وقال الغزالي : (فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده)[2] .

وقال الإمام أحمد : (التوكل : عمل القلب)[3] ، ومعنى ذلك : أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح ، ولا هو من باب العلوم والإدراكات[4] .

وقال بعضهم : (التوكل : التعلق با لله في كل حال)[5] .

ومن الناس من يجعله من باب المعارف والعلوم ، فيقول : هو علم القلب بكفاية الرب للعبد .

ومنهم من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب ، فيقول : التوكل : هو انطراح القلب بين يدي الرب ، وهو ترك الاختيار والاسترسال مع مجاري الأقدار ... .

قال ابن حجر رحمه ا لله : (والمراد بالتوكل : اعتقاد مادلت عليه هذه الآية : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى ا للهِ رِزْقُهَا ﴾[6] ، وليس المراد به ترك التسبب

---

(١) مدارج السالكين ٢/١٢٦ .

(٢) إحياء علوم الدين ٤/٢٤٠ ، وانظر : مختصر منهاج القاصدين ص ٣٥٥ .

(٣) مدارك السالكين ٢/١١٤ .

(٤) تهذيب مدارج السالكين ص ٣٣٧ . المكتبة العلمية .

(٥) مدارج السالكين ٢/١١٥ .

(٦) سورة هود : ٦ .

والاعتماد على مايأتي من المخلوقين ؛ لأن ذلك قد يجري إلى ضد مايراه من التوكل)[1] .

وقال عبدا لله بن داود[2] لما سئل عن التوكل : (أرى التوكل حسن الظن با لله)[3] .

وقال الإمام أحمد : (وجملة التوكل : تفويض الأمر إلى ا لله جل ثناؤه والثقة به)[4] .

وقال سهل بن عبدا لله التستري[5] : (التوكل : الاسترسال مع ا لله تعالى على مايريد)[6] .

وقيل : التوكل : حالة مركبة من مجموع أمور لاتتم حقيقة التوكل إلاّ بها ، فكل من كان با لله وصفاته أعلم وأعرف كان توكله أصح وأقوى[7] .

---

(١) فتح الباري : ٣٠٥/١١ .

(٢) هو : عبدا لله بن داود بن عمر الخريبي ، ثقة عابد ، قال ابن عيينة عنه : (ذاك شيخنا القديم) ، وقال ابن سعد : (كان عابداً ناسكاً) ، توفي عام (٢١٣ هـ) وله (٨٧) سنة . انظر ترجمته في : تهذيب التهذيب ١٩٩/٥ ، وتقريبه ٤١٢/١ .

(٣) حسن الظن با لله لأبي الدنيا ص ٢٢ . دار الثقة بمكة .

(٤) ثلاث من شعب الإيمان للبيهقي مطبوع على الآلة الكاتبة ص ٦١٧ ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

(٥) هو : سهل بن عبدا لله بن يونس التستري أبو محمد ، أحمد أئمة الصوفية وعلمائها ومتكلميها ، ولد عام (٢٠٠ هـ) ، وتوفي عام (٢٨٣ هـ) . انظر ترجمته في : طبقات الصوفية ص ٢٠٦ ، والأعلام للزركلي ١٤٣/٣ .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي ٩٢/٣ .

(٧) تهذيب مدارج السالكين ص ٣٣٧ . المكتبة العلمية .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (فإن قلت : فما معنى التوكل والاستعانة ؟ .
قلت : هو حال للقلب ينشأ عن معرفته با لله والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع ، وأنه ماشاء كان وإن لم يشأ الناس ، ومالم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس . فيوجب له هذا اعتماداً عليه ، وتفويضاً إليه وطمأنينة به ، وثقة به ، ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه ، وأنه مَلِيٌّ به ، ولايكون إلاّ بمشيئته شاءه الناس أم أبوه)[1] .

وقال التستري أيضاً : (من طعن في الحركة - يعني في السعي والكسب - فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان ، فالتوكل : حال النبي ﷺ ، والكسب سنته ، فمن عمل على حاله فلايتركن سنته)[2] .

وقيل : التوكل : الاكتفاء با لله تعالى مع الاعتماد عليه[3] .

وقيل : التوكل : وثوقك بالمضمون واستبدالك الحركة بالسكون)[4] .

وقيل : هو طرح البدن في العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية ، فإن أعطي شكر ، وإن منع صبر[5] .

---

(١) مدارج السالكين ٨٢/١ .

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٤٠٩ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ٩٢/٣ .

(٤) دليل الفالحين شرح رياض الصالحين ٢٥٦/١ .

(٥) مدارج السالكين ١١٥/٢ .

وقال أبو سعيد الخراز[1] : (التوكل : اضطراب بـلا سـكون ، وسـكون بـلا اضطراب)[2] .

وقال إبراهيم الخواص[3] : (التوكل : تناول السبب من ا لله)[4] .

وقال بعضهم : (التوكل لايظهر فيك انزعاج إلى الأسـباب مـع شـدة فـاقتك إليها ، ولاتزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها)[5] .

وقيل : التوكل : أن تـرد عليـك مـوارد الفاقـات ، فلاتسـمو إلاّ إلى مـن إليـه الكفايات[6] .

ومنهم من يفسره بالثقة با لله والطمأنينة إليه والسكون إليه[7] .

---

(١) هو : أحمد بن عيسى البغدادي الخراز – نسبة إلى خرز الجلود – يقـال بأنـه أول مـن تكلـم بالفنـاء والبقـاء ، أنكر عليه أهل مصر فكفروه بألفاظ تفوه بها ، توفي سنة (٢٨٦ هـ) ، وقيل (٢٧٧ هـ) . انظـر ترجمتـه في : سـير أعلام النبلاء ٤١٩/١٣ – ٢٧٧ ، وحلية الأولياء ٢٤٦/١٠ – ٢٤٩ ، وطبقات الصوفية ص ٢٢٨ – ٢٣٢ .

(٢) مدارج السالكين ١١٥/٢ .

(٣) هو : إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص ، أبو إسحاق ، كان من أقران الجنيد والنوري ، توفي بجـامع الري سنة إحدى وتسعين ومائتين ، ويقال : سنة أربع وثمانين . انظر ترجمته في : صفة الصفوة لابـن الجـوزي ٩٨/٤ – ١٠٢ ط / دار المعرفة – بيروت ، وطبقات الصوفية ص ٢٨٤ – ٢٨٧ .

(٤) الجامع لشعب الإيمان للبيهقي ٤٦٥/٣ .

(٥) مدارج السالكين ١١٥/٢ .

(٦) المرجع نفسه .

(٧) المرجع نفسه .

وسئل يحيى بن معاذ[1] : (متى يكون الرجل متوكلاً ؟ فقال : إذا رضي با لله وكيلاً)[2] .

ولكن يمكن أن يكون التعريف الجامع لهذه الأقوال جميعاً الموافق لنصوص الكتاب والسنة هو :

التوكل : اعتماد القلب على ا لله وحده لا شريك له ، وتفويض الأمر إليه سبحانه ، والاستعانة به مع الأخذ بالأسباب المأمور بها ، واعتقاد أنها لاتجلب بذاتها نفعاً ولاتدفع ضراً بل السبب والمسبب فعل ا لله ، والكل بمشيئته ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، مع التسليم لقدر ا لله والرضى بما يكون والصبر عليه .

* * *

---

(١) هو : يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي ، يكنى أبا زكريا ، نزل الري ، ثم انتقل إلى نيسابور فسكنها ، وبها مات سنة (٢٥٨ هـ) . انظر ترجمته في : صفة الصفوة ٤/٩٠ - ٩٢ .

(٢) مدارج السالكين ٢/١١٥ .

حَقِيْقَةُ التَّوَكُّلْ

إنّ لكل شيء حقيقة تترجم إلى واقع ملموس ومشاهد ، ولو أن كل شيء بالادعاء لما تفاوت الناس عند الله تعالى ، فقد اختلف الناس في حقيقة التوكل كما سيأتي قريباً - إن شاء الله - .

فليس التوكل الحق : عدم اتخاذ الأسباب ؛ لأن حقيقة التوكل عند أهل الحق بعد الثقة بالله : السعي فيما لابد منه من المطعم والمشرب والتداوي من الأمراض والتحرز من العدو ، وكل هذا لاينافي التوكل بل هو من التوكل : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُوْلاً فَامْشُوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوْا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُوْرُ ﴾[1] .

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوْا فَي الأَرْضِ وَابْتَغُوْا مِنْ فَضْلِ اللهِ ﴾[2] .

﴿ وَأَعِدُّوْا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُوْنَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ... ﴾[3] .

وقال ﷺ : « ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده »[4] .

---

(١) سورة الملك : ١٥ .

(٢) سورة الجمعة : ١٠ .

(٣) سورة الأنفال : ٦٠ .

(٤) أخرجه : البخاري في كتاب البيوع ، باب تكسب الرجل وعمله بيده ، والبيهقي في السنن الكبرى ١٢٧/٦ ، وأحمد في المسند ١٣١/٤ ، ١٣٢ .

وقال الله عن مريم عليها السلام : ﴿ وَهُزِّيْ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾[1] .

وهذا دليل على أن الله عزوجل يأمر باتخاذ الأسباب ، كما دل على ذلك قوله : ﴿ وَهُزِّيْ ﴾ فأمر الله بذلك مع إمكان تقديم ذلك الرطب في صحائف من ذهب[2] .

قال الشاعر :

ألم تر أن الله قـــــال لمريم	إليك فهزي الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزها	جنته ولكن كل شيء له سبب[3]

قال الإمام النووي رحمه الله : (اختلفت عبارات العلماء من السلف والخلف في حقيقة التوكل ، فحكى الإمام أبو جعفر الطبري[4] وغيره عن طائفة من السلف أنهم قالوا : لايستحق اسم التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى ، من سبع أو عدو ، حتى يترك السعي في طلب الرزق ثقة بضمان الله تعالى له رزقه ، واحتجوا بما جاء في ذلك من الآثار .

---

(١) سورة مريم : ٢٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ١١٧/٣ .

(٣) بهجة المجالس ١٤٢/١ .

(٤) هو : محمد بن جرير بن يزيد ، من أهل طبرستان ، ولد سنة (٢٢٤ هـ) ، وحفظ القرآن وعمره سبع سنين ، وصلى بالناس وعمره ثمان ، وكتب الحديث ولم يتجاوز بعدُ العاشرة ، يقول عن نفسه : إنه سمع نحواً من ألف حديث عن شيخه أبي كريب ، وهو من أكابر المفسرين ، وتفسيره شاهد على ذلك ، توفي سنة (٣١٠هـ) . انظر ترجمته في : التفسير والمفسرون ٢٠٥/١ ، وسير أعلام النبلاء ٢٦٧/١٤ - ٢٨٢ .

وقالت طائفة : حده : الثقة با لله تعالى ، والإيقان بأن قضاءه نافذ واتباع سنة نبيه ﷺ في السعي فيما لابد منه من المطعم والمشرب والتحرز من العدو ، كما فعله الأنبياء صلوات ا لله تعالى عليهم أجمعين .

قال القاضي عياض[1] : وهذا المذهب هو اختيار الطبري وعامة الفقهاء ، والأول مذهب بعض المتصوفة وأصحاب علم القلوب والإشارات .

وذهب المحققون منهم إلى نحو مذهب الجمهور ، ولكن لايصح عندهم اسم التوكل مع الالتفات والطمأنينة إلى الأسباب ، بل فعل الأسباب : سنة ا لله وحكمته والثقة بأنه لايجلب نفعاً ولايدفع ضراً ، والكل من ا لله تعالى وحده .

قال الإمام الأستاذ أبو القاسم القشيري[2] رحمه ا لله تعالى : (اعلم أن التوكل محله القلب ، وأمّا الحركة بالظاهر فلايتنافى التوكل بالقلب بعدما تحقق العبد أن الثقة من قبل ا لله تعالى ، فإن تعسر شيء فبتقديره ، وإن تيسر شيء فبتيسيره)[3] ا . هـ

---

(١) هو : عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي الأندلسي الغرناطي المالكي ، ولد سنة (٤٧٦ هـ) لم يأخذ العلم في الصغر ، لكنه جد في طلبه حتى بلغ عدد شيوخه المائة ، له شعر رائق ، ومصنفات عديدة ، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم ، توفي سنة (٥٤٤ هـ) . انظر ترجمته في : سير أعلام النبلاء ٢١٢/٢ - ٢١٨ ، ونسيم الرياض شرح شفاء القاضي عياض ٣/١ ، والديباج المذهب في أعيان المذهب ٤٦/٢ - ٥١ .

(٢) هو : عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة النيسابوري القشيري ، ولد سنة ٣٧٦ هـ ، هو صاحب كتاب الرسالة القشيرية أهم متون التصوف ، وله التفسير المسمى : لطائف الإشارات ، توفي سنة (٤٦٥ هـ) . انظر ترجمته في : تاريخ بغداد ٨٣/١١ ، ووفيات الأعيان ٢٠٥/٣ - ٢٠٨ ، وشذرات الذهب ٣١٩/٣ .

(٣) شرح صحيح مسلم ٩٢/٣ .

فالتوكل معنى يلتئم من أصلين : من الثقة با لله والاعتماد عليه ، وهذا حقيقة قول ا لله تعالى في سورة الفاتحة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴾ فالأصلان - وهما التوكل والعبادة - قد ذكرا في القرآن الكريم في عدة مواضع ؛ قرن ا لله بينهما فيها . هذا أحدها .

أما الثاني : فقول شعيب عليه السلام : ﴿ وَمَا تَوْفِيْقِي إِلاَّ بِا للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيْبُ ﴾[1] .

والثالث : قول ا لله تعالى : ﴿ وَ للهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[2] .

والرابع : قوله تعالى حكاية عن المؤمنين : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيْرُ ﴾[3] .

الخامس : قول ا لله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ اسْمُ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيْلاً رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيْلاً ﴾[4] .

السادس : قوله عزوجل : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَاب ﴾[5] .

---

(١) سورة هود : ٨٨ .

(٢) سورة هود : ١٢٣ .

(٣) سورة الممتحنة : ٤ .

(٤) سورة المزمل : ٩ .

(٥) سورة الرعد : ٣٠ .

فهذه ستة مواضع جمع الله فيها بين الأصلين: الثقة والاعتماد، أو التوكل والعبادة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (وسر التوكل وحقيقته هو: اعتماد القلب على الله وحده فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله: توكلت على الله مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء وتوكل القلب شيء، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء، فقول العبد: توكلت على الله مع اعتماد قلبه على غيره؛ مثل قوله: تبت إلى الله وهو مصرٌّ على معصيته مرتكبٌ لها)[1].

وقال الزبيدي[2]: (وحقيقة التوكل: الثقة بما عند الله واليأس مما في أيدي الناس)[3].

فالتوكل على الله: (اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب ومع كامل اليقين، أن الرازق الخالق المحيي المميت والمعطي المانع هو الله سبحانه وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه)[4].

---

(١) الفوائد: ص ٨٧.

(٢) هو: محمد بن محمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسيني الزبيدي، أبو الفيض، الملقب بمرتضى: علامة باللغة والحديث والرجال والأنساب، من كبار المصنفين، أصله من (واسط) بالعراق، ولد بالهند ونشأ باليمن، ورحل إلى الحجاز، وأقام بمصر، وتوفي بالطاعون فيها سنة (١٢٠٥ هـ). انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي ٧/٧٠.

(٣) تاج العروس ٨/١٦٠.

(٤) الطريق إلى ولاية الله ص ١١٩. ط / ١ المطبوعات الحديثة.

فإذا قلنا : إنه الاعتماد على الله والثقة به ، والإيمان بأنه مقدر الأشياء ، ومدبر الأمور كلها مع النظر في الأسباب العادية من العبد وقيامه بها : فإن هذا مركب من شيئين :

أحدهما : الاعتماد على الله والثقة به والتفويض إليه لكونه قد علم الأشياء وقدرها ، وله القدرة في الأسباب الدينية والدنيوية وقيامه بها .

والثاني : النظر من العبد في الأسباب الدينية والدنيوية وقيامه بها .

فإذا علم العبد أن الأمر كله لله ، وأنه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، وأنه هو النافع والضار ، وأنه لاحول ولا قوة إلاّ بالله ، فبعد هذا العلم يعتمد عليه في جلب مصالح دينه ودنياه ، ويثق به في حصول مطلوبه مع بذل الجهد في فعل الأسباب النافعة .

ومتى استدام العبد هذا العلم وهو الاعتماد على الله فهو المتوكل ، ومتى علق ذلك بغير الله فهو شرك .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : (التوكل يتناول التوكل عليه ؛ ليعينه على فعل ما أمر ، والتوكل عليه ؛ ليعطيه ما لايقدر العبد عليه .

فالاستعانة تكون على الأعمال . وأمّا التوكل فأعمُّ من ذلك ، ويكون التوكل عليه لجلب المنفعة ودفع المضرة ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْا مَاآتَاهُم اللهُ وَرَسُوْلُهُ وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُوْلُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُوْنَ ﴾[1] ، وقال تعالى :

---

(١) سورة التوبة : ٥٩ .

﴿ الَّذِيْنَ قَالَ لَهُم النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُـمْ إِيْمَانـاً وَقَالُوْا حَسْبُنَا ا للهُ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ ﴾[1])[2] .

قال الشاعر :

إذا ما حذرت الأمر فاجعل إزاءه	رجـــوعاً إلى رب يقيـك المحاذرا
ولاتخش أمـراً أنت فيــه مفوض	إلى ا لله غايـــــات لـه ومصادرا
وكن للذي يقضي به ا لله وحـده	وإن لم توافـــــقه الأماني شاكرا
ولاتفخرن إلا بثوب صيــــــانة	إذا كنت يومـــاً بالفضيلة فاخرا
وإني كفيل بالنجـــاة من الأذى	لمن لم يبت يدعو سوى ا لله ناصرا[3]

فحقيقة التوكل : أنه عبادة واستعانة كمـا في قولـه سبحانه : ﴿ إِيَّـاكَ نَعْبُـدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴾ ، فهذه الآية كما قال العلماء : جمعت أسرار القـرآن ؛ لأن أولهـا يقتضـي عبادتـه بـالأمر والنهـي والمحبـة والخـوف والرجـاء ... ، وآخرهـــا اقتضـى بالتفويض والتسليم وترك الاختيار ، وجميع العبوديات داخلة في ذلك .

وهكذا قوله تعالى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[4] ، وقوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْـتُ وَإِلَيْهِ أُنِيْبُ ﴾[5] ، وقوله : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المَصِيْرُ ﴾[6] ،

---

(١) سورة آل عمران : ١٧٣

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٧٧/٨ .

(٣) مجموع القصائد الزهديات للسلمان ٤٤٥/١ .

(٤) سورة هود : ١٢٣ .

(٥) سورة هود : ٨٨ .

(٦) سورة الممتحنة : ٤ .

وقوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾[2] .

فهو مقارن للعبادة ، فيجب أن يعبد الله وحده لا شريك له ، وأن يستعان به ويتوكل عليه .

فالتوكل إذن جزء توحيد الربوبية والألوهية[3] .

والعبادة أيضاً جامعة لمعرفة الله والإنابة إليه ، ومحبته والإخلاص له ، فالتوكل أيضاً جزء العبادة .

والتوكل أيضاً : الثقة بالله واليقين الصادق ، كما قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (يا أيها الناس توكلوا على الله وثقوا به فإنه يكفي من سواه)[4] .

وإلاّ فلا توكل ما لم يكن معه يقين ، وعلامة اليقين : إخلاص العبادة لله تعالى لا لعرض الدنيا ، ولا لرضا المخلوقين ، والرضى بما يعطي الله ويمنع ، والعلم بأن الله الرازق الحافظ المتكفل بأمور عباده أجمعين . لا منفعة إلاّ منه ، ولا مضرة إلاّ بحكمه .

والمؤمن مأمور بالتوكل على الله كما هو مأمور بامتثال الأوامر واجتناب

---

(١) سورة الرعد : ٣٠ .

(٢) سورة المزمل : ٩ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ١/٨٩ - ٩٠ .

(٤) التوكل على الله لابن أبي الدنيا ص ٥٨ . دار الأرقم .

النواهي والاستعانة به سبحانه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (فمن راع الأمر والقدر كان عابداً لله مطيعاً له مستعيناً به متوكلاً عليه ، من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين في غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَيَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾[3] فالعبادة له والاستعانة به)[4] .

قلتُ : والتوكل عليه وحده لا شريك له .

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[5] « أي : الله وحده كافيك وكافي أتباعك ، فلايحتاجون معه إلى أحد ، وقيل : المعنى : حسبك الله وحسبك المؤمنون . وهذا خطأ محض لايجوز حمل الآية عليه ، فإن الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة .

---

(١) سورة هود : ١٢٣ .

(٢) سورة الشورى : ١٠ .

(٣) سورة الطلاق : ٢ ، ٣ .

(٤) التدمرية ص ٢٣١ .

(٥) سورة الأنفال : ٦٤ .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُرِيْدُوْا أَنْ يَخْدَعُوْكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِيْنَ ﴾[1] .

ففرق بين الحسب والتأييد ، فجعل الحسب له وحده ، وجعل التأييد له بنصره وبعباده ، وأثنى على أهل التوحيد من عباده ، حيث أفردوه بالحسب فقال تعالى : ﴿ الَّذِيْنَ قَالَ لَهُم النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ ﴾[2] .

ولم يقولوا : حسبنا الله ورسوله ، فإذا كان هذا قولهم ومدح الرب تعالى لهم بذلك فكيف يقول لرسوله : الله وأتباعه حسبك ؟ ! وأتباعه قد أفردوا الرب تعالى بالحسب ولم يشركوا بينه وبين رسوله ، فكيف يُشرك بينه وبينهم في حسب رسوله ﷺ ؟ ! ، هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل .

ونظير هذا قوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِيْنَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُوْلُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُوْنَ ﴾[3] .

فتأمل كيف جعل الإيتاء لله والرسول كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُوْلُ فَخُذُوْهُ ﴾[4] ، وجعل الحسب له ، فلم يقل : وقالوا : حسبنا الله ورسوله ، بل جعله خالص حقه ، كما قال : ﴿ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُوْنَ ﴾ ، ولم يقل : وإلى رسوله ،

---

(1) سورة الأنفال : ٦٢ .

(2) سورة آل عمران : ١٧٤ .

(3) سورة التوبة : ٥٩ .

(4) سورة الحشر ٨ .

بل جعل الرغبة إليه وحده ، كما قال : ﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾[1] فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب له وحده ، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلف لايكون إلاّ له سبحانه وتعالى)[2] ا . هـ .

(وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة - أي باب التوكل - ؛ لأن الله تعالى أخبر أنه حسب رسوله ، وحسب أتباعه . أي : كافيهم وناصرهم فنعم المولى ونعم النصير ، وفي ضمن ذلك أمرٌ لهم بإفراده تعالى بالحسب ، استكفاء بكفايته تبارك وتعالى ، وذلك هو التوكل)[3] .

وقال ابن القيم رحمه الله في معنى هذه الآية : (أي : كافية ، ومن كان الله كافيه وواقيه ، فلا مطمع فيه لعدوه ولايضره إلاّ أذى لابد منه كالحر والبرد والجوع والعطش ، وأمّا أن يضره بما يبلغ به مراده فلايكون أبداً ، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء ، وهو في الحقيقة إحسان إليه ، وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذي يشتفي به منه ، قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده ، فقال : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[4] ولم يقل : فله كذا وكذا من الأجر ، كما قال في الأعمال ؛ بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه ، وحسبه ، وواقيه ، فلو توكل العبد على

(١) سورة الانشراح : ٨ .

(٢) تيسير العزيز الحميد ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٠١ .

(٤) سورة الطلاق : ٢ ، ٣ .

ا لله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً ، وكفاه ونصره)[1] .

قال الشاعر الزاهد :

وإذا دجى ليل الخطوب وأظلمت	سبل الخلاص وخاب فيها الآمل
وأيست من وجه النجاة فمالها	سبب ولايدنو لها متناول
يأتيك من ألطافه الفرج الذي	لم تحتسبه وأنت عنه غافل[2]

إن التوكل من أعمال القلوب : كالمحبة والإنابة والخوف والرجاء وإخلاص الدين والصبر على أوامر ا لله وعن نواهيه وعلى أقداره والرضى به وعنه ، والموالاة فيه ، والمعادة فيه ، والذل له والخضوع ، والاخبات إليه ، والطمأنينية به ، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى ا لله من مستحبها ، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليلها .

ومما سبق يتبين لنا أن حقيقة التوكل :

الثقة با لله والاعتماد عليه وحده لا شريك له وتفويض كل الأمور إليه جل وعلا مع الاستعانة به وحده مع فعل الأسباب المأمور بها ، أو غير المنهي عنها مع علم الواثق والمعتمد والفاعل للأسباب أنها لاتجلب بذاتها نفعاً لم يقدره ا لله ، ولاتدفع

---

(١) بدائع الفوائد ٢/٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٢) مجموعة القصائد الزهديات للسلمان ١/٥ - ٦ .

ضراً أراده الله ، بل كل ذلك بمشيئة الله وقدرته ومن لطفه وإحسانه فليتوكل العبد عليه فهو كافيه وواقيه ، والله الموفق وعليه التكلان .

* * *

مَنْزِلَةُ التَّوَكُّلِ وَفَضْلِهِ

التوكل على الله تعالى مقام جليل عظيم الأثر ، بل ومن أعظم واجبات الإيمان وأفضل الأعمال والعبادات المقربة إلى الرحمن ، وأعلى مقامات توحيد الله سبحانه وتعالى .

فإن الأمور كلها لاتحصل ولاتتم إلاّ بالاستعانة بالله ، ولا عاصم للعبد سوى الاعتماد على الله عزوجل .

ومنزلة التوكل قبل منزلة الإنابة ؛ لأنه يتوكل في حصول مراده فهو وسيلة والإنابة غاية .

وهو من أجلّ السبل وأفضلها وأعظمها قدراً .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (التوكل نصف الدين ، والنصف الثاني : الإنابة ، فإن الدين استعانة وعبادة ، فالتوكل : هو الاستعانة والإنابة هي العبادة)[1] .

والتوكل متعلق بكل أمور العبد الدينية التي لاتتم الواجبات والمستحبات والمباحات إلاّ بها .

قال ابن القيم رحمه الله : (ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها ، ولاتزال معمورة بالنازلين ؛ لسعة متعلق التوكل ، وكثرة حوائج العالمين)[2] .

(١) مدارج السالكين ١١٢/٢ .

(٢) مدارج السالكين ١١٣/٢ .

فمنزلة التوكل مقدرة بشدة الحاجة إليه ، وعباد الله تعالى المؤمنين حقاً إذا نابهم أمر من الأمور فروا إلى الله تعالى منيبين إليه ومتوكلين عليه ، وبهذا يسهل الله ما كان صعباً ، وييسر ما كان عسيراً ، ويحقق للعبد ما أراده وهو مطمئن البال هادىء النفس راضٍ بما قدره الله له وأعطاه إياه .

قال ابن القيم رحمه الله : (ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه ، وكان مأموراً بإزالته لأزاله)[1] .

فالمسلم لايرى التوكل على الله في جميع أعماله وأموره واجباً خلقياً فحسب بل يراه فريضة دينية ، ويعده عقيدة إسلامية لأمر الله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[2] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[3] .

لهذا كان التوكل المطلق على الله تعالى جزءاً من عقيدة المؤمن وإيمانه ، بل نصف دينه كما سبق .

كيف لا وهو الأصل الذي تتفرع عنه العبادات جميعها ، وهو أحد مباني التوحيد ؛ أعني توحيد الألوهية الذي أرسلت به الرسل ونزلت من أجله الكتب وخلق البشر للقيام به .

بل هو واجب ؛ لأنه أصل من أصول الإيمان لقوله سبحانه : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[4] .

---

(١) مدارج السالكين ٨١/١ .

(٢) سورة المائدة : ٢٣ .

(٣) سورة آل عمران : ١٢٢ ، ١٦٠ ، والمائدة : ١١ ، والتوبة : ٥١ ، وإبراهيم : ١١ ، والمجادلة : ١٠ ، والتغابن : ١٣ .

(٤) سورة المائدة : ٢٣ .

وقوله عز وجل: ﴿قَالت لهم رسلهم إن نحن إلاّ بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وماكان لنا أن نأتيكم بسلطان إلاّ بإذن ا لله وَعَلَى ا للهِ فَلْيَتَوَكَّل الْمُؤْمِنُونَ . وما لنا أن لانتوكل على ا لله وقد هدانا سبلنا ولنصبرنّ على ما آذيتمونا وعلى ا لله فليتوكل المتوكلون﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَومِ إن كُنتُم آمَنتُم بِا للهِ فَعَلَيهِ تَوَكَّلُوا إن كُنتُم مُسلِمِين ﴾[2] .

وقوله سبحانه آمراً رسوله ﷺ : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِن عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنهُم غَيرَ الذِي تَقُولُ وَا لله يَكتُبُ مَايُبَيِّتُونَ فَأَعرِض عَنهُم وَتَوَكَّل عَلَى ا للهِ وَكَفَى بِا لله وَكِيلاً ﴾[3] .

وغيرها من الآيات التي تبين فضل التوكل وأنه فريضة لابد فيه من تفويض الأمر إلى ا لله سبحانه وتعالى كما قال : ﴿ فَسَتَذْكُرُوْنَ مَا أَقُوْلُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى ا للهِ إِنَّ ا لله بَصِيْرٌ بِالعِبَادِ ﴾[4] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه ا لله : (... فإن التوكل على ا لله واجب من أعظم الواجبات ، كما أن الإخلاص لله واجب ، وحب ا لله واجب ، وقد أمر ا لله

---

(١) سورة إبراهيم : ١١ ، ١٢ .

(٢) سورة يونس : آية ٨٤ .

(٣) سورة النساء : آية ٨١ .

(٤) سورة غافر ٤٤ .

بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة ، ونهى عن التوكل على غير الله)[1] .

وقال الرسول ﷺ فيما رواه عنه البراء بن عازب رضي الله عنه عند البخاري : « إذا أويت إلى مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، ثم قل : اللهم أسلمت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلاّ إليك ، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنبيك الذي أرسلت . فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تتكلم »[2] .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : (والتوكل جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا لايتصور وجوده بدونها)[3] .

قلتُ : وهو القاعدة المطمئنة التي يفيء إليها القلب ، فيعرف عندها حدوده وينتهي إليها ويدع ماوراءها لصاحب الأمر والتدبير سبحانه في ثقة وفي طمأنينية وفي يقين .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/٧ .

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء ، باب فضل من بات على الوضوء ، ومسلم في الذكر والدعاء ، باب مايقول عند النوم وأخذ المضجع ، وأبو داود في الأدب ، باب مايقول عند النوم ، والترمذي في الدعوات باب ١١٧ ، والدارمي في الاستيذان ، باب الدعاء عند النوم ، وأحمد في عدة مواضع من المسند منها : ٢٨٥/٤ .

(٣) مدارج السالكين ١٣٦/١ .

قال الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب : (الأصل الجامع الذي تتفرع عنه الأفعال والعبادات هو التوكل على الله وصدق الالتجاء إليه ، والاعتماد بالقلب عليه ، وهو خلاصة التفريد ، ونهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف من المحبة والخوف والرجاء والرضا به رباً وإلهاً ، والرضا بقضائه ، بل ربما أوصل العبد إلى التلذذ بالبلاء ، وعده من النعماء ، كما في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب ، فسبحان من يتفضل على من شاء بما يشاء ، والله ذو الفضل العظيم)[1] .

إن التوكل على الله هو أحد مباني توحيد الإلهية ، كما يدل على ذلك قول الله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيْمِ ﴾[3] ، وغيرها من الآيات لايقوم به على وجه الكمال إلاّ خواص المؤمنين ، كما في صفة السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب .

أخرج البخاري عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ : « عرضت عليَّ الأمم ، فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط ، والنبي ليس معه أحد ، حتى رفع لي سواد عظيم ، قلت : ماهذا ؟ أمتي هذه ؟ . قيل : بل هذا موسى وقومه . قيل : انظر إلى

---

(١) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ١١٠ .

(٢) سورة هود : ١٢٣ .

(٣) سورة التوبة : ١٢٩ .

الأفق فإذا سواد يملأ الأفق ، ثم قيل لي : انظر هاهنا وهاهنا - في آفاق السماء - فإذا سواد قد ملأ الأفق ، قيل : هذه أمتك ، ويدخل من هؤلاء سبعون ألفاً بغير حساب ، ثم دخل و لم يبين لهم فأفاض القوم .

وقالوا : نحن الذين آمنا با لله واتبعنا رسوله ، فنحن هم أو أولادنا الذين ولدوا في الإسلام ، فإنا ولدنا في الجاهلية . فبلغ النبي ﷺ فخرج فقال : هم الذين لايسترقون ، ولايتطيرون ، ولايكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون . فقال عكاشة بن محصن : أمنهم أنا يارسول ا لله ؟ . قال : نعم . فقام آخر فقال : أمنهم أنا ؟ قال : سبقك بها عكاشة »[1] .

وفي رواية له : قال النبي ﷺ : « عرضت عليَّ الأمم فأخذ النبي يمر معه الأمة ، والنبي يمر معه النفر ، والنبي يمر معه العشرة والنبي يمر معه الخمسة ، والنبي يمر وحده ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قلت : يا جبريل هؤلاء : أمتي ؟ . قال : لا ، ولكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد كثير قال : هؤلاء أمتك ، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب . قلت : و لم ؟ قال : كانوا لايكتوون ، ولايسترقون ، ولايتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون . فقام إليه عكاشة بن محصن فقال : ادع ا لله أن يجعلني منهم . قال : اللهم اجعله منهم . ثم قام إليه رجل آخر فقال : ادع ا لله أن يجعلني منهم . قال : سبقك بها عكاشة »[2] .

---

(١) كتاب الطب ، باب من اكتوى أو كوى غيره ، وفضل من لم يكتو ١٥٤/١٠ .

(٢) في كتاب الرقاق ، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب .

وأخرج مسلم عن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال : قال نبي الله ﷺ : « يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب » قالوا : ومن هم يارسول الله ؟ . قال : « هم الذين لايكتوون ، ولايسترقون ، وعلى ربهم يتوكلون » فقام عكاشة فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . قال : « سبقك بها عكاشة »[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير »[2] .

قيل : معناه : متوكلون ، وقيل : قلوبهم رقيقة .

وقد كانت بعمران بن الحصين رضي الله عنه بواسير ، فكان يصبر على ألمها ، وكانت الملائكة تسلم عليه ، فاكتوى فانقطع سلامهم عليه ، ثم ترك الكي وصبر على الألم فعاد سلامهم عليه ، كما أخرج ذلك مسلم عن مطرف قال : (قال لي عمران بن الحصين : أحدثك حديثاً عسى الله أن ينفعك به : إن رسول الله ﷺ جمع بين حجة وعمرة[3] ، ثم لم ينه عنه حتى مات ، ولم ينزل فيه قرآن يحرمه ، وقد كان يُسلم عليّ حتى اكتويت فتركت ، ثم تركت الكي فعاد »[4] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الإيمان ، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بلا حساب ولا عذاب ، بألفاظ وأخرجه الترمذي في صفة القيامة ، باب ١٦ .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة ، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ، والإمام أحمد في المسند ٣٣١/٢ .

(٣) أي أمر بالجمع بينهما .

(٤) أخرجه مسلم في الحج ٨٩٩/٢ ، باب جواز التمتع حديث رقم ١٦٧ .

فالتوكل على الله تعالى صفة عليّة من صفات عباد الرحمن وشعارٌ يتميزون به عمن سواهم ، وعلامةٌ بارزةٌ لأهل الإيمان كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوْبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيْمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ ﴾[1] .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : (أي : لايرجون سواه ، ولايقصدون إلاّ إياه ، ولايلوذون إلاّ بجنابه ، ولايطلبون الحوائج إلاّ منه ، ولايرغبون إلاّ إليه ، ويعلمون أنه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك لاشريك له ، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ، ولهذا قال سعيد بن جبير[2] : « التوكل على الله جماع الإيمان »)[3] .

وقال سيد قطب رحمه الله : (وهذا هو إخلاص الاعتقاد ، وإخلاص العبادة له دون سواه ، فما يمكن أن يجمع في قلب واحد : توحيد الله والتوكل على أحد معه

---

(١) سورة الأنفال : ٢ .

(٢) هو : أبو عبدالله سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي ، الحافظ المقرىء المفسر الشهيد ، أصله حبشي ، كان أعلم التابعين على الاطلاق ، عابداً خاشعاً لله لاتأخذه في الله لومة لائم ، أخذ العلم عن حبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، ومع ذلك يقول ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه : أتسألوني وفيكم ابن دهماء ؟ يعني سعيداً ، قتله الحجاج سنة (٩٥ هـ) . انظر ترجمته في : سير أعلام النبلاء ٣٢١/٤ - ٣٤٢ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢٨٦/٢ . وأمّا الأثر الذي قاله سعيد بن جبير فأخرجه عبدالله بن أحمد بن حنبل في السنة (٧٧٦) ٣٦١/١ . تحقيق القحطاني ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٢٧٤/٤ ، والبيهقي في شعب الإيمان / . وابن أبي الدنيا في التوكل ص ٥٦ بإسناد صحيح . دار الأرقم .

سبحانه ، والذين يجدون في قلوبهم الاتكال على أحد أو على سبب يجب أن يبحثوا ابتداء في قلوبهم عن الإيمان با لله)[1] .

وقال تعالى عن أوليائه - إبراهيم والذين آمنوا معه - : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيْرُ ﴾[2] ، أي : توكلنا عليك في جميع أمورنا ، وسلمناها إليك ، وفوضناها إليك ، ﴿ إِلَيْكَ الْمَصِيْرُ ﴾ أي : المعاد في الدار الآخرة .

ولقوة إيمانهم وتوكلهم أمر ا لله أن نتخذهم أسوة حسنة ؛ لأنهم سلموا التسليم المطلق لله ، وهذا هو السمة الإيمانية الواضحة للمؤمنين الصادقين في إيمانهم .

وقد وصفهم الشاعر بقوله :

صحبوا التوكل في جميع أمورهم   مع بذل جهد في رضى الرحمن[3]

وقال تعالى : ﴿ الَّذِيْنَ قَالَ لَهُم النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً وَقَالُوْا حَسْبُنَا ا لله وَنِعْمَ الوَكِيْلُ ﴾[4] .

فالتوكل : هو عدة المؤمنين يوم يتوعدهم الناس ويخوفونهم بكثرة الأعداد ، وأبرز

---

(١) في ظلال القرآن ١٤٧٦/٣ .

(٢) سورة الممتحنة : ٤ .

(٣) مجموعة القصائد الزهديات للسلمان ٢٢٦/١ ، وقائله عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه ا لله ، المتوفى سنة ١٣٧٦ هـ مفسر من علماء الحنابلة من عنيزة بالقصيم ، وأول من أنشأ مكتبة فيها ، له نحو ٣٠ كتاباً . انظر ترجمته في : الأعلام للزركلي ٣٤٠/٣ .

(٤) سورة آل عمران : ١٧٣ .

صفاتهم قولهم : « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، قالها إبراهيم عليه السلام في أخوف وأحرج موقف في الدنيا وهو إلقاؤه في النار فكانت برداً وسلاماً عليه .

أخرج البخاري[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما : « حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾ .

وأخرج عنه أيضاً في نفس الباب قال : « كان آخر قول إبراهيم حين ألقي في النار : « حسبي الله ونعم الوكيل » .

فيكون أول شيء وآخر شيء قال : « حسبي الله ونعم الوكيل » .

قال الشاعر :

هو القريب المجيب المستغاث به قل حسبي الله معبودي ومتكلي[2]

فقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة التوكل على الله والالتجاء إليه ؛ لأن الله حسب من توكل عليه ، وكافي من لجأ إليه ، وهو الذي يؤمن خوف الخائف ، ويجير المستجير ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، فمن تولاه ، واستنصر به وتوكل عليه ، وانقطع بكليته إليه تولاه وحفظه وحرسه وصانه ، ومن خافه واتقاه أمنه مما يخاف ويحذر ، وجلب إليه كل مايحتاج إليه من المنافع .

وقوله : وقالها محمد ﷺ ... الخ . وذلك بعدما كان من أمر أُحُدٍ ماكان ، بلغ النبي ﷺ وأصحابه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرة عليهم ، فخرج

---

(١) في كتاب التفسير ، باب ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ الآية .
(٢) مجموعة القصائد الزهديات للسلمان ١/٤٣٠ .

النبي ﷺ ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير وسعد وطلحة وعبدالرحمن ابن عوف وحذيفة بن اليمان وعبدا لله بن مسعود وأبو عبيدة في سبعين راكباً حتى انتهى إلى حمراء الأسد ، وهي من المدينة ثلاثة أميال ، ثم ألقى ا لله الرعب في قلب أبي سفيان ، فرجع إلى مكة ، ومر به ركب من عبد قيس ، فقال : أين تريدون ؟ فقالوا : نريد المدينة . قال : فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة ؟ أرسلكم بها إليه ؟ قالوا : نعم . قال : فإذا واقيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم ، فمر الركب برسول ا لله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه فقال : « حسبنا ا لله ونعم الوكيل » ، والقصة مشهورة في السير والتفاسير .

ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة وأنها قول إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام في الشدائد ؛ ولهذا جاء في الحديث أن النبي ﷺ قضى بين رجلين فقال المقضي عليه لما أدبر : حسبي ا لله ونعم الوكيل . فقال رسول ا لله ﷺ : « ردوا عليَّ الرجل » فقال : ما قلت ؟ قال : قلت : حسبي ا لله ونعم الوكيل . فقال رسول ا لله ﷺ : « إن ا لله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل : « حسبي ا لله ونعم الوكيل »[1] .

وفي الآية دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ، وعلى أن ما يكرهه الإنسان قد يكون خيراً له ، وأن التوكل أعظم الأسباب في حصول الخير ودفع الشر في الدنيا والآخرة .

---

(١) أخرجه أبو داود في الأقضية باب الرجل يحلف على حقه ، والإمام أحمد في المسند ٢٥/٦ .

ومن الآيات الدالة على فضل التوكل وعلو منزلته : قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُوْلُنَّ ا للهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ ا للهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ا للهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتِ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ ا للهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُون ﴾[1] .

فإذا كان المؤمنون دائماً متوكلين على ا لله ملتجئين إليه بقولهم : « حسبنا ا لله ونعم الوكيل » فأولى بأنبيائه أن يكونوا أكمل توحيداً وتوكلاً من غيرهم .

وقد أمر ا لله عباده بالتوكل وحثهم عليه في مواضع كثيرة من كتابه الكريم أكثر مما أمر ببعض العبادات كالوضوء والغسل من الجنابة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ا للهِ فَلْيَتَوَكَّل الْمُؤْمِنُوْن ﴾ في سبعة مواضع من القرآن الكريم[2] ، وقوله سبحانه : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ا للهِ إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ الْمُبِيْنِ ﴾[3] ، وقوله عزوجل : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ا للهِ وَكَفَى بِا للهِ وَكِيْلاً ﴾[4] ، وقوله : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[5] ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لاَيَمُوْتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوْبِ عِبَادِهِ خَبِيْراً ﴾[6] ، وغيرها من الآيات الكثيرة في القرآن الكريم .

---

(١) سورة الزمر : ٣٨ .

(٢) انظر : هامش : ٣ ص ٤٤ من هذا البحث .

(٣) سورة النمل ٧٩ .

(٤) سورة النساء ٨١ .

(٥) سورة هود : ١٢٣ .

(٦) سورة الفرقان : ٥٨ .

وجعل الله التوكل سبباً لنيل محبته فقال : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيْظَ القَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِيْنَ ﴾[1] .

فالخلة التي يحبها الله ، ويحب أهلها هي التي ينبغي أن يحرص عليها المؤمن في كل أمر ، وهي التوكل على الله ، بل الصفة التي تميز المؤمنين عن غيرهم : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِيْنَ ﴾ .

ولهذا أوجب الله التوكل كما أوجب الإخلاص والمحبة والصبر والإنابة التي يحبها الله جميعاً .

بل جعله شرطاً للإيمان والإسلام ، ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل على الله ، وهذا يوضحه قول الله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ ﴾[2] .

قال سيد قطب رحمه الله : (فعلى الله وحده يتوكل المؤمن ، وهذه خاصية الإيمان وعلامته ، وهذا منطوق الإيمان ومقتضاه)[3] .

لقد أمر الله بالتوكل وقرنه بالإيمان ليدل بذلك على أنهما جزآن ، إذ التوكل على الوكيل هو الإيمان ، فأمر بالتوكل قولاً وعملاً بعد الإخبار عن محبته للمتوكل

(١) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٢) سورة المائدة : ٢٣ .

(٣) في ظلال القرآن ٢/٨٧٠ .

عليه : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[1] مع اشتراطه التوكل للإيمان بعد الأمر به في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

إنْ : شرطية في هذه الآية ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾[2] .

فالتوكل على الله دلالة الإيمان ومقتضاه ، وعنصر القوة الذي يضاف إلى رصيد القلة الضعيفة أمام الجبروت الطاغي ، فإذا هي أقوى وأثبت .

وقد ذكر لهم موسى عليه السلام الإيمان والإسلام ، وجعل التوكل على الله مقتضى هذا وذاك ... فلم يخرج عموم المسلمين شرط عموم التوكل ، كما لم يخرج خصوص المؤمنين من شرط وجود الإسلام ، وكما أن كل مؤمن حقاً مسلم لابد عاملاً ، كذلك كل مسلم صادق لابد أن يكون متوكلاً على الله .

قال الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى : (معنى الآية المترجم لها : أن موسى عليه السلام أمر قومه بدخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم ، ولايرتدوا على أدبارهم خوفاً من الجبارين ، بل يمضوا قُدُماً لايهابونهم ولايخشونهم متوكلين على الله في هزيمتهم مصدقين بصحة وعده لهم إن كانوا مؤمنين)[3] .

---

(١) سورة الملك : ٢٩ .

(٢) سورة يونس : ٨٤ .

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٤٩٦ .

وفي الحديث : « من سره أن يكون أقوى الناس إيماناً فليتوكل على الله »[1] .

فقد صار المتوكل على الله من عباد الرحمن الذين وصفهم الله في كتابه بالهون والسكينة ، ونعتهم بالسلامة والخوف ، وذكرهم بالسجود والقيام ، ومدحهم بالاقتصاد والقوام فقال : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُم الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً ﴾[2] الآيات .

فأنعم بمقام يحظى صاحبه بمحبة الرحمن ويتحقق به كمال الإيمان ، لقد ضمن الله لمن توكل عليه القيام بأمره وكفايته همه ونصره وحفظه :

فالله ناصر دينه وكتابه   والله كاف عبده بأمان[3]

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أنه غزا مع النبي ﷺ قبل نجد ، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معهم فأدركتهم القائلة في وادٍ كثيرة العضاه ، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر ، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وعلق بها سيفه ، ونمنا نومة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا ، وإذا عنده أعرابي فقال : « إنَّ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف - فيه عبدالرحيم بن زيد مجمع على ضعفه وكذبه - قاله ابن لهيعة كما في تهذيب التهذيب ٣٠٥/٦ - ٣٠٦ ، ورواه عن أبيه وأبوه ضعيف أيضاً كما في التقريب ، وقد أخرجه عبدالله بن أحمد بن حنبل في زوائد الزهد ص ٢٩٥ ، والحاكم في المستدرك ٢٠٧/٤ ، وأبو نعيم في الحلية ٢١٨/٣ من طريق هشام بن زياد ، وهو متروك كما في التقريب ، وفي هامش المستدرك للذهبي .

(٢) سورة الفرقان : ٦٣ .

(٣) مجموعة القصائد الزهديات ٣٥١/١ .

هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتا ، فقال : من يمنعك مني ؟ فقلت : الله . ثلاثاً . ولم يعاقبه وجلس »[1] .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَايَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[2] أي : كافيه .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : (أي : ومن يتق الله فيما أمره به وترك مانهاه عنه يجعل له من أمره مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب ، أي من جهة لاتخطر بباله)[3] .

وقال الشيخ سليمان رحمه الله : (وفي الآية دليل على فضل التوكل وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار ؛ لأن الله علق الجملة الأخيرة على الأولى ؛ تعليق الجزاء على الشرط ، فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه ؛ لأنه تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له فعلم أن توكله هو سبب كون الله حسباً له)[4] .

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا خرج الرجل من بيته فقال : بسم الله ، توكلت على الله ، لاحول ولا قوة إلاّ بالله قال : يقال حينئذٍ : هديت

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد ، باب من علق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة .

(٢) سورة الطلاق ٢، ٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣٧٩/٤ .

(٤) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ٥٠٢ .

وكفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان » .

زاد أبو داود : « فيقول - يعني الشيطان لشيطان آخر - : كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي ؟ »[1] .

وروي أن علياً رضي الله عنه قال : « يا أيها الناس توكلوا على الله وثقوا به فإنه يكفي من سواه »[2] .

وفي الحديث : « من توكل على الله كفاه ورزقه من حيث لايحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها »[3] .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم توكلتم على الله - عزوجل - حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً[4] ، وتروح بطانا »[5] .

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ، باب مايقول إذا خرج من بيته ، والترمذي في الدعوات ، باب مايقول إذا خرج من بيته . وقال : (هذا حديث حسن صحيح غريب لانعرفه إلاّ من هذا الوجه) . وهو في الجامع الصغير رقم ٤٩٩ .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التوكل ص ٥٨ - ٥٩ . دار الأرقم .

(٣) أورده البرهان فوري في كنز العمال ١٠٣/٣ برقم (٥٦٩٣) ، وقال في تخريجه : (الديلمي عن عمران ابن حصين ، والشاشي وابن جرير) .

(٤) خماصاً : أي : ضامرة البطون من الجوع .

(٥) بطاناً : أي ممتلئة البطون . والحديث أخرجه الترمذي في الزهد ، باب في التوكل على الله ، وقال : (هذا حديث حسن صحيح لانعرفه إلاّ من هذا الوجه) ، والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف ٧٩/٨ ، وأبو نعيم في الحلية ٦٩/١٠ ، والبغوي في شرح السنة ٣٠١/١٤ ، والإمام أحمد في المسند ٣٠/١ ، وفي = =

فقد وصف النبي ﷺ المتوكل على الله بوصفين السعي في طلب الرزق، والاعتماد القوي على مسبب الأسباب، فمن فقد الوصفين أو أحدهما خسر وخاب، ومن سعى في الأسباب المباحة واعتمد على ربه وشكر المولى إذا حصلت له المحبوبات وصبر لحكمه عند المصائب فقد فاز.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1]، أي: عزيز لايذل من استجار به، ولايضع من لاذ بجنابه حكيم لايقصر عن تدبير من توكل على تدبيره.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ أي: يعتمد على جنابه. ﴿ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾، أي: لايضام من التجأ إليه فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أفعاله لايضعها إلاّ في مواضعها فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك)[2].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى حول ما ذكر: (فالتوكل مركب السائر الذي لايتأتى له السير إلاّ به، ومتى نزل عنه انقطع لوقته، وهو من لوازم الإيمان

= الزهد ص ١٨، وابن المبارك في الزهد (٥٥٩)، والحاكم في المستدرك ٣١٨/٤ وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان / ، وابن أبي الدنيا في التوكل، وقد توبع.

وأقل ما يقال في درجة هذا الحديث أنه حسن الإسناد.

(١) سورة الأنفال: ٤٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣١٩/٢.

ومقتضياته ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَى ا للهِ فَتَوَكَّلُوْا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْن ﴾[1] فجعل التوكل على ا لله شرطاً في الإيمان ، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل)[2] .

لقد جعل ا لله التوكل دليلاً على صحة الإسلام كما في قصة موسى السابقة . وجعله أيضاً دليلاً على استدعاء الإيمان ، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه :

قال ابن القيم رحمه ا لله في هذا : (وقال تعالى : ﴿ وَعَلَى ا للهِ فَلْيَتَوَكَّل الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾[3] فذكر اسم الإيمان ههنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل ، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل ، وإذا كان التوكل ضعيفاً فهو دليل على ضعف الإيمان ولابد)[4] .

ومن هذا يتبين لنا منزلة التوكل وفضله ، وأنه أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ، وجميع أعمال الإسلام .

قال ابن القيم رحمه ا لله : (وا لله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة ، وبين التوكل والإيمان ، وبين التوكل والإسلام ، وبين التوكل والتقوى ، وبين التوكل

---

(١) سورة المائدة : ٢٣ .

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ٢٥٥ .

(٣) سورة إبراهيم : ١١ .

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ٢٥٥ .

والهداية ... فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ، ولجميع أعمال الإسلام ، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس ، فكما لايقوم الرأس إلاّ على البدن فكذلك لايقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلاّ على ساق التوكل ، والله أعلم)[1] .

قلتُ : جمع الله التوكل والعبادة في عدة مواضع من القرآن الكريم كما سبق[2] ؛ ليبين سبحانه وتعالى أن التوكل وسيلة للوصول إلى الغاية من خلق الإنسان في هذا الحياة وهي الإنابة ؛ لأن كل عبد لابد له من غاية مطلوبة ووسيلة توصله إلى تلك الغاية : **﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُوْنِ ۞ مَا أُرِيْدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيْدُ أَنْ يُطْعِمُوْنِ ۞ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُوْ القُوَّةِ المَتِيْن ﴾**[3] .

فهي أشرف الغايات ووسيلتها أشرف الوسائل .

وأمَّا الجمع بين الإيمان والتوكل ففي مواضع متعددة أيضاً منها : قوله تعالى : **﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُوْنَ مَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُبِيْن ﴾**[4] ، وقوله سبحانه : **﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوْا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ ﴾**[5] ، وقوله عزوجل :

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ٢٥٥ ، ٢٥٨ .

(٢) انظر : ص ٣٢ ، ٣٣ من هذا البحث .

(٣) سورة الذاريات : ٥٦ - ٥٨ .

(٤) سورة الملك : ٢٩ .

(٥) سورة المائدة ٢٣ .

﴿ وَعَلَى ا للهِ فَلْيَتَوَكَّل الْمُؤْمِنُوْن ﴾[1] .

وجمع بين الإسلام والتوكل في قوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ مُوْسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِا للهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوْا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِيْن ﴾[2] .

وجمع بين التوكل والتقوى في مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ ا للهَ وَلاَتُطِعِ الكَافِرِيْنَ وَالْمُنَافِقِيْنَ إِنَّ ا للهَ كَانَ عَلِيْماً حَكِيْماً ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ إِنَّ ا للهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْراً ۝ وَتَوَكَّل عَلَى ا للهِ وَكَفَى بِا للهِ وَكِيْلاً ﴾[3] ، وفي قوله عزوجل : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ا للهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَيَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّل عَلَى ا للهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[4] .

وجمع بين التوكل والهداية في مثل قوله سبحانه : ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى ا للهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾[5] .

فالاعتصام با لله والتوكل عليه هو المعتمد في الهداية ، والعدة في مباعدة الغواية ، والوسيلة إلى الرشاد ، وطريق السداد ، وحصول المراد ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُوْنَ وَأَنْتُمْ تَتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيْكُمْ رَسُوْلُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِا للهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ ﴾[6] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٢١ .

(٢) سورة يونس : ٨٤ .

(٣) أول سورة الأحزاب .

(٤) سورة الطلاق : ٣ .

(٥) سورة إبراهيم : ١٢ .

(٦) سورة آل عمران : ١٠١ .

وقال لقمان لابنه : « يَا بُنَيَّ الدنيا بحر عميق ، قد غرق فيها أناس كثير ، فإن استطعت أن تكون سفينتك فيها الإيمان با لله – عزوجل – وحشوها العمل بطاعة ا لله سبحانه ، وشراعها التوكل على ا لله لعلك تنجو »[1] .

وقال وهب بن منبه[2] رحمه ا لله : (التوكل هو الغاية القصوى)[3] .

قلتُ : إنَّ ما ذكرناه من الآيات الكريمات والأحاديث النبوية والآثار والأقوال ، أدلة على فضل التوكل على ا لله ، وبيان منزلته العظيمة فقد حثت على تحصيله وبينت أن من يدرك ذلك ويسعى له ينال عند ا لله عزوجل المنزلة العالية والدرجة الرفيعة ، فبشرفه يشرفون ، وبفضله يفضلون ، وبكرمه يكرمون ، وبتحقيقه يرزقون .

وقد أفرد بعض العلماء أبواباً في بيان فضل التوكل ومنزلته ، بل كتباً . مثل : التوكل على ا لله لابن أبي الدنيا[4] ، والتوكل على ا لله

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التوكل برقم ٩ . دار الأرقم .

(٢) هو : أبو عبدا لله : وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن ذي كبار الأنباري اليماني الذماري الصنعاني التابعي الفاضل العلامة الاخباري القصصي أخو همام ومعقل وغيلان أبناء منبه ، ولد في زمن عثمان سنة (٣٤ هـ) روايته للسند قليلة وإنما غزارته في الإسرائيليات ومن صحائف أهل الكتاب . توفي سنة (١١٠ هـ) . سير أعلام النبلاء ٤/٥٤٤ – ٥٥٦ .

(٣) جامع العلوم والحكم ص ٤٠٩ .

(٤) هو : عبدا لله بن محمد بن عبيد بن سفيان القرشي مولاهم أبو بكر بن أبي الدنيا البغدادي من موالي بني أمية ، ولد في بغداد سنة (٢٠٨ هـ) كان والده محدثاً . وكان عبدا لله مؤدباً لكثير من أبناء الخلفاء ، وله أكثر من مائة مصنف ، فيها مخبآت وعجائب ، توفي سنة (٢٨١ هـ) في بغداد . انظر ترجمته في : سير أعلام النبلاء ١٣/٣٩٧ – ٤٠٤ . وطبع كتابه التوكل كما سيأتي في قائمة المصادر .

لابن خزيمة[1] ، والتوكل على الله لأبي يعلى[2] ، والتوكل على الله للشيخ عبدالله الجار الله)[3] .

ومما يحقق ما ذكرناه من فضل التوكل وعلو منزلتـه أنـه حـال سـيد المتوكلـين محمد ﷺ ، بل شأن الرسل جميعاً كما بين الله ذلك في آيات كثيرة مـن القـرآن الكريم .

قال الله تعالى عن محمد ﷺ : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَـى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[4] .

فهو المتوكل الذي سلم أمره كله لله منيباً إليه ، ومن أسمائه ﷺ المتوكل ، وتوكلـه أعظم توكل . وقد قال الله له : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾[5] .

---

(١) هو : أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي الفقيه ، المحدث ، ولد بنيسابور عام ٢٢٣ هـ ، وتوفي بها سنة (٣١١ هـ) ، له : التوحيد وإثبات صفة الرب ، والصحيح ، وهمـا مطبوعـان . انظـر ترجمتـه في : طبقات الشافعية ١٣٠/٢ ، وسير أعلام النبلاء ٣٦٥/١٤ - ٣٨٢ .

وقد أشار إلى كتابه التوكل : السخاوي في المقاصد الحسنة ص ٣٤٢ ، والعراقي في تخريـج إحيـاء علـوم الدين ٢٥٧/٤ . دار القلم - بيروت .

(٢) هو : إمام الحنابلة محمد بن الحسين بن الفراء القاضي أبو يعلى المحدث المشهور ، المتوفى سنة (٤٥٨ هـ) .

وقد أشار ابنه إلى كتاب التوكل في طبقـات الحنابلـة ٢٠٥/٢ . انظـر ترجمتـه في طبقـات الحنابلـة ١٩٣/٢ - ٢٣٠ ، وسير أعلام النبلاء ٨٩/١٨ - ٩٢ .

(٣) التوكل على الله وأثره في حياة المسلم .

(٤) سورة الشورى : ١٠ .

(٥) سورة النمل : ٧٩ .

على الحق في قولك وعملك واعتقادك ونيتك . متوكلاً على ا لله واثقاً بـه . وهذا هو الدين كله .

وقال له أيضاً : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ا للهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيْمِ ﴾[1] .

(ومن أوضح الأدلة على عظيم توكل نبينا ﷺ على ا لله قوله يوم حنين - واثقاً با لله - وهو على بغلة في ذلك الموقف العظيم :

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب[2] »[3]

وقال ا لله تعالى عن هود عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ ا للهَ وَاشْهَدُوْا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ فَكِيْدُوْنِي جَمِيْعاً ثُمَّ لاَتُنْظِرُوْنِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ا للهِ رَبِّيْ وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ ﴾[4] .

وقال سبحانه عن نوح عليه السلام : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوْحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيْرِي بِآيَاتِ ا للهِ فَعَلَى ا للهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوْا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَيَكُنِ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوْا إِلَيَّ وَلاَتُنْظِرُوْنِ ﴾[5] .

---

(١) سورة التوبة : ١٢٩ .

(٢) « أنا النبي لا كذب ... » أخرجه البخاري في الجهاد ، باب : من قاد دابة غيره في الحرب ، وفي مواضع أخرى ، ومسلم في الجهاد ، باب : غزوة حنين حديث ٧٨ ، والترمذي في الجهاد ، باب : ماجاء في الثبات عند القتال ، والإمام أحمد في المسند ٤/٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٣٠٤ .

(٣) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشنقيطي ٢/٤٧٦ .

(٤) سورة هود : ٥٥ ، ٥٦ .

(٥) سورة يونس : ٧١ .

وقال عزوجل عن شعيب عليه السلام : ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيْدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلى ما أَنهَاكُم عَنهُ إن أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيْقِيْ إِلاَّ بِا للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيْبُ** ﴾[1] .

بل قال سبحانه عن مجموعة الرسل عليهم السلام : ﴿ **وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى ا للهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُوْنَا** ﴾[3] الآية . (فعجبوا من تركهم التوكل على ا لله وقد هداهم وأخبروا أن ذلك لايكون أبداً)[3] .

ومما يدل على فضل التوكل وعلو منزلته أن ا لله ذكره وأمر به في أكمل الأحوال والعبادات ومنها :

١ - قوله سبحانه في حال ومقام العبادة عموماً : ﴿ **وَ للهِ غَيْبُ السَّمَوَات وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُوْنَ** ﴾[4] .

فقد أمر ا لله الرسول ﷺ والمؤمنين وغيرهم ، بل وأمر الخلق بكلة الأمر وماكان في الغيب وما سيكون إلى ا لله وحده ، فهو المستحق لكل عبادة ، بل العبادة عموماً . فلابد من عبادته والتوكل عليه وحده والتوكل جزء العبادة .

---

(١) سورة هود : ٨٨ .

(٢) سورة إبراهيم : ١٢ .

(٣) طريق الهجرتين ص ٢٥٧ .

(٤) سورة هود : ١٢٣ .

وقال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْراً ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيْلاً ﴾[1] .

قال ابن كثير رحمه الله : (أي توكل عليَّ في جميع أمورك وأحوالك)[2] .

فالتوكل هو الذي يربط سائر الأمور ببعضها على إخلاص الأمر له والاستسلام له . وهذا التوجيه لمحمد ﷺ إلى تقوى الله وعبادته واتباع ما يوحي إليه ربه ، والتوكل عليه هو أمر له ولأمته من بعده إلى يوم القيامة .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ لَكَ فِيْ النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيْلاً ۝ وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيْلاً ۝ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيْلاً ﴾[3] ، أي : أفرده بالتوكل عليه في كل عبادتك ؛ لأن العبد في أمس الحاجة للتبتل على الله دون سواه .

وقال عزوجل : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِيْ لاَيَمُوْتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوْبِ عِبَادِهِ خَبِيْراً ﴾[4] .

٢ – وقوله تعالى في مقام الدعوة إلى الله تعالى وأحوالها :

مخاطباً محمداً ﷺ – والخطاب له ولأمته – : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ

---

(١) سورة الأحزاب : ٢ ، ٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٣/٤٦٥ .

(٣) سورة المزمل : ٧ – ٩ .

(٤) سورة الفرقان : ٥٨ .

حَسْبِيَ ا للهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيْمِ ﴾[1] . فهو الذي تنتهي إليه القوة والملك والعظمة والجاه سبحانه ، وهو حسب من لاذ به ومن والاه .

وقال عن نوح عليه السلام : **﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيْرِي بِآيَاتِ ا للهِ فَعَلَى ا للهِ تَوَكَّلْتُ ﴾**[2] الآية .

فإذا حصل التحدي بعد الإنذار الطويل والتذكير المستمر والتكذيب والإعراض فعلى الداعي تفويض الأمر إلى ا لله تعالى ، والتوكل عليه ، فعليه سبحانه التوكل وهو حسب الداعي دون النصراء والأولياء .

فنوح عليه السلام أخبر قومه بعدما بلغ منهم الأمر مبلغ الضيق بأنه ماضٍ في طريق الدعوة لايعتمد إلاّ على ا لله وحده .

وقال عزوجل عن دعوة هود عليه السلام : **﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوْداً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوْا ا للهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُوْنَ ۞ يَاقَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِيْ فَطَرَنِيْ أَفَلاَ تَعْقِلُوْنَ ۞ وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوْا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوْبُوْا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِيْنَ ۞ قَالُوْا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيْ آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِيْنَ ۞ إِن نَقُوْلُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوْءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ ا للهَ**

---

(١) سورة التوبة : ١٢٩ .

(٢) سورة يونس : ٧١ .

وَاشْهَدُوْا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُوْنَ ۝ مِنْ دُوْنِهِ فَكِيْدُوْنِي جَمِيْعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُوْنِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّيْ وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ ﴾[1] الآيات .

فمهما كبر الكيد من المدعوين على الداعي فإن التوكل ملاذه وسلاحه ، فهو لايبالي بأهل الكيد وتجمعهم مادام يسير في عبادة الله ومرضاته ويتوكل عليه وحده لا شريك له .

وقال عن شعيب عليه السلام ودعوته : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوْا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَتَنْقُصُوْا الْمِكْيَالَ وَالْمِيْزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيْطٍ ۝ وَيَاقَوْمِ أَوْفُوْا الْمِكْيَالَ وَالْمِيْزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَتَبْخَسُوْا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِيْنَ ۝ بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيْظٍ ۝ قَالُوْا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَانَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيْمُ الرَّشِيْدُ ۝ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِيْ مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيْدُ ان أُخَالِفَكُم إِلى مَا أَنهَاكُم عَنهُ إن أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيْقِيْ إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيْبُ ﴾[2] .

فشعيب عليه السلام لما هدده قومه بإخراجه والذين آمنوا معه من قريتهم - كما في سورة الأعراف - إن لم يعودوا في ملة الكفر أخبرهم بأنه لن يعود والذين آمنوا

---

(١) سورة هود : ٥٠ - ٥٦ .

(٢) سورة هود : ٨٤ - ٨٨ .

معه في ملة قومهم مهما فعلوا بهم ، وأنهم سيتخذون كل الأسباب والوسائل ويبذلوا كل مافي وسعهم بألاّ يعودوا ، وأخبرهم بأن نتائج عملهم هذا ، وعمله تحت مشيئة الله ، وأنه سبحانه هو العالم بما سيكون من نتائج .

ولصدق هذا الإيمان وهذا اليقين فإن شعيباً قد فوض أمره وأتباعه إلى الله واستسلم وخضع لما يأتي منه سبحانه ، فقال عليه السلام وقومه : ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[1] ، وَكَلُوْا أمرَهم إلى الله : توكل المؤمنين الصادقين في إيمانهم .

وقال سبحانه عن موسى عليه السلام ودعوته : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوْسَى وَهَارُوْنَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوْا وَكَانُوْا قَوْماً مُجْرِمِيْنَ ۞ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوْا إِن هَـذَا لَسِحْرٌ مُبِيْنٌ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِيْنَ ۞ وَقَالَ يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوْا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِيْنَ ۞ فَقَالُوْا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَتَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ ﴾[2] .

٣ – وقوله تعالى في مقام الحكم والقضاء :

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيْهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيْبُ ﴾[3] .

---

(١) سورة الأعراف : ٨٩ .

(٢) سورة يونس ٧٥ – ٨٥ .

(٣) سورة الشورى : ١٠ .

فالرسول ﷺ أمره كله لله منيباً إلى ربه متوكلاً عليه ، ويشهد أن الله هو ربه وأنه يتوكل عليه وحده وأنه ينيب إليه دون سواه ، فكيف يتحاكم الناس إلى غيره سبحانه عند اختلافهم في شيء من الأمر . والنبي المهدي لايتحاكم إلاّ إليه ، وهو أولى من يتحاكم إلى قوله الفصل لايلتفتوا عنه لحظة هنا أو هناك ؟ .

وكيف يتوجهون في أمر من أمورهم وجهة أخرى ، والنبي ﷺ يتوكل على الله وحده ، وينيب إليه وحده ؛ لأنه هو ربه ومتولي أمره وكافله وموجهه إلى حيث يختار ؟ .

يجب على الحاكم والقاضي بين الناس أن يتخذ رسوله ﷺ قدوة في توكله على الله دون غيره ممن يرى أن لهم أثراً عليه بقوة أو ولاء ، وأن يبني حكمه على ذلك في كل أموره وأحكامه ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِيْ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ العَزِيْزُ العَلِيْمُ ۝ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِيْن** ﴾[1] .

فما دام الحاكم والقاضي على الحق المبين فلايبالي بما يعوقه عن الحق آيّاً كان .

٤ – وقوله تعالى في مقام الجهاد وقتال الأعداء :

﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ المُؤْمِنِيْنَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ ۝ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُوْن** ﴾[2] .

---

(١) سورة النمل : ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) سورة آل عمران : ١٢١ – ١٢٢ .

حتى مع إعداد العدة وتجهيز الجيوش والاستعداد بكل وسائل القتال لابد من التوكل على الله ؛ لأن النصر بيده سبحانه : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِيْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾[1] .

إن كنتم في حال ضعف فالنصر بيده ، فتوكلوا عليه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اذْكُرُوْا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوْا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوْا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾[2] .

وإن كنتم في حال قوة وكثرة فالنصر بيده فتوكلوا عليه : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَالاَتَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيْدُ الْعِقَابِ ۞ إِذْ يَقُوْلُ الْمُنَافِقُوْنَ وَالَّذِيْنَ فِي قُلُوْبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاَءِ دِيْنُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ ﴾[3] .

وحتى لو أن العدو في المعركة أرخى جناح الذل وريش الوداعة وظن المؤمنون أن المعركة انتهت فإنه لابد من بقاء الارتباط بالله والتوكل عليه ؛ لأن في التوكل عليه الكفاية والأمان : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوْا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ ﴾[4] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٠ .

(٢) سورة المائدة : ١١ .

(٣) سورة الأنفال ٤٨ ، ٤٩ .

(٤) سورة الأنفال : ٦١ .

وكذلك في حال الغلبة على العدو والانتصار عليه كما في قصة موسى عليه السلام : ﴿ قَالُوْا يَا مُوْسَى إنَّ فِيْهَا قَوْماً جَبَّارِيْنَ وَإنَّا لَـنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوْا مِنْهَا فَإنْ يَخْرُجُوْا مِنهَا فَإنَّا دَاخِلُوْنَ ۞ قَالَ رَجُلاَنِ مِن الَّذِيْنَ يَخَافُوْنَ أنْعَمَ ا للهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوْا عَلَيْهِم البَابَ فَإذَا دَخَلْتُمُوْهُ فَإنَّكُمْ غَالِبُوْنَ وَعَلَى ا للهِ فَتَوَكَّلُوْا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ ﴾[1] .

٥ – قوله سبحانه في مقام المشورة :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ا للهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيْظَ القَلْبِ لاَنْفَضُّوْا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ا للهِ إنَّ ا للهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِيْنَ ﴾[2] .

٦ – قوله عزوجل في مقام طلب الرزق :

﴿ فَمَا أُوْتِيْتُمْ مِنْ شَيءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ ا للهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ ﴾[3] .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ا للهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَيَحْتَسِب وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ا للهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إنَّ ا للهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ ا للهُ لِكُلِّ شَيءٍ قَدْراً ﴾[4] .

---

(١) سورة المائدة : ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٣) سورة الشورى : ٣٦ .

(٤) سورة الطلاق : ٢ ، ٣ .

٧ – وقوله تعالى في مقام العهود والمواثيق :

مخبراً عن يعقوب عليه السلام في قصة يوسف وإخوته : ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوْنِ مَوْثِقاً مِن ا للهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ا للهُ عَلَى مَا نَقُوْلُ وَكِيْلٌ ۞ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَتَدْخُلُوْا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوْا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ ا للهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الحُكْمُ إلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُوْنَ ﴾[1] .

٨ – وقوله سبحانه في مقام الهجرة في ا لله :

﴿ وَالَّذِيْنَ هَاجَرُوْا فِي ا للهِ مِنْ بَعْدِمَا ظُلِمُوْا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوْا يَعْلَمُوْنَ ۞ الَّذِيْنَ صَبَرُوْا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ ﴾[2] .

مقام الهجرة مقام عظيم وأليم على النفس وخاصة غير المؤمنة با لله – أن يترك الإنسان مأواه وداره وأمواله ، ويتعرى عن كل ما يملك ومايحب ويضحي بعشيرته والحبيب من ذكرياتهم ، لكن ذلك يهون عند المؤمنين با لله المتوكلين عليه حق توكله ؛ لأنهم يعلمون أن لهم عوضاً في الآخرة عن كل ماخلفوا وكل ما تركوا .

ومن هؤلاء مهاجرة الحبشة رضي ا لله عنهم الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى هاجروا في ا لله إلى الحبشة في هجرتين مشهورتين .

---

(١) سورة يوسف : ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) سورة النحل : ٤١ ، ٤٢ .

ويدخل في هذا الحكم محمد ﷺ وصاحبه ، ثم صحابته من المهاجرين إلى المدينة الذين كانوا سادة المتوكلين على الله .

﴿ إِلاَّ تَنْصُرُوْهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُوْلُ لِصَاحِبِهِ لاَتَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِيْنَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُوْدٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا وَاللهُ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ ﴾[1] .

وقد أوصى الله رسوله ﷺ في آخر ما نزل من القرآن بقوله سبحانه وتعالى :
﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُوْلٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيْزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيْصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِيْنَ رَؤُوْفٌ رَحِيْمٌ ۞ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيْمِ ﴾[2] .

فكانت الوصية بالتوكل رأس الإيمان وأعلى درجاته فيجب أن يتذكر المسلم هذه الوصية عند آخر فعل الأسباب في الدعوة – في الجهاد – في المشورة – في طلب الرزق – في الحكم – في العهود والمواثيق – في البيع والشراء – في كل العبادات وأمور الدنيا والدين .

* * *

(١) سورة التوبة : ٤٠ .

(٢) سورة التوبة : ١٢٨ - ١٢٩ .

دَرَجَاتُ التَّوَكُّل

التوكل على الله حال مركب من عدة درجات لاتتم حقيقته إلاّ بها وهي :

الأولى : معرفة الرب وصفاته : من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه ، وصدورها عن مشيئته وقدرته .

وهذه المعرفة هي أول درجاته التوكل بل هي أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل .

قال ابن تيمية رحمه الله : (وكذلك لايصح التوكل ، ولايتصور من فيلسوف ولا من القدرية النفاة : بأنه يكون في ملكه ما لايشاء ، ولايستقيم التوكل إلاّ من أهل الإثبات)[١] .

فأي توكل لمن يعتقد أن الله لايعلم جزئيات العالم سفليه وعلويه ؟ ولا هو فاعل باختياره ؟ ولا له إرادة ومشيئة ، ولايقوم به صفة ؟ ، فكل من كان بالله وصفاته أعلم كان توكله أصح وأقوى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ولهذا فإن توكل القدرية النفاة لصفات الله تعالى لايصح ، فهم ينفون مشيئة الله وقدرته ، وزعموا بأنه يكون في ملك الله ما لايشاء كما سبق . وهذا ضلال وانحراف في عقيدة التوكل على الله تعالى كما سيأتي إن شاء الله .

---

(١) مدارج السالكين ١١٨/٢ .

الثانية : إثبات في الأسباب والمسببات :

فمن أثبت الأسباب والمسببات فقد استقام توكله ، ومن نفى أحدهما فتوكله ناقص لايستقيم ألبتة .

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله أعقلها وأتوكل أم أطلقها وأتوكل ؟ . قال : « اعقلها وتوكل »[1] .

والدعاء جعله الله سبباً في حصول المدعو به ، كما قال الله تعالى : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[2] .

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ، باب ٦٠ وفيه : قال عمرو بن علي : قال يحيى - يعني ابن سعيد القطان - : وهذا عندي حديث منكر . وقال الترمذي : (وهذا حديث غريب من حديث أنس لانعرفه إلاّ من هذا الوجه ، وقد روي عن عمرو بن أمية القمري عن النبي ﷺ نحو هذا .

وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٨/٣٩٠ ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٧٩ ، كلهم من طريق المغيرة بن أبي قرة عن أنس ، والمغيرة لم يوثقه غير ابن حبان ففيه جهالة ، وقال الحافظ : (مستور) ا . هـ .

وقال العراقي في تخريج الإحياء ٤/٢٥٧ : (... ورواه ابن خزيمة في التوكل والطبري عن عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٩٤ : (رواه الطبراني بإسنادين ، وفي أحدهما عمرو بن عبدالله بن أمية الضمري و لم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات) ا . هـ .

وقال السخاوي في المقاصد الحسنة ص ٦٦ : (وهو عند الطبراني من حديث أبي هريرة بلفظ : « قيدها وتوكل » ا . هـ .

فالحديث بمجموع طرقه حسن ، والله أعلم .

(٢) سورة غافر : ٦٠ .

وإثبات الأسباب والمسببات في آيات وأحاديث كثيرة منها : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم الأَرْضَ ذَلُوْلاً فَامْشُوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوْا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُوْرُ ﴾[1] .

ومنها قوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوْا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوْا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوْا اللهَ كَثِيْراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ ﴾[2] .

وعن المقدام رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما كسب رجل كسباً أطيب من عمل يده ... »[3] الحديث .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم . فقال : أصحابه : وأنت ؟ . فقال : نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة »[4] .

وعن المقدام رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده »[5] .

---

(١) سورة الملك : ١٥ .

(٢) سورة الجمعة : ١٠ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في الباب الأول من التجارات . وقال في الزوائد : (وفي إسناده إسماعيل بن عياش ، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي) . وهو في صحيح الجامع الصغير برقم (٥٦٦٠) .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة ، باب رعي الغنم على قراريط ، ومسلم بلفظ آخر في الأشربة ، باب فضيلة الأسود من الكباث – ثمر الأراك الناضج – .

(٥) سبق تخريجه في ص ٢٩ .

والرجل الذي يجلس في بيته أو مسجده ويقول : لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي جاهل بشرع الله تعالى[1] الذي يأمر بطلب الرزق والمؤمنون كانوا يطلبون الرزق بناءً على حث الشرع على ذلك وأمره ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وَآخَرُوْنَ يَضْرِبُوْنَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُوْنَ مِنْ فَضْلِ اللهِ** ﴾[2] ، وقوله عزوجل : ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوْا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾[3] ، وكان أصحاب النبي ﷺ يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخيلهم ، ولنا القدوة بهم[4] .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان أصحاب رسول الله ﷺ عمال أنفسهم ، فكان يكون لهم أرواح[5] ، فقيل لهم : لو اغتسلتم »[6] .

وسئل الإمام أحمد بن محمد بن حنبل رحمه الله عن هؤلاء الذين يزعمون أنهم متوكلة ، ويقولون : نقعد وأرزاقنا على الله عزوجل . فقال الإمام أحمد : هذا قول رديء ، أليس قد قال الله تعالى : ﴿ **إِذَا نُوْدِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى**

---

(١) انظر : تلبيس إبليس ص ٢٨٤ .

(٢) سورة المزمل ٢٠ .

(٣) سورة البقرة : ١٩٨ .

(٤) انظر : تلبيس إبليس ص ٢٨٤ .

(٥) أي : يعملون بأنفسهم في زراعتهم وصناعتهم وتجارتهم ، فتكون لهم رائحة العرق .

(٦) أخرجه البخاري في كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده ، ومسلم في الجمعة ، باب وجوب غسل الجمعة على كل بالغ من الرجال ، وبيان ما أمروا به ، وأبو داود بنحوه في الطهارة ، باب في الرخصة في ترك الغسل يوم الجمعة ، وأحمد في المسند ٦٣/٦ .

ذِكْرِ ا للهِ وَذَرُوْا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ﴾(1) .

ثم قال : إذا قال : لا أعمل وجيء إليه بشيء قد عمل واكتسب لأي شيء يقبله من غيره(2) .

وعن صالح بن أحمد بن حنبل قال : سئل أبي عن قوم لايعملون ويقولون : نحن المتوكلين . فقال : هؤلاء مبتدعون(3) .

الدرجة الثالثة : رسوخ القلب في مقام التوحيد :

فإنه لايستقيم توكل العبد على ا لله تعالى حتى يصح له توحيده ، بل حقيقة التوكل على ا لله : إخلاص القلب من علائق الشرك كما قال تعالى : **﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ ا للهُ وَجِلَتْ قُلُوْبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيْمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ ﴾**(4) .

وقال سبحانه : **﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِيْ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ لاَ شَرِيْكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِيْنَ ﴾**(5) .

قال ابن القيم رحمه ا لله تعالى : (وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل ، فإن العبد متى التفت إلى غير ا لله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه .

---

(1) سورة الجمعة : ٩ .

(2) تلبيس إبليس ص ٢٨٤ .

(3) المرجع السابق نفسه .

(4) سورة الأنفال : ٢ .

(5) سورة الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة)[1] .

فلايؤثر فعل الأسباب على القلب ؛ لأن الأسباب محلها الجوارح ، وليس ذاتها هو الجالب للعبد النفع أو الضر ، بل هي أسباب فقط قد يحصل من الله بسببها مايريد العبد وقد لايحصل .

وهذا هو التوكل الصادق النقي البعيد عن الشكوك والظنون والهوى .

الدرجة الرابعة : الاعتماد على الله وحده في كل الأمور :

بحيث لايبقى في القلب تشويش أو اضطراب أو سكون إلى غيره سبحانه من سبب أو نحوه .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيْمِ ﴾[2] .

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَاب ﴾[3] .

قال ابن القيم رحمه الله : (وعلامة هذا : أنه لايبالي بإقبالها – أي الأسباب – وإدبارها ، ولايضطرب قلبه ، ويخفق عند إدبار مايحبه ، وإقبال مايكره ؛ لأن اعتماده على الله ، وسكونه إليه ، وإستناده إليه ، قد حصنه من خوفها ورجائها ، فحاله حال من ... أعطاه ملكٌ درهماً ، فسرق منه . فقال له الملك : عندي أضعافه

---

(١) مدارج السالكين : ٢/١٢٠ .

(٢) سورة التوبة : ١٢٩ .

(٣) سورة الرعد : ٣٠ .

فلاتهتم . متى جئت إليَّ أعطيك من خزائني أضعافه . فإذا علم صحة قـول الملـك ، ووثق به ، واطمأن إليه ، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك لم يحزنه فوته ... كذلك المتوكل لايأوي إلاّ إلى ربه سبحانه »[1] .

﴿ وَاذْكُرُوْا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيْلٌ مُسْتَضْعَفُوْنَ فِي الأَرْضِ تَخَافُوْنَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُـمُ النَّـاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَهُ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ ﴾[2] .

الدرجة الخامسة : حسن الظن با لله عزوجل :

فعلى قدر حسن ظن العبد با لله تعالى ورجائـه يكـون توكلـه عليـه ؛ ولذلـك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن كما مر معنا .

قال رسول ا لله ﷺ : « يقول ا لله عزوجل : أنا عند ظن عبدي بـي وأنـا معـه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في مـلأ ذكرتـه في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعـاً تقربـت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة »[3] .

فحسن الظن با لله يدعو العبد إلى التوكل على ا لله ؛ إذ لايتصور أن مـن سـاء ظنه با لله يتوكل عليه .

---

(١) مدارج السالكين ١٢٠/٢ - ١٢١ .

(٢) سورة الأنفال : ٢٦ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قول ا لله : ﴿ وَيُحَذِّرُكُم ا للهُ نَفْسَهُ ﴾ . ومسـلم في أول كتـاب الذكر والدعاء ، والترمذي في الدعوات ، باب في حسن الظن با لله عزوجـل ، وابـن ماجـه في الأدب ، بـاب فضل العمل ، وأحمد في المسند ٢٥١/٢ .

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاث يقول : « لايموتن أحدكم إلاّ وهو يحسن الظن بالله عزوجل »[1] .

وقد سئل عبدالله بن داود - كما سبق - عن التوكل فقال : (أرى التوكل حسن الظن) .

الدرجة السادسة : استسلام القلب له سبحانه :

قال الله تعالى : ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَيُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيْمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَيَجِدُوْا فِي أَنْفُسِهِم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوْا تَسْلِيْماً** ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُوْلُهُ أَمْراً أَنْ يَكُوْنَ لَهُمْ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾[3] .

قال ابن كثير رحمه الله : (فهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسولُهُ بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأي ولا قول كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَيُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ ...** ﴾ . وفي الحديث : « والذي نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[4]

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب الأمر بحسن الظن بالله عند الموت ، وأبو داود في الجنائز ، باب مايستحب من حسن الظن بالله عند الموت ، وأحمد ٢٩٣/٣ ، وابن أبي الدنيا في حسن الظن حديث ١ .

(٢) سورة النساء : ٦٥ .

(٣) سورة الأحزاب : ٣٦ .

(٤) أخرجه البغوي في شرح السنة بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، وفيه نعيم بن حماد مختلف في توثيقه ، وأكثرهم قال بأنه متروك الحديث ، وأورده النووي في الأربعين وقال : (حديث حسن صحيح) . وتعقبه ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص ٣٦٤ - ٣٦٥ منكراً على النووي تصحيحه له . وقال ابن حجر في الفتح ٢٨٩/١٣ : (أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ورجاله ثقات) . وضعفه الألباني في التعليق على مشكاة المصابيح ٥٩/١ .

ولهذا شدد في خلاف ذلك)[1] .

وقال ابن القيم رحمه الله : (فالاستسلام : كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده ، وانقياده له ، وترك منازعات نفسه وإرادتها مع سيده)[2] .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِيْنَ لاَ شَرِيْكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِيْنَ ﴾[3] .

الدرجة السابعة : التفويض :

قال الله تعالى : ﴿ فَسَتَذْكُرُوْنَ مَا أَقُوْلُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيْرٌ بِالعِبَادِ ﴾[4] .

قال ابن كثير رحمه الله : (... أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه ووضحت وتتذكرونه وتندمون حيث لاينفعكم الندم ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيْ إِلَى اللهِ ﴾ ، أي : وأتوكل على الله وأستعينه وأقاطعكم وأباعدكم ، ﴿ إِنَّ اللهَ بَصِيْرٌ بِالعِبَادِ ﴾ ، أي : هو بصير بهم تعالى وتقدس فيهدي من يستحق الهداية ويضل من يستحق الإضلال ، وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ)[5] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٤٩٠ .

(٢) مدارج السالكين ٢/١٢٢ .

(٣) سورة الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٤) سورة غافر : ٤٤ .

(٥) تفسير القرآن العظيم : ٤/٨١ .

وقال ابن القيم رحمه الله : (وهو - أي التفويض - روح التوكل ولبه وحقيقته ، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله ، وأنزالها به طلباً واختياراً ، لا كرهاً واضطراراً)[1] .

وضرب لذلك مثلاً وهو تفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره لكل أموره إلى أبيه الذي يعلم شفقته عليه ورحمته به ، وتمام كفايته وحسن ولايته له وتدبيره . فهو يرى أن ذلك خير من تدبيره لنفسه ، فلايجد أصلح ولا أرفق من تفويض أموره كلها إلى أبيه وراحته من حمل كلفها وثقل حملها مع عجزه عنها وجهله بوجوه المصالح فيها وعلمه بكمال علم من فوض إليه وقدرته وشفقته[2] .

قلتُ : بل الأمر أعلى وأعظم من ذلك كله ، فالله أشفق على العبد وأرحم به ، وأكمل كفاية وحسن ولاية وتدبير له .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : « إن أشد آية في القرآن تفويضاً : ﴿ **وَمَنْ يَتَوَكَّل عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ »[3] .

ومما ينبغي التنبيه إليه أن التفويض ليس معناه ترك الأسباب ، فإن ذلك تضييع لا تفويض ؛ لأن العبد بذلك يضيع حظ نفسه ظناً منه أن ذلك تفويض وتوكل .

فتعطيل الأسباب إلحاد وزندقة ، وفعلها وعدم الاعتماد عليها لذاتها إيمان وتوحيد .

---

(١) مدارج السالكين ١٢٢/٢ .

(٢) انظر : مدارج السالكين ١٢٢/٢ .

(٣) التوكل لابن أبي الدنيا ص ٩٤ - ٩٥ . دار القلم . وإسناده جيد .

وهذا مبني على الثقة با لله ؛ لأن الثقة به خلاصة التوكل على ا لله ونقطة دائرة التفويض ، التي يدور عليها .

فلو كان التفويض قلباً لكانت الثقة سويداءه ، ولو كان عيناً لكانت سوادها ، ولو كان دائرة لكانت نقطتها .

ولهذا فسر كثير من الناس التوكل بالثقة با لله ، ومنهم من يفسره بالتفويض .

فالثقة إذن روح التوكل وسويداء التفويض الذي هو قلب التوكل .

وقال بعض العباد : (إنك أيها الرجل إن فوضت أمرك إليه اجتمع لك في ذلك أمران ، قلت : ماهما ؟ قال : قلة الاكتراث بما قد ضمن لك ، وراحة البدن من مطلب ذلك ، فأي حال أكبر من حال المطيع له والمتوكل عليه ؟ ! . كفاه ا لله عزوجل بتوكله عليه الهم وأعقبه الراحة)[1] .

الدرجة الثامنة : الرضى :

وهو ثمرة التوكل . وبعض الناس فسر التوكل بالرضى - كما سبق - وهذا تفسير له بأجل ثمراته ، وأعظم فوائده ؛ لأن العبد إذا توكل على ا لله حق توكله رضي بما يفعله ا لله تعالى .

وقد نقل ابن القيم رحمه ا لله تعالى عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه ا لله قوله : (المقدور يكتنفه أمران : التوكل قبله ، والرضى بعده ، فمن توكل على ا لله

---

(١) التوكل لابن أبي الدنيا ص ٩٥ - ٩٦ .

قبل الفعل ، ورضي بالمقضيّ له بعد الفعل فقد قام بالعبودية .

قال ابن القيم : أو معنى هذا)[1] .

قال رسول الله ﷺ في دعاء الاستخارة : « اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدرُ ولا أقدر ، وتعلمُ ولا أعلم ، وأنت علاّمُ الغُيوب ، فإن كنت تعلم هذا الأمر - ... - خير لي في عاجل أمري وآجله - ... - فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ، اللهم إن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - ... - فاصرفني عنه واقدر لي الخير كله حيث كان ثم رضِّنِي به »[2] .

فهذه حاجته التي سألها متوكلاً عليه سبحانه ، و لم يبق عليه إلاّ الرضى بما يقضيه له ، فقال : « واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به » .

فالتوكل والتفويض قبل وقوع المقدور ، والرضى بعده وهو الثمرة .

قال بشر الحافي[3] : (يقول أحدهم : توكلت على الله ، يكذب على الله .

---

(١) مدارج السالكين ١٢٢/٢ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قول الله : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ ﴾ ، وأبو داود في أول الوتر .

(٣) هو : بشر بن الحارث بن علي بن عبدالرحمن المروزي ، أبو نصر المعروف بالحافي ، من كبار الصالحين . له في الزهد والورع أخبار ، وهو من ثقات رجال الحديث من أهل مرو ، وسكن بغداد ، وتوفي بها سنة (٢٧٧ هـ) . انظر ترجمته في : وفيات الأعيان ٢٧٤/١ - ٢٧٧ ، وتاريخ بغداد ٦٧/٧ - ٨٠ ، وحلية الأولياء ٣٣٦/٨ .

لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به)[1] .

وقال يحيى بن معاذ - وقد سئل : متى يكون الرجل متوكلاً ؟ - فقال : (إذا رضي بالله وكيلاً)[2] .

وسئل الحسن[3] عن التوكل فقال : (الرضا عن الله عزوجل)[4] .

قال بعض الحكماء : (التوكل ثلاث درجات : أولها : ترك الشكاية . والثانية : الرضى . والثالثة : المحبة . فترك الشكاية : درجة الصبر ، والرضى سكون القلب بما قسم الله - عزوجل - له ، وهي أرفع من الأولى ، والمحبة : أن يكون حبه لما يصنع الله - عزوجل - به ، فالأولى للزاهدين ، والثانية للصادقين ، والثالثة للمرسلين)[5] .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى بعد ذكر هذه الدرجات الثمان : (فباستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقام التوكل وتثبت قدمه فيه)[6] .

* * *

---

(١) مدارج السالكين ٢/١٢٣ .

(٢) مدارج السالكين ٢/١٢٣ .

(٣) سبقت ترجمته في ص ٢٢ .

(٤) التوكل على الله لابن أبي الدنيا ص ٦٨ .

(٥) مدارج السالكين ٢/١٢٣ .

(٦) مدارج السالكين ٢/١٢٣ .

الفَرْقُ بَيْنَ التَّوَكُّلِ وَالتَّوَاكُل

التوكـل والتواكـل صفتـان مـن الصفـات الخلقيـة ، أولهمـا محمـودة ، والثانيـة مذمومة . ومعنى كل واحدة منهما محدد متميز - كما سبق في تعريـف التوكـل في اللغة - . فالتوكل : هو توكل على الله مع الأخذ بالأسباب . والتواكل : هو تـرك الأسباب وعدم بذلها . وقد اشتبه أمرهما عند بعض الجاهلين واختلط عنـد المعـاندين . فالتوكل يقره الإسلام ويرضى عنه وتدور حوله تعاليم الدين وتصرفات المؤمنـين بـه على بصيرة .

والتواكل لايقره الإسلام ولايرضاه ، ويهدم تعاليم الدين ، ويرفضه المؤمنون بالله رباً ومعبوداً فقد أمر الله بالأخذ بالأسباب وحذر من التقصير في الأعمال ، وقال : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُوْلُهُ وَالْمُؤْمِنُوْنَ ﴾[1] .

واعتبر التواكل رمز العجز والكسـل والخمـول والإهمـال والفوضـى وتكفـف الناس والعيش تحت رحمتهم وفضلهم وصدقاتهم .

ومع هذا فقد ألصقها طائفة من أهل التصوف بتعاليم الدين مع وضوح موقفـه منها . ومنشأ هذا الزعم عندهم ربما كان من أعمال بعض الجـاهلين الذيـن لم يفهمـوا

---

(١) سورة التوبة : ١٠٥ .

تعاليم الإسلام و لم يدرسوها على العلماء أهل البصيرة والإدراك بما دعا إليه الإسلام ، وما حذر منه .

فالتوكل سلوك الأنبياء والمرسلين عليهم السلام بعد أن علموا أن الله قد جعل لكل شيء سبباً يفعله القاصدون للخير المبتغون الفضل من ربهم ، لقد أعملوا عقولهم في نصوص الكتاب والسنة وفي الكون كله علوه وسفله ، و لم يجعلوا على قلوبهم أكنة عن فهمها و لم تكن غلفاً عن تدبرها ، بل تمعنوا فيها وعكفوا على دراستها ودأبوا على تفهمها وأحاطوا علماً بمثل قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾[1] .

فعلموا أن الرزق من الأرض والحصول على خيراتها لايأتي إلاّ بالعمل وإجهاد النفس والقيام بما يتطلبه ويحتاجه الخارج منها من عناية ورعاية وتوكل على الله .

وصدق بعض العامة الذي كان يقول إذا حرث أرضه وألقى فيها الحب ليزرعها : (حب يابس في أرض يابسة بين يديك يا علاّم الغيوب) .

قال عمر رضي الله عنه عندما لقي ناساً من أهل اليمن ، فقال « : من أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكلين . قال : بل أنتم المتكلون . إنما المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله عزوجل »[2] .

---

(١) سورة الملك : ١٥ .

(٢) التوكل على الله لابن أبي الدنيا ص ٦١ . دار الأرقم .

فهذا رد على الذين يتركون الأسباب تقاعساً بدعوى التوكل على الله ولو صدقوا لأحسنوا العمل.

ولا تكن أيضاً مضيعاً للسبب فبذله بالشرع ربما وجب[1]

قال المناوي رحمه الله : (وإنما أرشد بطلب الرزق منها - أي من الأرض - لأنه أقرب الأشياء إلى التوكل وأبعدها من الحول والقوة ، فإن الزارع إذا كرب الأرض ونقاها وقام عليها ودفن فيها الحب ، تبرأ من حوله وقوته ، ونفذت حيلته فلايرى لنفسه حيلة في إنباته وخروجه ، بل ينظر إلى القضاء والقدر ، ويرجو ربه دون غيره)[2] .

فكيف يعتقد المتكلون أن اتخاذ الأسباب المشروعة لا فائدة منها . ويقولون : إن كان قد قدر لي شيء حصل وإن لم يقدر لم يحصل سواء سعيت أم لم أسع . وهذا مفهوم خاطيء ؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل السبب لحصول المطلوب ، ويقضي الله بحصوله بإذنه إذا فعل العبد السبب وقام به .

لقد حث الإسلام على بذل الأسباب الموصلة إلى الغايات التي عليها تتوقف الحياة الصحيحة السوية ، كما ورد في الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله - عزوجل - حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً »[3] .

---

(١) مجموعة القصائد الزهديات للسلمان ٢/٢٢٨ .

(٢) فيض القدير ١/٥٤٢ .

(٣) سبق تخريجه في ص ٥٨ من هذا البحث .

فهو يهدي إلى الوسيلة التي يسلكها الطير ليحصل على قوته وقوت أفراخه ، فالطير تغدو حياعاً : تسرح ساعية ناصبة علولة للحصول على مايحفظ حياتها وأفراخها ويسد جوعهما .

فالإنسان مكلف بالسعي والعمل ليوفر مايعيش به ويقوت به مايعول .

يقول الإمام البيهقي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث : (ليس في هذا الحديث دلالة على القعود على الكسب بل فيه مايدل على طلب الرزق ؛ لأن الطير إذا غدت فإنما تغدو لطلب الرزق ، وإنما أراد - والله أعلم - لو توكلوا على الله تعالى في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم ، ورأوا أن الخير بيده ، ومن عنده لم ينصرفوا إلاّ سالمين غانمين كالطير تغدو خماصاً وتعود بطاناً ، لكنهم يعتمدون على قوتهم وجلدهم ، ويغشون ويكذبون ، ولاينصحون ، وهذا خلاف التوكل)[1] .

لقد أمر الله المسلمين عقب انتهاء الصلاة بالسعي والعمل وطلب الرزق في قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[2] .

وألهم المخلوقة الضعيفة وأمرها بالسعي في طلب القوت واتخاذ البيوت ، وكان عملها سبباً في حصول شراب جعل الله فيه شفاء للناس ، ﴿ **وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ**

---

(١) الجامع لشعب الإيمان للبيهقي ٣/٣٨٠ .

(٢) سورة الجمعة .

فَاسْلُكِيْ سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُوْنِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيْهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتفكَّرُوْن ﴾[1] .

فالعمل بما أمر الله وبذل الأسباب أمر لازم لصحة التوكل على الله ، والأخذ بالأسباب التي ربط الله بها المسببات من الأحكام الشرعية التي لاشك فيها . ولعل ذلك بعض مايفهم من قوله تعالى : **﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوْءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَيَجِدْ لَهُ مِنْ دُوْنِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيْراً ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِن الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُوْنَ الجَنَّةَ وَلاَيُظْلَمُوْنَ نَقِيْراً ﴾**[2] .

إن إهمال الأخذ بالأسباب وإغفال العمل بمقتضى الإيمان لايسمى توكلاً ، فلايسمى إيماناً ؛ لأنه ليس بالتحلي ولا بالتمني ولكنه الثقة بالله المصدَّقة بالعمل .

وكيف يمكن الحصول على المطلوب بغير الأسباب الموصلة إليها ، وكيف يكون إيمان بغير أعمال تشهد عليه وتحققه .

إن التوكل ليس بعاطفة سلبية بل هو قوة إيجابية وطاقة روحية تدفع المؤمن إلى العمل والانتاج والأخذ بوسائل القوة ، **﴿ وَأَعِدُّوْا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُوْنَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾**[3] .

---

(١) سورة النحل : ٦٨ - ٦٩ .

(٢) سورة النساء : ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٣) سورة الأنفال : ٦٠ .

أمَّا في عرف المتواكلين العاجزين عن العمل والمتقاعسين عن طلب الرزق فإنـه وإن كان ثقة با لله كما يزعمون وترك للدنيا وملذاتها وشهواتها فـإن ذلـك يـورث الذلة والمسكنة ، والرضا بـالفضلات مـن الطعـام ومـاتكرمت بـه الأيـدي الرحيمـة والنفوس الكريمة من معروف وإحسان .

وقد حكى الغزالي رحمه ا لله عن بعض العباد المتواكلين من المتصوفة:(أنه عكف في مسجد و لم يكن له رزق معلوم ؛ فقال له الإمام : لو اكتسبت لكـان أفضـل لـك ، فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثاً . فقال في الرابعة : يهودي في جوار المسجد قد ضمن لي في كل يوم رغيفين)[1] .

قلت : فانظر إلى هذا التوكل من هذا كيف صار اتكالاً على يهودي .

وقال الغزالي أيضـاً : (وروي عـن حذيفـة المرعشـي[2] أيضـاً ، وكـان يخدم إبراهيم بن أدهم[3] ، فقيل له : ما أعجب ما رأيت من إبراهيم بن أدهم ؟ . فقـال : بقينا في طريق مكة أياماً لم نجد طعاماً ، ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب ،

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٢٤٩ .

(٢) هو : حذيفة بن قتادة المرعشي ، أحد الزهاد ، ممن خدم إبراهيم بن أدهم ، وممن يأخذ المتصوفة كلامـه في الزهد ، وقد صحب الثوري رحمه ا لله ، توفي سنة سبع ومائتين للهجرة . انظر ترجمتـه في : صفـة الصفـوة ٤/٢٦٨ - ٢٧٠ .

(٣) هو : إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي ، أبو إسحاق ، زاهد مشهور ، كان مجالسـاً لسـفيان الثوري في مواعظه ، وكان أبوه صاحب غنى وخدم كثير ، توفي إبراهيم الزاهد في سنة ١٦١ هـ علـى الأرجـح . انظر ترجمته في : البداية والنهاية ١٠/١٣٥ ، وفي حلية الأولياء ٧/٣٦٧ .

فنظر إليَّ إبراهيم وقال : ياحذيفة أرى بك الجوع ، فقلت : هو مارأى الشيخ فقال : عليّ بداوة وقرطاس فجئت به إليه فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، أنت المقصود إليه بكل حال ، والمشار إليه بكل معنى ، وكتب شعراً :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر	أنا جائع أنا ضائع أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين لنصفها	فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خفتها	فاجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إليَّ الرقعة فقال : اخرج ولاتعلق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك . فخرجت فأول من لقيني كان رجلاً على بغلة فناولته الرقعة فأخذها ، فلما وقف عليها بكى ، وقال : ما فعل صاحب هذه الرقعة ؟ . فقلت : هو في المسجد الفلاني ، فدفع إليَّ صرة فيها ستمائة دينار ، ثم لقيت رجلاً آخر فسألته عن راكب البغلة فقال : هذا نصراني ، فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال : لاتمسها فإنه يجيء الساعة ، فلما كان بعد ساعة دخل النصراني وأكب على رأس إبراهيم يقبله وأسلم)[1] .

قلتُ : بدأ التوكل توكلاً على الله عزوجل ، وانتهى توكلاً على راكب البغلة ، ومن ثم التماس الحاجة من نصراني .

إنه التوكل في عرف العاجزين عن العمل والمتقاعسين معنوياً عن طلب الرزق ، أمّا التوكل في عرف الإسلام فعكس هذا تماماً ... إذ معناه الاعتماد على الله والسعي

(١) إحياء علوم الدين ٢٤٩/٤ - ٢٥٠ .

وراء الرزق بالطرق الشرعية النزيهة ومواجهة الحياة بقوة وعزم وتصميم ؛ ولذا فإن من خطأ الرأي ومجانبة الصواب أن يفسر التوكل في نظر الإسلام على أنه الانزواء في مكان من أمكنة العبادة والبعد عن طلب المعيشة ... إذ لو كان هذا هو معنى التوكل لما قال النبي ﷺ : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً » .

يعني تذهب في الصباح جياعاً تبحث عن رزقها وتعود في آخر النهار شباعاً . ولو بقيت في أوكارها دون ذهاب لطلب العيش لماتت .

لقد رسم لنا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه منهج التوكل على الله فيما رواه عنه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال له : « يا غلام إنّي أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف »[1] .

وهذا هو التوكل في عرف الطائفة المنصورة التي على مثل ما عليه الرسول ﷺ وأصحابه وخلفاؤه الراشدون ، فأفلح من اقتدى ، وضل من حاد ، وتوكل على نفسه وهواه وتواكل ، وظن أن ذلك هو التوكل .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٩٣/١ ، ٣٠٣ ، والترمذي في صفة القيامة ، باب ٥٩ وقال : (هذا حديث حسن صحيح) .

قال الشاعر :

توكل على الرحمن في كل حاجـة ... ولاتؤثرن العجز يوماً على الطلب

ألم تـر أن الله قـــــال لمريم ... إليك فهزي الجذع يساقط الرطب

ولو شـاء أن تجنيــه من غير هزها ... جنتـه ولكن كل شيء لـه سبب[1]

* * *

(1) بهجة المجالس ١٤٢/١ .

أَقْسَامُ التَّوَكُّل وَأَنْوَاعُهُ

التوكل قسمان :

١ - توكل على الله . ٢ - وتوكل على غير الله .

فالتوكل على الله : الاعتماد على الله والثقة به ، والإيمان بأنه مقدر الأشياء ومدبر الأمور كلها ، مع النظر في الأسباب العادية من العبد وقيامه بها ، كما سبق .

وهذا يجمع أصلين هما : علم القلب وعمله .

فعلمه : الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى مقدر الأشياء ومدبر الأمور كلها واليقين بكفايته سبحانه وكمال قيوميته ، وأنه لاشيء مثله ولا رب سواه ، ولا إله غيره ، وأنه النافع الضار ، وأنه الرازق دون غيره ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن .

وأمّا عمله : فسكونه لخالقه والاعتماد عليه والثقة به وطمأنينته ورضاه بحكمه وقضائه وقدره ، وتسليمه الأمر إليه سبحانه ، وجعل رضا الله فوق رضى النفس .

ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله : (التوكل : عمل القلب)[1] .

لكن لابد فيه من العلم ؛ لأنه شرط فيه أو جزء من ماهيته .

قال الشاعر :

إذا ابتليت فثق بالله وارض بـه ... إن الذي يكشف البلوى هو الله

---

(١) طريق الهجرتين ص ٢٥٧ . دار الكتب العلمية - بيروت .

إذا قضى ا لله فاستسلم لقـدرتـه	ما لامرئٍ حيلــة فيما قضى ا لله
اليأس يقطـع أحيـــاناً بصاحبه	لاتيأسنَّ فنعــــــــم القادر ا لله

(وبهذين الأصلين يتحقق التوكل وهما جماعه .

والمقصود أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بـأن ا لله وليه وناصره ... وإذا كان على الباطل علمـاً وعمـلاً ، أو أحدهمـا لم يكـن واثقـاً بربه ... و لم يكن ا لله وليه ولا ناصره ولا وكيله ... فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ، ولجميع أعمال الإسلام ، وأن منزلته منها منزلة الجسـد من الرأس ...)[1] .

والتوكل على ا لله نوعان :

أحدهما : توكل على ا لله سبحانه وتعالى في تحصيل الحظ من الـرزق والعافيـة ومتع الحياة الدنيا والمقصود منها والمطلوب لها ، وجلب الحوائج ، ودفع المكروهات والمصائب الدنيوية .

قال ابن القيم رحمه ا لله تعالى : (وهذا النـوع غايتـه المطلوبـة - وإن لم يكـن عبادة ؛ لأنها محض حظ العبد - فالتوكل على ا لله في حصولـه عبـادة ، فهـو منشـأ لمصلحة دينه ودنياه)[2] .

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص ٢٥٧ - ٢٥٨ . دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ٢٦٢ . دار الكتب العلمية - بيروت .

وهذا النوع ثلاثة أقسام أيضاً :

الأول : توكل على الله مع الطلب ومعاطاة الأسباب ، وذلك على نية شغل النفس بالسبب حتى لاتفرغ للهوى والشهوات المفضية لله تعالى ، كما قال الشاعر :

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة[1]

وعلى نية نفع النفس ونفع الناس .

فيحصل بذلك إشغال النفس بما يرضي الله أو بالمباح وينفع نفسه وإخوانه المسلمين ، أو والديه أو أبناءه أو قرابته أو غيرهم .

ويستر العبد نفسه باتخاذ الأسباب ويُشعر فعله ذلك بفقره وحاجته إلى الله دائماً ، وأنه ماخلق إلاّ للعمل ابتغاء رزق الله وعفوه ومغفرته : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُوْنِ ۝ مَا أُرِيْدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيْدُ أَنْ يُطْعِمُوْنِ ۝ إِنَّ الله هُوَ الرَّزَّاقُ ذُوْ القُوَّةِ المَتِيْن** ﴾[2] .

﴿ **وَقُلْ اعْمَلُوْا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُوْلُهُ وَالْمُؤْمِنُوْنَ** ﴾[3] .

إن معاطاة الأسباب مع التوكل على الله عبادة لله يترتب عليها دخول الجنة بإذن الله وبرحمته ، فليس المهم فعل السبب فقط ولا التوكل فقط ، كما نفهم من حديث النبي ﷺ : « لن يدخل أحداً عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ .

---

(١) البيت لأبي العتاهية .

(٢) سورة الذاريات : ٥٦ – ٥٨ .

(٣) سورة التوبة : ١٠٥ .

قال : « ولا أنا إلاّ أن يتغمدني الله بفضل ورحمة ، فسددوا وقاربوا »[1] .

القسم الثاني : التوكل على الله مع إسقاط الطلب وترك السبب ، وهذا لايكون صحيحاً إلاّ إذا كان المقصود إسقاط طلب الخلق دون الخالق سبحانه . فلايطلب من أحد شيئاً ؛ لأن الطلب من الخلق في الأصل محظور ، وإباحته للضرورة أو لأنه لايحب الطلب والسؤال لما فيه من الذل لغير الله ، وإراقة ماء الوجه لغير الخالق سبحانه ؛ ولئلا يلتهي بسؤال المخلوقين عن سؤال الخالق ، أو يتعرض للمقت من الله إذا سأل وعنده مايكفيه .

وسؤال الناس مافي أيديهم واستخراجه منهم منازعة لهم ومبغوض عندهم ؛ لأن أموالهم محبوباتهم ، ومن سأل عن محبوب مخلوقاً تعرض لمقته وبغضه كما قيل :

الله يغضب إن تركت سؤالـه وبُنيَّ آدم حين يسأل يغضب

والرسول ﷺ قال : « لاتزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم »[2] .

وقال ﷺ : « إن المسألة لاتحل إلاّ لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة ، فحلت

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المرضى ، باب تمني المريض الموت ، وبنحوه أيضاً في الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل ، وأخرجه مسلم في صفات المنافقين ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ، وابن ماجه في الزهد ، باب التوقي على العمل ، والدارمي في الرقائق ، باب لاينجي أحدكم عمله ، وأحمد في المسند في مواضع منها ٢/٢٣٥ .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ، باب كراهة المسألة للناس ، وأحمد في المسند ٢/١٥ ، ٨٨ ، وبلفظ آخر أخرجه البخاري في الزكاة ، باب من سأل الناس تكثراً ، والنسائي في الزكاة باب المسألة .

له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله ، فحلت له المسألة حتى يصيب قِوَاماً من عيش - أو قال : سداداً من عيش - ، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحِجَى من قومه : لقد أصابت فلاناً فاقة . فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال : سداداً من عيش - فماسواهن من المسألة يا قبيصة فسحت يأكلها صاحبها سحتاً »[1] .

وقال ﷺ : « من سأل الناس تكثراً فإنما يسأل جمراً ، فليستقل أو ليستكثر »[2] .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : (فالتوكل مع إسقاط هذا الطلب والسؤال هو محض العبودية)[3] .

والمنهي عنه في الأحاديث السابقة طلب الناس شيئاً ، أمَّا طلب الله سبحانه وتعالى والعمل على حصول العبد على مايكفيه ويمنعه من سؤال الناس ، فهذا مطلوب في نصوص كثيرة مر بعضها وسيأتي جملة منها إن شاء الله .

الثالث : التوكل على الله مع إسقاط الطلب والامتناع عن فعل السبب عموماً . وهذا هو التوكل المذموم الذي نهى عنه الشرع ، كما في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : « كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ، باب من تحل له الصدقة ، وأبو داود في الزكاة ، باب ماتجوز فيه المسألة ، والنسائي في الزكاة باب فضل من لايسأل الناس شيئاً ، والإمام أحمد في المسند ٤٧٧/٣ .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ، باب كراهة المسألة للناس ، وابن ماجه في الزكاة باب كراهية المسألة ، والإمام أحمد في المسند ٢٣١/٢ .

(٣) مدارج السالكين ١٣٣/٢ .

فقال : « ما منكم أحد إلاّ قد كتب مقعده من النار ، ومقعده من الجنة » فقالوا : يارسول الله : أفلا نتكل على الكتاب وندع العمل ؟ قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأمّا من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة » ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۞ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾[1] .

فنهاهم عن الاتكال على القدر بترك العمل ؛ بل أمرهم بالعمل وفعل السبب مع التوكل على الله تعالى ، كما أمر الله بفعلها في مثل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ ﴾[2] ، كما سيأتي في مبحث التوكل وفعل الأسباب .

ثانيهما : توكل على الله في تحصيل مرضاته سبحانه وتعالى من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه والدعاء وغير ذلك من العبادات الفعلية والقولية .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (وأمّا النوع الثاني : فغايته عبادة ، وهو في نفسه عبادة ، فلا علة فيه بوجه ، فإنه استعانة بالله على مايرضيه ، فصاحبه

---

(١) سورة الليل : ٥ - ١٠ .

والحديث أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ ، وبنحوه مسلم في القدر ، الباب الأول منه حديث (٦) ، والترمذي في القدر ، باب ماجاء في حجاج آدم وموسى ، وفي تفسير سورة ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ ، وابن ماجه في المقدمة ، باب في القدر .

(٢) سورة الجمعة : ١٠ .

متحقق بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾)[1] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (والتوكل والاستعانة للعبد هي الوسيلة والطريق الذي ينال به مقصوده ومطلوبه من العبادة ، فإن العبد يحب ويريد مايراه ملائماً لـه ، والله تعالى يحب ويرضى ماهو الغاية المقصودة في رضاه ، ويحب الوسيلة تبعاً لذلك ، وإلاّ فكل مأمور به ، فمنفعته عائدة على العبد ، وكل ذلك يحبه الله ويرضاه .

وعلى هذا فالذي ظن أن التوكل من المقامات العامة ظن أن التوكل لايطلب به إلاّ حظوظ الدنيا وهو غلط ، بل التوكل في الأمور الدينية أعظم)[2] .

فغاية هذا النوع المطلوبة الوصول إلى مايلائمه وينفعه في الدنيا والآخرة ، وليس كما ظن بعض الناس أن الغاية الوصول إلى محض حظوظ النفس فقط ، فما ينفع العبد وماهو من حظوظه مأموراً به أو مباحاً : عبادة لمصلحة دينه ودنياه .

ولاشك أن بين النوعين من الفضل مالايحصيه إلاّ الله تعالى ؛ لأن الأول في تحصيل الحظوظ وجلب الحوائج ودفع المكروهات والمصائب الدنيوية ؛ فإنها وإن كانت تعين على طاعة الله ورضاه ، وهي مأمور بها أو مباحة أقل شأناً من العبادة المحضة لله تعالى . فالتوكل في هذه أفضل وأولى من التوكل في تلك ، والمطلوب التوكل فيهما .

---

(١) طريق الهجرتين ص ٢٦٢ . دار الكتب العلمية - بيروت .

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/٢٠ .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (وبين النوعين من الفضل مالايحصيه إلاّ الله ، فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية ، ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضاً لكن لايكون له عاقبة المتوكل فيما يحبه ويرضاه ، فأعظم عليه التوكل في الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول ﷺ وجهاد أهل الباطل أهل الباطل ، فهذا هو توكل الرسل وخاصةُ أتباعهم)[1] .

ثم لابد من الإخلاص فيهما حتى تكون كل الأعمال المتوكل فيها صالحة ويرضاها الله تعالى ، ويبتعد عما يكرهه الله أو ينهى عنه ؛ لأنه لايكفي الإخلاص بل لابد معه من المتابعة لماجاء به النبي ﷺ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : (وقد يقصد الإنسان سؤال الله وحده ، والتوكل عليه لكن في أمور لايحبها الله ، بل يكرهها وينهى عنها ، فهذا وإن كان مخلصاً له في سؤاله والتوكل عليه لكن ليس هو مخلصاً في عبادته وطاعته ، وهذا حال كثير من أهل التوجهات الفاسدة .

وطائفة أخرى قد يقصدون طاعة الله ورسوله لكن لايحققون التوكل عليه والاستعانة به ، فهؤلاء يثابون على حسن نيتهم ، وعلى طاعتهم ، لكنهم مخذولون فيما يقصدونه إذا لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه)[2] .

---

(١) الفوائد لابن القيم ص ١١٢ . دار النفائس - بيروت .

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٧٦/١٠ .

٢ – القسم الثاني من أقسام التوكل : التوكل على غير الله :

وهو ينافي التوكل على الله سبحانه وتعالى ويضاد التوحيد ، بل هو شرك ؛ لأنه لما كان لا كافي إلاّ الله ، ولا قادر على كل شيء سواه ، ولا عالم بكل شيء غيره كان التوكل على غير الله تعالى باطلاً وشركاً ، وكان المتوكل على غير الله تعالى – سكوناً ووثوقاً واعتماداً – مشركاً ، ومالجأ أحد إلى أحدٍ غير الله أو توكل عليه إلاّ خاب ظنه ؛ لأن ذلك شرك ، والله تعالى يقول : ﴿ **وَمِنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِيْ بِهِ الرِّيْحُ فِي مَكَانٍ سَحِيْقٍ** ﴾[١] .

فاعتماد العبد وتوكله على غير الله يوجب الضرر من جهته ، فإنه يخذل من تلك الجهة .

وهذا معلوم بالاعتبار والاستقراء ، فما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلاّ خاب وخسر ، ولا استنصر بغير الله إلاّ خذل ، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله سبحانه : ﴿ **وَاتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُوْنُوْا لَهُمْ عِزًّا كَلاَّ سَيَكْفُرُوْنَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُوْنُوْنَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا** ﴾[٢] .

ولما كان لا كافي إلاّ الله ، ولا قادر على كل شيء سواه ، ولا عالم بكل شيء غيره كان التوكل على غير الله باطلاً .

وذلك أن العبد ، بل كل حي سوى الله وكل مخلوق هو فقير محتاج إلى جلب

---

(١) سورة الحج ٣٢ .

(٢) سورة مريم : ٨١ .

ماينفعه ، ودفع مايضره ، والمنفعة للحي المخلوق هي من جنس النعيم واللذة ؛ والمضرة هي من جنس الألم والعذاب .

وهذا القسم قسمان أيضاً :

أحدهما : التوكل على المخلوقين في الأمور التي لايقدر عليها إلاّ هو سبحانه وتعالى ، مثل توكل الذين يتوكلون على الأموات والغائبين ونحوهم من الطواغيت في رجاء مطلوبهم من النصر والحفظ والرزق والشفاعة ... فهذا شرك أكبر ينافي التوحيد .

وقد ورد سؤال للجنة الدائمة للبحوث العلمية والافتاء المكونة من سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدا لله بن باز ، والشيخ عبدالرزاق عفيفي ، والشيخ عبدا لله ابن غديان ، والشيخ عبدا لله بن قعود - حفظهم ا لله - بشأن من يذهب إلى القبور للتبرك بها والدعاء عندها ، ومايفعله بعضهم من الاستعانة والتوكل ببعض المخلوقين فيما لايقدر عليه إلاّ ا لله ، ودعوة الموتى وسؤالهم أن يفرجوا عنهم الكرب .

فأجابت اللجنة الكريمة بما يلي :

(**أولاً :** دعاء غير ا لله من الأموات والغائبين والاستعانة بهم في كشف غمة أو تفريج كربة أو شفاء مريض ، أو نحو ذلك شرك ؛ لأن هذا الدعاء وهذه الاستغاثة عبادة وقربة فالتوجه بها إلى ا لله وحده توحيد وصرفها لغيره شرك أكبر يخرج من ملة الإسلام والعياذ با لله ، قال ا لله تعالى : ﴿ **وَلاَتَدْعُ مِنْ دُوْنِ ا للهِ مَالاَيَنْفَعُكَ وَلاَيَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِيْنَ ۞ وَإِنْ يَمْسَسْكَ ا للهُ بِضُرٍّ**

فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيْبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الغَفُوْرُ الرَّحِيْمِ ﴾[1] .

وقال : ﴿ وَأَنَّ المَسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدْعُوْا مَعَ اللهِ أَحَداً ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَيُفْلِحُ الكَافِرُوْنَ ﴾[3] .

إلى غير ذلك من الآيات التي دلت على اختصاص الله بالاستغاثة والدعاء .

وثبت أن النبي ﷺ قال : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ... »[4] الحديث .

ثانياً : على ذلك لايجوز أن ينادي المسلم الشيخ عبدالقادر ولا غيره ، سواء كان نبياً أم صالحاً ليحضر أو ليغيث ملهوفاً أو يفرج كربة أو لينال الحاضرين ببركته أو لغير ذلك من الأغراض بل نداؤه شرك أكبر وهو برئ ممن دعاه ولايسمعه ، ولايستجيب له كما قال تعالى بعد ذكر آيات ربوبيته : ﴿ ذَلِكُم اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ وَالَّذِيْنَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ مَايَمْلِكُوْنَ مِنْ قِطْمِيْرٍ ۞ إن تَدعُوهُم لاَيَسمَعُوا دُعَاءَكُم وَلَوْ سَمِعُوْا مَا اسْتَجَابُوْا لَكُمْ وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُوْنَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَيُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيْرٍ ﴾[5] .

---

(١) سورة يونس : ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) سورة الجن : ١٨ .

(٣) سورة المؤمنون : ١١٧ .

(٤) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ، باب ٥٩ ، وقال : (هذا حديث حسن صحيح) ، والإمام أحمد في المسند ١/٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ .

(٥) سورة فاطر : ١٣ ، ١٤ .

ثالثاً : يعلم مما تقدم أن من فعل ذلك ممن ينتسبون للإسلام فإنه يكون بذلك مشركاً شركاً أكبر بنص كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

رابعاً : وبناءً عليه لاتصح الصلاة وراءه ؛ لأنه مشرك شركاً أكبر يخرج عن ملة الإسلام)[1] .

قال الله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾[2] أي : شكركم وشكر مارزقكم الله ، ونصيبكم تجعلونه تكذيباً وهو الاستسقاء بالأنواء ، كما ثبت في حديث ابن عباس رضي الله عنهما الصحيح قال : مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال : « أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر » ، قالوا : هذه رحمة الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا ، قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾[2] حتى بلغ : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ »[3] .

وفي صحيح مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « ما أنزل من السماء من بركة إلاّ أصبح فريق من الناس بها كافرين ينزل الله الغيث فيقول : الكوكب كذا وكذا »[4] . وفي لفظ له : « بكوكب كذا وكذا » .

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء – جمع الشيخ أحمد الدويش – ١/٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ . نشر : الرئاسة العامة للإفتاء ، ط / الأولى ١٤١١ هـ .

(٢) سورة الواقعة ٧٥ – ٨٢ .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ، باب بيان كفر من قال : مطرنا بالنوء .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان ، باب بيان كفر من قال : مطرنا بالنوء ، والإمام أحمد في المسند ٢/٤٢١ .

وفي الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح على إثر سماء كانت من الليل قال : « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ! . قال : « قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فمن قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، ومن قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب »[1] .

فالتوكل على المخلوقين في هذه الأمور التي لايقدر عليها إلاّ الله سبحانه نوعان :

أحدهما : أن يعتقد أن المنزل للمطر هو النجم أو الكوكب ، وهذا كفر أكبر ، شرك مخرج عن الملة .

ثانيهما : أن ينسب إنزال المطر إلى النجم مع اعتقاد أن الله تعالى هو الفاعل لذلك المنزل له ، إلاّ أنه سبحانه أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور ذلك النجم ، فهذا شرك خفي ، وهو من أمر الجاهلية الذي لم يزل في هذه الأمة إلى اليوم . ويلحق بالنوع الآتي :

ثانيهما : التوكل في الأسباب الظاهرة العادية على الأحياء الحاضرين كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما جعله الله بيده من الرزق ، أو دفع الأذى ، ونحو ذلك .

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم ، ومسلم في الإيمان ، باب بيان كفر من قال : مطرنا بالنوء .

فهذا نوع شرك خفي ، وهو كثير في هذه الأمة ، قد وقع فيه كثير من الناس ، وننسب ذلك إلى جهلهم بحقيقة التوكل على الله سبحانه وتعالى حيث أنهم قد عدوا ذلك النوع اتخاذاً للأسباب ، لكن نقول لهم : إن ذلك غلو في الأسباب ؛ لأنه لايملك النفع والضر إلاّ الله تعالى ، ثم إن الأسباب تقدر بقدرها في دفع المضار وجلب المنافع .

وقد قيل : (لاتتكلن على غير الله فيكلك الله إلى من اتكلت عليه)[1] .

وقال الشاعر :

فإذا طلبت فلا إلى متطلب   وإذا اتكلت فلا على مخلوق[2]

جاء رجل إلى الربيع بن عبدالرحمن فسأله أن يكلم الأمير في حاجة له فبكى الربيع ثم قال : (أي أخي اقصد إلى الله – عزوجل – في أمرك تجده سريعاً قريباً ، فإني ما ظاهرت أحداً في أمر أريده إلاّ الله فأجده كريماً قريباً لمن قصده وتوكل عليه)[3] .

وقيل : مكتوب في التوراة : (لاتوكلن على ابن آدم فإن ابن آدم ليس له قوام ولكن توكل على الله الحي الذي لايموت)[4] .

وأصل سؤال الخلق الحاجات الدنيوية التي لايجب عليهم فعلها ليس واجباً على

---

(١) التوكل على الله لابن أبي الدنيا ، تحقيق الدوسري ص ٨٢ ، دار الأرقم .

(٢) التوكل على الله لابن أبي الدنيا ، تحقيق الدوسري ص ٩٥ ، دار الأرقم .

(٣) التوكل على الله لابن أبي الدنيا ، تحقيق الدوسري ص ٩٨ ، دار الأرقم .

(٤) التوكل على الله لابن أبي الدنيا ، تحقيق الدوسري ص ٩٩ ، دار الأرقم .

السائل ولا مستحباً ، بل المأمور به سوال ا لله تعـالى والرغبـة إليـه والتوكـل عليـه ، وسوال الخلـق في الأصـل محـرم ، لكنـه أبيـح للضـرورة ، وتركـه توكـلاً علـى ا لله أفضل .

قال ا لله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾[1] . قال ابن كثير رحمه ا لله : (قال الثوري : اجعل نيتـك ورغبتـك إلى ا لله عزوجـل)[2] ، وقيـل : أي : ارغب إلى ا لله لا إلى غيره .

وقـال رسـول ا لله ﷺ لابـن عبـاس رضـي ا لله عنهمـا : « يـا غـلام ! إنـي معلمك كلمات : احفظ ا لله يحفظك ، احفظ ا لله تجده تجاهك ، تعرف إلى ا لله في الرخاء يعرفك في الشـدة ، إذا سـألت فاسـأل ا لله ، وإذا اسـتعنت فاسـتعن بـا لله ، حف القلم بما أنت لاق ... »[3] .

فقد أمر الرسول ﷺ في هذا الحديث ابن عباس رضي ا لله عنهمـا ألاّ يسـأل أحداً إلاّ ا لله ، ولايستعن إلاّ با لله ؛ لأنه لايملك أحد غيره سبحانه الضر والنفع .

أمّا سؤال المخلوق المخلوق أن يقضي حاجة نفسه أو يدعو له فلم يؤمر بـه إلاّ في العلم ، فإن ا لله أمر بسؤاله كما قال ا لله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوْا أَهْـلَ الذِّكْـرِ إِنْ كُنْتُـمْ لَاتَعْلَمُوْنَ ﴾[4] .

---

(١) سورة الانشراح : ٧ ، ٨ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٢٦/٤ .

(٣) سبق تخريجه قريباً ص ١٠٨ .

(٤) سورة الأنبياء ٧ .

وكذلك من له عند أحد حق من عين أو دين كالأمانات مثل الودائع وغيرها لصاحبها أن يسألها ممن هي عنده ، وكذلك مال الفيء وغيره من الأموال المشتركة التي يتولى قسمتها وليّ الأمر ، للعبد أن يطلب حقه منه ، كما يطلب حقه من الوقف والميراث والوصية ؛ لأن المستولي على هذه الأمور يجب عليه أداء الحق إلى مستحقه .

ومن هذا أيضاً سؤال النفقة لمن تجب عليه ، وسؤال المسافر الضيافة لمن تجب عليه كما استطعم موسى والخضر عليهما السلام أهل القرية : ﴿ **فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً** ﴾[1] .

وكذلك الغريم له أن يطلب دينه ممن هو عليه .

والبائع له أن يسأل الثمن وللمشتري أن يسأل المبيع .

وقد يكون السؤال منهياً عنه نهي تحريم أو تنزيه .

وسؤال المخلوق لايجب ولايستحب إلاّ في بعض المواضع ، ويكون المسئول مأموراً بالإعطاء قبل السؤال .

وسؤال المخلوق للمخلوق في غير ما سبق فيه ثلاث مفاسد :

الأولى : الافتقار إلى غير الله وهو من نوع الشرك .

الثانية : إيذاء المسئول وهو من ظلم الخلق .

الثالثة : الذلة لغير الله ، وهو ظلم النفس .

---

(١) سورة الكهف : ٧٧ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (فأين الإحسان إلى عباد الله من إيذائهم بالسؤال والشحاذة لهم ؟ وأين التوحيد للخالق بالرغبة إليه والرجاء له والتوكل عليه والحب له من الإشراك به بالرغبة إلى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه ، وأن يحب كما يحب الله ؟ ، وأين صلاح العبد في عبودية الله والذل له والافتقار إليه من فساده في عبودية المخلوق والذل له والافتقار إليه ؟)[1] .

ثم إن ترك سؤال المخلوقين الأحياء الجائز المشروع رغبة إلى الله أفضل من الرغبة إلى المخلوق وسؤاله .

وتوكيل الإنسان غيره في فعل مايقدر عليه نيابة عنه كالبيع والشراء والإجارة . فهذا جائز ولكن لايقول : توكلت عليه بل يقول : وكلته ، فإنه لو وكله فلابد أن يتوكل في ذلك على الله سبحانه وتعالى .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (... أن يوكل الإنسان في فعل يقدر عليه ، فيحصل للموكل بذلك بعض مطلوبه ، فأمّا مطالبه كلها فلايقدر عليها إلاّ الله ، وذلك الذي يوكله لايفعل شيئاً إلاّ بمشيئة الله عزوجل وقدرته ، فليس له أن يتوكل عليه وإن وكله ، بل يعتمد على الله في تيسير ماوكله فيه)[2] .

* * *

(١) مجموع الفتاوى ١/١٩٥ .

(٢) جامع الرسائل ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، رسالة في تحقيق التوكل ص ٨٩ ، نشر دار الكتب .

مِمَّا يُضَادّ التَّوَكُّلْ

مما يضاد التوكل :

(١) – التطير :

التطير والطيرة : مصدر تطير يتطير ، يقال : تطير طيرةً ، وتخير خيرة ، وأصله التطير بالسوانح والبوارح من الظباء والطير وغيرهما[١] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾[٢] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣] .

وهو : التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاء والبقاع والأشخاص أو الشهور أو غير ذلك .

فإذا أراد شخص أمراً من أمور الدين أو الدنيا فسمع أو رأى مايكره فإنه : إمَّا يرجع عما كان عازماً عليه تشاؤماً وتطيراً وتأثراً بما سمع أو رأى ، فيعلق قلبه بذلك المكروه فيؤثر ذلك على إيمانه ويخل بتوحيده وتوكله على الله .

وإمَّا أن يستمر فيما أراد لكن يبقى في قلبه أثر ذلك التشاؤم والتطير بالحزن والألم والهم والوساوس[٤] .

---

(١) انظر : لسان العرب ٥١٢/٤ .

(٢) سورة النمل : ٤٧ .

(٣) سورة يس : ١٨ .

(٤) انظر : الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد للدكتور صالح الفوزان ص ٨٥ ، ٨٦ .

فالطيرة سوء ظن با لله عزوجل وتوقع للبلاء ؛ لأنها قطع لآمالهم ورجائهم من ا لله وتعلق بغيره ، وتوكل على غيره .

فهي باب من الشرك المنافي للتوكل على ا لله تعالى لما فيها من الاعتماد والالتفات إلى غير ا لله تعالى ، وهي من فعل أهل الجاهلية الذين كانوا يوجبون ذلك ولايضيفون التدبير إلى ا لله تعالى ، فمن فعله من أهل الإسلام على الوجه الذي كانوا عليه استحق الوعيد دون الثناء .

ومن التطير الذي كان في الجاهلية : زجر الطائر وازعاجها عن أوكارها عند إرادة الخروج للحاجة حتى إذا مرت عن اليمين تفاءل بها ، وقضى على وجهه ، وإن مرت على الشمال تشاءم به وقعد ، ويقولون : السانح : ماولاك ميامنه ، والبارح : ماولاك مياسره ، والذي يجيء أمامك : فهو الناطح والنطيح ، والذي يجيء من خلفك هو القاعد والقعيد .

وهذا من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته الباطلة .

وهذا خلاف المأمور به ؛ لأن المتطير الذي يحجم عما كان قد اعتزمه بسبب مارآه أو سمعه ، معتقداً أنه بعمله هذا يمكنه أن يرد قضاء ا لله وقدره .

والواجب أن يتوكل على ا لله وحده وأن يثق با لله ويسلم إليه ويعلم أن ماشاء ا لله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لن يصيبه إلاّ ما كتبه ا لله له .

قال الشيخ سليمان بن عبدا لله بن محمد عبدالوهاب رحمه ا لله : (فمن كان معتنياً بالطيرة قابلاً بها كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدره ، وتفتحت له أبواب السماء فيما يسمعه ويراه ويعطاه ، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات

البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى مايفسد عليه دينه ، وينكد عليه عيشه ، فالواجب على العبد التوكل على الله ومتابعة رسول الله ﷺ وأن يمضي لشأنه لايرده شيء من الطيرة عن حاجته فيدخل في الشرك)[1] .

إن التطير من بعض الحوادث والأشياء قادح في التوكل على الله أيما قدح ، فمن قارف الطيرة لم يرح رائحة التوكل ؛ ذلك أن المتوكل على الله يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَاكَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾[2] .

وأمَّا المتطير فهو في خوف وفزع ، دائم الاضطراب والقلق من أمور مخلوقة لاتملك لنفسها نفعاً ولا ضراً .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (التطير هو التشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع ، فإذا استعملها الإنسان فرجع بها من سفره وامتنع بها عما عزم عليه فقد قرع باب الشرك ، بل ولجه وبرئ من التوكل على الله ، وفتح على نفسه باب الخوف والتعلق بغير الله والتطير مما يراه أو يسمعه ، وذلك قاطع له عن مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴾ و ﴿ اعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[3] و ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيْبُ ﴾[4] فيصير قلبه متعلقاً بغير الله عبادة وتوكلاً فيفسد عليه قلبه وإيمانه وحاله ،

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٤٢١ .

(٢) سورة التوبة ٥١ .

(٣) سورة هود : ١٢٣ .

(٤) سورة الشورى : ١٠ .

ويبقى هدفاً لسهام الطيرة ، وتساق إليه من كل أوب ، ويقيض له الشيطان من ذلك مايفسد عليه دينه ودنياه)[1] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر »[2] الحديث .

أراد الرسول ﷺ إبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها ، والنفي في هذا أبلغ من النهي ؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثره ، والنهي إنما يدل على المنع منه فقط .

فأوضح ﷺ لأمته الأمر وبين فساد الطيرة المنافية للتوكل على الله تعالى ، لتطمئن قلوب المؤمنين ويزداد إيماناً مع إيمانهم ، فتتوكل على الله وتسكن إليه سبحانه ، وتقطع عن قلوبهم علائق الشرك .

فمن استمسك بعروة التوحيد واعتصم بحبله وتوكل على الله وحده قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها .

ومن علق قلبه بالله وحده ووثق به خوفاً ورجاء فقد قطعه عن الالتفات إلى غير الله تعالى .

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢/٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٢) أخرجه البخاري في الطب ، باب الجذام ، وأخرج بعضه مسلم في السلام حديث ١٠٢ ، ١٠٣ ، وأبو داود في الطب ، باب في الطيرة ، وابن ماجه في الطب ، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة ، والإمام أحمد في المسند ١/٣٢٨ .

عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « الطيرة شرك الطيرة شرك » ثلاثاً « وما منا إلاّ ، ولكن الله يذهبه بالتوكل »[1] .

فالطيرة شرك لاعتقاد أصحابها أنها تجلب لهم نفعاً أو تدفع ضراً ، فإن عملوا بموجبها فكأنهم أشركوا في ذلك ويسمى شركاً خفياً ، ومن اعتقد أن شيئاً سوى الله ينفع ، أو يضر بالاستقلال فقد أشرك شركاً جلياً ، وانتفى توكله على الله تعالى .

ومن المؤسف أن مثل هذا منتشر في هذا الزمان في أوساط المسلمين ، فتجد بعضهم يتطير من الغراب ، أو البوم ، أو القطط السوداء ، أو الكلب الأسود ... ، أو غيرها ، بل ومن بعض الأرقام كالرقم ١٣ أو غيره ، فمن وقع في ذلك فهو على شفا هلكة وعليه أن يتدارك نفسه قبل فوات الأوان :

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلاّ فإني لا أخا لك ناجيــــــاً

وأمّا الهامة في الحديث السابق فهي نوع من الطير ، كان أهل الجاهلية يتشاءمون بها ، وهي من طير الليل ، وقيل هي البومة ، وقيل : إن العرب كانت تزعم أن روح القتيل الذي لايدرك بثأره تصير هامة فتطير ، فتقول : اسقوني فإذا أدرك بثأره طارت ، وقيل : كانوا يزعمون أن عظام الميت – أو دمه – تصير هامة فتطير ، ويسمونه الصدى ، وهذا من التطير المنافي للتوكل ، فأبطل ذلك الإسلام

---

(١) أخرجه أبو داود في الطب ، باب في الطيرة ، والترمذي في السير ، باب ماجاء في الطيرة ، وابن ماجه في الطب ، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة .

والحمد لله ، ونهى عنه [1] . وجاء بأن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تأكل من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها إلى أن يردها الله إلى أجسادها . كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[2] .

قال ابن مسعود رضي الله عنه في معنى هذه الآية : (أما إنا قد سألنا عن ذلك ، فقال : « أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أي شيء نشتهي ؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا . ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما أراد أنهم لن يتركوا من أن يسألوا ، قالوا : يارب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا »[3] .

وأمَّا قوله : « ولا صفر » فقيل : هي حبة في البطن تصيب الماشية ، والناس ، وهي أعدى من الجرب عند العرب .

وقيل : المراد شهر صفر ، فقد كان أهل الجاهلية يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه ، وأنهم كانوا يتشاءمون بصفر ويقولون إنه شهر مشئوم ، فأبطل النبي ﷺ ذلك .

---

(١) انظر : هامش سنن ابن ماجه بتحقيق وتعليق : محمد فؤاد عبدالباقي ١١٧١/٢ .

(٢) سورة آل عمران : ١٦٩ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب : بيان أن أرواح الشهداء في الجنة ... حديث ١٢١ ، وبنحوه أخرجه الترمذي في تفسير سورة آل عمران ، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الجهاد ، باب : فضل الشهادة في سبيل الله .

وكثير من الجهال يتشاءم من بعض الشهور مثل صفر ، وربما ينتهي عن السفر فيه أو نحو ذلك ، وهذا من جنس الطيرة المنافية للتوكل علـى ا لله تعـالى المنهـي عنهـا . ويلحق بذلك : التشاؤم بيوم من الأيام أو شهر مـن الشـهور في نكـاح فيـه أو غـير ذلك .

ومن الطيرة المنافية للتوكل على ا لله تعالى وفيها سوء الظن با لله تعالى ، وتوقع البلاء ، والاتكال على غير ا لله .

أمَّا ماروي عن ابن مسعود رضي ا لله عنـه مرفوعـاً : « الطـيرة شـرك ومامنـا إلاّ[1] . ولكن ا لله يذهبه بالتوكل »[2] . فصريح أن الطيرة محرمة وأنها مـن الشـرك لما فيها من تعلق القلب على غير ا لله تعالى .

فلو وقع شيء من هذا في قلب المسلم المؤمن لايلبث إلاّ ، وقد أذهب ا لله عنـه مايجد في نفسه لتوكله على ا لله سبحانه وتعالى . وهـذا معنـى قـول ابـن مسـعود : « ومامنا إلاّ . ولكن ا لله يذهبه بالتوكل » .

قال الشيخ سليمان بن عبدا لله بن محمـد بـن عبدالوهـاب رحمـه ا لله : (أي : مامنا إلاّ من يقع في قلبه ذلك ، ولكن لما توكلنا على ا لله وآمنا به ، واتبعنـا ماجـاء به الرسول ﷺ ، واعتقدنا صدقه ، أذهب ا لله ذلك عنا ، وأقر قلوبنا علـى السـنة

---

(١) قوله : (ما منا إلاّ) معناه : إلاّ من يعتريه التطير ، ويسبق إلى قلبه الكراهة فيه ، فحذف ذلـك اعتمـاداً على فهم السامع . وقال بعض العلماء : (حذف المستثنى لما يتضمنه مـن الحالـة المكروهـة ، وهـذا نـوع مـن أدب الكلام) .

(٢) سبق تخريجه ص ١١٩ .

واتباع الحق)[1] .

وإن من الواجب على المسلم المؤمن إذا وقع في قلبه شيء من ذلك ، أو رأى مايكره ، أن يقول : « اللهم لايأتي بالحسنات إلاّ أنت ولايدفع السيئات إلاّ أنت ، ولاحول ولا قوة إلاّ بك »[2] .

فدل ذلك على أن الطيرة لاتأتي بالحسنات ، ولاتدفع المكروهات ، بل أنت وحدك لاشريك لك ، أنت تأتي بالحسنات وتدفع السيئات وفيه أيضاً استعانة بالله تعالى على فعل التوكل ، وعدم الالتفات إلى الطيرة التي قد تكون سبباً لوقوع المكروه وعقوبة لفاعلها ، وذلك إنما يصدر من تحقيق التوكل على الله الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات ودفع المكروهات .

وهذا يفيد التوكل على الله علماً وعملاً ، فإذا علم وأيقن القلب بأن الله وحده هو النافع الضار ، وثق بالله وفرغ من كل ماسوى ذلك ، وهذا هو العمل .

فالتبرؤ من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته والإقرار بقدرته على كل شيء وبعجز العبد عن كل شيء إلاّ ما أقدره الله عليه . هذا نهاية توحيد الربوبية الذي يثمر التوكل على الله وتوحيد العبادة .

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٤٣٨ . المكتب الإسلامي .

(٢) أخرجه أبو داود في الطب ، باب في الطيرة ، عن أحمد القرشي ، وقيل : الجهني ، واختلف في صحبته . وذكر البخاري وغيره أنه سمع من ابن عباس ، فعلى هذا يكون الحديث مرسلاً كما قال المنذري [انظر : الحاشية على سنن أبي داود ٢٣٥/٤ . دار الحديث بحمص] .

وأمَّا كفارة ذلك الذي يقع في القلب فهي أن يقول المؤمن : « اللهم لا خير إلاّ خيرك ولا طير إلاّ طيرك ولا إله غيرك »[1] .

قال الشيخ سليمان بن عبدالله ... : (هذا كفارة لما يقع من الطيرة ولكن يمضي مع ذلك ويتوكل على الله)[2] .

ومما تقدم يعلم أن المؤمن يستطيع أن يدفع التطير الذي يقع في نفس كل واحد .

أمّا عن العدوى المذكورة في أول الحديث السابق : « لا عدوى ولا طيرة ... » فالمراد : لا عدوى على الوجه الذي كان أهل الجاهلية يعتقدونه من إضافة الفعل إلى غير الله ، وأمَّا الأمراض فتعدي بطبعها ، وإلاّ فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سبباً لحدوث ذلك .

ولهذا قال الرسول ﷺ في نهاية الحديث السابق : - « لا عدوى ولا طيرة » - : « وفِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد » في رواية البخاري[3] ، وفي بعض روايات مسلم[4] : « ولايورد ممرض على مصح » .

فالبعد عن المريض خوفاً من العدوى وانتقال المرض ليس قادحاً في التوكل ولا مخالفاً له ، بل هو من قبيل اجتناب الأسباب التي خلقها الله وجعلها سبباً للأذى ، والمؤمن مطلوب منه اتقاء مايؤدي إلى إيذائه أو هلكته - كالجليس الصالح والجليس

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٢/٢٢٠ ، وفي إسناده ابن لهيعة وفيه اختلاف ، وبقية رجاله ثقات .

(٢) تيسير العزيز الحميد ص ٤٣٩ . المكتب الإسلامي .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الطب ، باب الجذام .

(٤) صحيح مسلم كتاب الإيمان ، باب : (لاعدوى ولاطيرة ولاهامة ...) .

السوء - والخوف من ذلك غير مخرج لفاعله عن الرضا بقضاء الله تعالى فهو سبحانه خالق السبب والمسبب .

قال ﷺ في الطاعون : « إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلاتدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلاتخرجوا منها »[1] .

وكل ذلك بتقدير الله تعالى كما قال ﷺ : « فمن أعدى الأول »[2] يشير إلى أن الأول إنما جرب بقضاء الله وقدره ، فكذلك الثاني ومابعده .

وورد عند الإمام أحمد رحمه الله والترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً : « لايعدي شيء » قالها ثلاثا ، فقال الأعرابي : « يارسول الله النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها . فقال رسول الله ﷺ : « فمن أجرب الأول ؟ ، لاعدوى ولا هامة ولا صفر ، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصابها ورزقها »[3] .

فأخبر عليه الصلاة والسلام أن كل ذلك بقضاء الله وقدره كما دل على ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾[4] .

---

(١) أخرجه البخاري في الطب ، باب مايذكر في الطاعون ، ومسلم في كتاب السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها .

(٢) أخرجه البخاري في الطب ، باب لاصفر ، ومسلم في السلام ، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ... ، وأبو داود في الطب ، باب في الطيرة .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/٤٤٠ ، ٢/٣٢٧ ، والترمذي في القدر ، باب ماجاء لا عدوى ولا هامة ولا صفر .

(٤) سورة الحديد : ٢٢ .

وأمَّا أمره ﷺ بالفرار من المجذوم ، ونهيه عن إيراد الممرض على المصح ، وعن الدخول إلى موضع الطاعون ، فإنه من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالى ، وجعلها أسباباً للهلاك والأذى ، ونحن مأمورون باتقاء أسباب الشر إذا كنا في عافية فكما يؤمر العبد ألا يلقي نفسه في الماء أو في النار أو تحت الهدم أو نحو ذلك - ؛ لئلا يهلك نفسه أو يؤذى - فكذلك اجتناب مقاربة المريض المجذوم وقدوم بلد الطاعون ، فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف ، والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها .

وأمَّا إذا قوي توكل العبد على الله تعالى ، وإيمانه بقضاء الله وقدره فقويت نفسه على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتماداً على الله ورجاء منه ألا يحصل به ضرر ، ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك لاسيما إذا كانت فيه مصلحة عامة أو خاصة .

وعلى هذا يحمل الحديث المروي عن النبي ﷺ أنه أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة ، ثم قال : « كل ثقة بالله وتوكلاً على الله »[(١)] .

ونظير ذلك ماروي أن خالد بن الوليد رضي الله عنه شرب السم[(٢)] .

قال الشيخ سليمان بن عبدالله ... (فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى ، واعتصم بحبله المتين ، وتوكل على الله : قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها

---

(١) أخرجه أبو داود في الطب ، باب في الطيرة ، والترمذي في الأطعمة ، باب الأكل مع المجذوم وقال : (هذا حديث غريب ...) ، وابن ماجه في الطب ، باب الجذام .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٧٦/١ ، وقال صاحب مجموع الزوائد : (رواه أبو يعلى والطبراني بنحوه وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح وهو مرسل ، ورجالهما ثقات إلاّ أن أبا السفر ، وأبا بردة ابن أبي موسى لم يسمعا من خالد ، والله أعلم) ا . هـ .

وبادر خواطرها من قبل استمكانها)[1] .

ولعل في قصة عمر رضي الله عنه دليل واضح على ماتقدم :

أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه : « أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ[2] لقيه أمراء الأجناد - أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه - فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام ، قال ابن عباس : فقال عمر : ادع لي المهاجرين الأولين فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع في الشام فاختلفوا ، فقال بعضهم : قد خرجنا لأمر ولانرى أن نرجع عنه .

وقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولانرى أن تقدمهم على هذا الوباء ، فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادعوا لي الأنصار ، فدعوتهم ، فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين ، واختلفوا كاختلافهم ، فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادعوا لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان ، فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولاتقدمهم على هذا الوباء ، فنادى عمر الناس : إني مصبح على ظهر ، فأصبحوا عليه . فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله . أرأيت إن كانت لك ابل هبطت

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٤٢٨ .

(٢) سَرْغ : مدينة افتتحها أبو عبيدة وهي واليرموك والجابية متصلات وبينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة ، وقيل : وادٍ بتبوك ، أو بقربه ، وقيل : هي أول الحجاز ، وهي من منازل حاج الشام . انظر : فتح الباري ١٠/١٨٤ .

وادياً لـه عدوتان : إحداهما خصيبة ، والأخـرى جدبـة ، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ قال فجاء عبدالرحمن بن عوف - وكان متغيباً في بعض حاجته - فقال : إن عنـدي في هـذا علمـاً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا سمعتم بـه بـأرض فلاتقدمـوا عليـه ، وإذا وقـع بـأرض وأنتم بها فلاتخرجوا فراراً منه . قال : فحمد الله عمر ثم انصرف »[1] .

(٢) - إتيان الكهان والتعلق بهم :

الكهان : جمع كاهن ، وهو من يزعم أنه يعلم المغيبات أو يعلم ما في الضمير .

وأكثر مايكون ذلك ممن ينظرون في النجوم لمعرفة الحوادث أو يستخدمون من يسترقون السمع من شياطين الجن .

ومن هذا أيضاً النظر في الطالع الـذي هـو ضـرب مـن ضـروب الكهانـة تغـير الأسماء من أجل عدم مناسبتها للطالع .

ومن ذلك التنويم المغناطيسي ؛ لأنه يستخدم الجني حتى (يسـلطه المنـوم علـى المنوم فيتكلم بلسانه ويكسبه قوة على بعض الأعمال بالسيطرة إن صدق مـع المنـوم وكان طوعاً له مقابل مايتقرب به المنوم إليه ويجعل ذلك الجني طوع إرادة المنـوم بمـا يطلبه من الأعمال أو الاختبار بمساعدة الجني له إن صـدق ذلـك الجـني مـع المنـوم ، وعلى ذلك يكون استغـلال التنويم المغناطيسي واتخـاذه طريقاً أو وسيلة للدلالة على

---

(١) أخرجه البخاري في الطب ، بـاب مـايذكر في الطـاعون ، ومسـلم في كتـاب السـلام ، بـاب الطـاعون والطيرة والكهانة ونحوها .

مكان سرقة أو ضالة أو علاج مريض أو القيام بأي عمل آخر بواسطة المنوم غير جائز ، بل هو شرك لما تقدم ؛ ولأنه التجاء إلى غير الله فيما هو من وراء الأسباب العادية التي جعلها الله سبحانه إلى المخلوقات وأباحها لهم)[1] .

فمن أتى الكهان متوكلاً عليهم وعلى مايقولون فقد أشرك بالله غيره ؛ لأنه اعتمد على هؤلاء الذين قد توكلوا على غير الله فتوكلوا على الشياطين والجن الذين يسترقون السمع .

والرسول ﷺ قال : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً »[2] .

وقال ﷺ : « من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ »[3] .

لأن كل مايعمله هؤلاء ليس من الأسباب المأمور بها أو المباحة بل هي من الأعمال والأفعال المعارضة للشريعة فيحرم على المسلم اتخاذ هذه الأسباب ، ويجب عليه اتخاذ الأسباب المشروعة أو المباحة مع التوكل على الله تعالى وحده دون سواه .

---

(١) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ١/٤٠١ .

(٢) أخرجه مسلم في السلام ، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان ، والإمام أحمد في المسند ٤/٦٨ ، ٥/٣٨٠ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢/٤٢٩ ، والحاكم في المستدرك ١/٨ ، وقال : صحيح على شرطه ولم يخرجاه ، والترمذي في الطهارة ، باب في كراهية إتيان الحائض بلفظ فيه من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً ...) ، وابن ماجه بلفظ الترمذي في الطهارة ، باب النهي عن إتيان الحائض .

(٣) – تعليق التمائم :

وهي : خرزات أو عظام أو كتابة أو قرآن ، وقد كانت العرب تعلق الخرز أو العظام على أولادها يتقون بها العين ويلتمحون من اسمها أن يتم الله لهم مقصودهم .

فما كان من أمر الجاهلية مما يعتمد ويتوكل عليه فهذا باطل ينافي التوحيد . وهم يعتقدون أن لها تأثيراً حقيقة ، وأقل مايقال فيها أنها شرك خفي بترك التوكل والاعتماد على الله سبحانه وتعالى ؛ لحديث : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك »[١] .

فالشرك هنا هو الشرك الأصغر وقد يكون شركاً أكبر إذا اعتقد معلق التميمة أنها تحفظه أو تكشف عنه المرض أو تدفع عنه الضر من دون إذن الله ومشيئته .

أما ماكان من القرآن أو من الأدعية النبوية أو أشباه ذلك من الدعوات المشروعة ففي تعليقه وجواز ذلك خلاف .

فمن العلماء من أجازه ، ومنهم من منعه ، وهذا هو الراجح إن شاء الله ؛ لعموم أحاديث النهي عن التمائم ، وسداً لذرائع الشرك ، حيث تشتبه المحرمة بالجائزة ؛ ولأن القرآن بهذا يمتهن ويحمل في أماكن لاتليق بالقرآن الكريم . حتى ولو كان جائزاً ، فإنه يضعف التوكل على الله تعالى ؛ لما روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ :

---

(١) أخرجه أبو داود في الطب ، باب في تعليق التمائم ، وابن ماجه في الطب ، باب تعليق التمائم ، والإمام أحمد في المسند ٣٨١/١ ، والحاكم في المستدرك ٤١٨/٤ ، والبيهقي في المسند ٣٥٠/٩ ، وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

« من تعلق شيئاً وكل إليه »[1] .

قال الشيخ سليمان بن عبدا لله ... : (قوله من تعلق شيئاً وكل إليه : التعلق يكون بالقلب ويكون بالفعل ، ويكون بهما جميعاً ، أي : من تعلق شيئاً بقلبه ، أو تعلقه بقلبه وفعله ، وكل إليه ، أي : وكله ا لله إلى ذلك الشيء الذي تعلقه ، فمن تعلقت نفسه با لله وأنزل حوائجه با لله والتجأ إليه ، وفوض أمره كله إليه ، كفاه كل مؤنة وقرب إليه كل بعيد ، ويسر له كل عسير ، ومن تعلق بغيره ، أو سكن إلى علمه وعقله ودوائه وتمائمه ، واعتمد على حوله وقوته ، وكله ا لله إلى ذلك وخذله ، وهذا معروف بالنصوص والتجارب[2] ، قال ا لله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ا للهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[3]) .

(٤) – ومن ذلك إتيان السحرة وتصديقهم :

الساحر متوكل على غير ا لله ؛ لأنه متوكل على الشياطين ، ومن أتى الساحر معتمداً عليه فقد توكل على غير ا لله ، وذلك شرك ينافي التوكل على ا لله وحده .

وهو يدخل في الشرك من ناحيتين :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣١١/٤ ، والترمذي في الطب ، باب كراهية التعليق ، وقال الترمذي : (... وإنما عبدا لله بن عكيم لم يسمع من النبي ﷺ) ، والحاكم في المستدرك ٢١٦/٤ ، وسكت عنه وكذلك الذهبي .

(٢) تيسير العزيز الحميد ص ١٦٩ – ١٧٠ .

(٣) سورة الطلاق : ٣ .

الأولى : ما فيه من استخدام الشياطين والتعلق بهم ، وربما تقرب إليهم بما يحبونه ليقوموا بخدمته .

الثانية : ما فيه من دعوى علم الغيب ودعوى مشاركة الله في ذلك ، وهذا كفر وضلال .

فمن توكل على السحرة والشياطين وتعلق بهم وكله الله إليهم فأهلكوه في الدنيا والآخرة ، كما ورد في الحديث السابق : « من تعلق شيئاً وكل إليه » أي : من تعلق قلبه شيئاً بحيث يتوكل عليه ويرجوه وكله الله إلى ذلك الشيء .

أمَّا إذا تعلق العبد بربه وإلهه وسيده ومولاه ، رب كل شيء ومليكه وكله الله إليه فكفاه ووقاه وحفظه وتولاه ، ونعم المولى ونعم النصير ، قال الله تعالى : ﴿ **أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾[1] .

(٥) – سوء الظن بالله تعالى :

وهذا مثل مايفعله المنافقون : فقد وصفهم الله بأنهم يظنون به غير الحق ، فقال سبحانه : ﴿ **يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ** ﴾[2] .

وأخبر عنهم في الآية الأخرى أنهم يظنون به ظن السوء ، فقال : ﴿ **وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِيْنَ وَالمُنَافِقَاتِ وَالمُشْرِكِيْنَ وَالمُشْرِكَاتِ الظَّانِّيْنَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ**

---

(١) سورة الزمر : ٣٦ .

(٢) سورة آل عمران : ١٥٤ .

السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيْراً ﴾(1) .

وهذا حال أهل الريب والشك دائماً إذا حصل أمر من الأمور القطيعة لايتوكلون على الله ولايثقون بنصره وحفظه فتحصل لهم الظنون الشنيعة . ويقولون : ﴿ **هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ مع أن الأمر كله لله تعالى .

فهؤلاء جزاؤهم الغضب واللعنة ، وجهنم مصيرهم ، والعياذ بالله .

أمّا الطائفة المؤمنة المتوكلة على الله تعالى أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق ، فهم الجازمون بأن الله سينصر رسوله وينجز له مأموله : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِيْنَةَ فَي قُلُوْبِ الْمُؤْمِنِيْنَ لِيَزْدَادُوْا إِيْمَاناً مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَ للهِ جُنُوْدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيْماً حَكِيْماً** ﴾(2) .

قال الشيخ د . صالح الفوزان – حفظه الله – : (وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم ، ولايسلم من ذلك إلاّ من عرف الله بأسمائه وصفاته ، وموجب حكمته وحمده ، فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا وليتب إلى الله وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء .

ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ، فمستقل ومستكثر ، وفتش نفسك هل أنت سالم ؟)(3) .

---

(1) سورة الفتح : ٦ .

(2) سورة الفتح : ٤ .

(3) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ص ٧٦ – ٧٧ .

وقال ابن القيم رحمه الله في التعليق على الآية السابقة : (وإنما كان هذا ظن السوء ، وظن أهل الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل ، وظن غير الحق ؛ لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وذاته المبرأة من كل عيب وسوء ، بخلاف مايليق بحكمته وحمده ، وتفرده بالربوبية والإلهية ، وما يليق بوعده الصادق الذي لايخلفه ، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولايخذلهم ولجنده بأنهم هم الغالبون)[1] .

(٦) - لبس الحلقة والخيط ونحوهما :

فبعض الناس يلبس الحلقة أو الخيط أو غيرهما متوكلاً عليها في رفع البلاء ، أو دفع الشر والبلاء عنه ، وهذا من فعل الجاهلية الذي جاء الإسلام بالنهي عنه وإبطاله كما في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر ، فقال : « ما هذا ؟ » قال : من الواهنة . فقال : « انزعها فإنها لاتزيدك إلاّ وهناً ، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً »[2] . رواه أحمد بسند لابأس به وصححه ابن حبان والحاكم وأقره الذهبي[3] .

قيل : وهذا من الشرك الأصغر في التوكل على الله ، وقد يترقى إلى درجة الشرك الأكبر بحسب ما يقوم بقلب اللابس من الاعتقاد بالملبوس ، وتوكله عليه .

---

(١) زاد المعاد ٢٢٩/٣ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطب ، باب تعليق التمائم ، وفي هامش ص ١١٦٨ : (في الزوائد : إسناده حسن ...) ، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ٤٤٥/٤ .

(٣) انظر : مستدرك الحاكم ٢١٦/٤ وهامشها .

وقيل : إن ذلك من أنواع الشرك الأكبر المخرج من الملة ؛ لأنهم لايلبسونها إلا لاعتقادهم جلب نفع أو دفع ضر ، ولايجلب النفع ولايدفع الشر إلاّ الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الغَفُوْرُ الرَّحِيْم ﴾[1] . والراجح الأول

(٧) – التبرك بالأشجار أو غيرها :

ومعناه طلب البركة ورجاؤها واعتقادها في تلك الأشياء ، فهذا العمل من أعمال أهل الجاهلية ، وهو شرك يضاد التوكل على الله وينافيه ؛ لأنه تعلق على غير الله في حصول البركة .

عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، ونحن حدثاء عهد كفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة ، فقلنا : يارسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم (والذي نفسي بيده) كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُوْنَ ﴾[2] ، لتركبن سنن من كان قبلكم »[3] .

---

(١) سورة يونس : ١٠٧ .

(٢) سورة الأعراف : ١٣٨ .

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن ، باب لتركبن سنن من كان قبلكم ، وقال : (هذا حديث حسن صحيح) ، والإمام أحمد في المسند ٥/٢١٨ .

(٨) – الاستعاذة بغير ا لله :

الاستعاذة : الالتجاء والاعتصام والتحرز :

وحقيقتها : أن يهرب الإنسان من شيء يخافه إلى من يعصمه منه .

فالعائذ با لله تعالى يهرب مما يؤذيه أو يهلكه إلى ربه ومالكـه ، توكـلاً عليـه . عالماً بأنه لا ملجأ إلاّ إليه ، ولا عاصم غيره ، ولا حافظ سواه .

قال الشيخ سليمان بن عبدا لله ... : (وإلاّ فما يقوم بالقلب من الالتجـاء إلى ا لله ، والاعتصام به ، والاطراح بين يدي الرب والافتقار إليـه ، والتذلـل بـين يديـه أمر لاتحيط به العبارة هذا معنى كلام ابن القيم ...)[1] ا . هـ .

فالاستعاذة بغير ا لله شرك ينافي التوكل على ا لله تعالى ويضاده .

وغير هذه السابقة كثير كالاعتماد على الكفـار في النصر وغـيره ، والاتكـال عليهم دون ا لله ، أو الاعتماد والاتكال على القوة المادية في جميع نواحـي الحيـاة أو بعضها مما لايخفى على المتدبر للأمر ولأحـوال البشـر ، وخاصـة ضعـاف الإيمـان أو مرضى القلوب بالشبهات أو الشهوات .

قال الشيخ سليمان بن عبدا لله بن محمد بن عبدالوهاب رحمه ا لله : (وبالجملة فمن توكل على غير ا لله كائناً من كان وكل إليه ، وأتاه الشر في الدنيا والآخرة من جهته مقابلة له بنقيض قصده ، وهذه سنة ا لله في عباده التي لاتبـدل ، وعادتـه الـتي

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٤٠٢ – ٤٠٣ .

لاتحول ، أن من اطمأن إلى غيره أو وثق بسواه ، أو ركن إلى مخلوق يدبره ، أجرى الله تعالى له سببه أو من جهته خلاف ما علق به آماله ، وهذا أمر معلوم بالنص والعيان ، ومن تأمل ذلك في أحوال الخلق بعين البصيرة النافذة رأى ذلك عياناً)[1] .

* * *

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٤٠٢ - ٤٠٣ .

التَّوَكُّل وَفِعْلُ الأَسْبَاب

تمهيد :

الإنسان همام حارث ، حساس متحرك ، له إرادة وله مشيئة ، له علم وعمل ، ولابد في أي عمل إرادي اختياري من مراد مطلوب ، ولايحصل هذا المراد المطلوب إلاّ بأسباب ووسائل تحصله ، فإن حصل المراد المطلوب بفعل العبد فلابد من قدرة وقوة ؛ وإن حصل من خارج فلابد من فاعل غيره .

وإن حصل المراد من العبد ومن غيره فلابد من الأسباب ؛ لأنها كالآلات التي يستخدمها الصانع في صنعته لعمل المراد المطلوب .

فإذن لابد من إرادة ومشيئة ولابد من عون يحصل به المراد ، فالعبد عند العمل صار مجبولاً على أن يقصد شيئاً ويريده ، ويستعين بشيء ويعتمد عليه في تحصيل مراده ومطلوبه ... لكن المراد قسمان :

١ - **مايراد لنفسه** : وهو مايكون هو الغاية المطلوبة ، فهو الذي يذل له الطالب أو المريد ويحبه ، وهو الإله المقصود .

٢ - **مايراد لغيره** : فيكون المراد هو ذلك الغير ، فهذا مراد بالعرض .

والمستعان قسمان :

١ - **المستعان لنفسه** : وهو مايكون هو الغاية التي يعتمد عليه العبد ويتوكل عليه ؛ ويتعضد به ، ليس عنده فوقه غاية في الاستعانة .

٢ – ومنه مايكون تبعاً للمستعان وآلة له : وهو بمنزلة الأعضاء مع القلب ؛ والمال مع المالك ، والآلات مع الصانع .

وبتدبر العبد لحاله وحال الناس يجد أنهم لاينفكون عن هذين الأمرين المشار إليهما .

إذن فلابد للنفس من شيء تطمئن إليه وتحبه ؛ وهو إلهها الذي تأله إليه وتثق به وتعتمد عليه في الحصول على المطلوب المحبوب ، وهو الله بالنسبة للمؤمن ، أو غيره بالنسبة للكافر .

وقد تثق نفس العبد وتطمئن وتحب غير الله ، إذا غلب عليها حب ذلك الشيء ، سواء كان شخصاً أو رياسة أو مالاً ، كما قال النبي ﷺ : « تعس عبدالدينار ، وعبدالدرهم ، وعبدالخميصة : إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش »[1] .

وكذلك من وثق بجاهه أو ماله أو بخادمه وأعوانه وجنوده ونحوهم ، أو أصدقائه ، وأنها التي تجلب المنفعة الفلانية أو تدفع المضرة الفلانية ، فهو معتمد عليها ومستعين بها – وما أكثر مايحتاج العبد إلى الاستعانة فيه – فمن اعتمد عليه قلب العبد في الرزق أو النصر ، أو النفع ، أو الضر ، فقد خضع له وذل ، وانقاد له وأحبه من هذه الجهة ، وإن لم يحبه لذاته . وقد يحبه لذاته إذا غلب عليه الحال ونسي مقصوده منه كما يحصل لمن يحب المال أو يحب من يحصل له به العز والسلطان .

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد ، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ، وابن ماجه في كتاب الزهد ، باب في المكثرين (آخر الباب) .

وأمّا ما أحبه قلب العبد وأراده وقصده ، فقد لايستعينه ولايعتمد عليه إلاّ إذا استشعر أن له قدرة على تحصيل مراده ... وإلاّ فلا .

فيكون الأمر على أربعة أقسام :

أحدهما : أن يكون محبوباً غير مستعان .

ثانيها : أن يكون مستعاناً غير محبوب .

ثالثها : أن يكون مستعاناً محبوباً .

رابعها : أن يكون غير محبوب وغير مستعان :

فيكون الناس على هذه الأقسام الأربعة :

١ – أن يعبد غير الله ويتوكل عليه ، وهذا شرك .

٢ – أن يعبد الله ولايتوكل عليه ، وهذا يحدث ممن يقصد طاعة الله ورسوله وعبادة الله وحده لاشريك له ، لكن قلبه يخضع لمن يستشعر نصرهم ورزقهم وهدايتهم من جهته : من الملوك والأغنياء والمشايخ .

٣ – أن يتوكل على الله وإن كان لايعبده ولايطيع أمره : وهذا يحدث من أصحاب الأحوال ، وذوي القدرة وذوي السلطان الباطن أو الظاهر ، وأهل الكشف والتأثير ، فيتوكلون عليه سبحانه ويسألونه ويلجأون إليه ، لكن مقصودهم غير ما أمر الله به ورسوله ، فلايتبعون دينه وشرعه الذي بعث به محمداً ﷺ .

٤ – أن لايعبد إلاّ الله تعالى ولايستعين إلاّ به ولايتوكل إلاّ عليه ، وهؤلاء هم أكمل الناس ديناً وأقربهم إليه ...[1] .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ١/٣٤ – ٣٦ .

وبهذا نعلم أنه لابد من فعل الأسباب حتى يكمل التوكل على الله ؛ لأنه قد جعل للأشياء أسباباً تكون بها فيعلم سبحانه أنها تكون بتلك الأسباب ، كما يعلم أن هذا يولد له بأن يطأ امرأة فيحبلها ، فلو قال هذا : إذا علم الله أنه يولد لي فلاحاجة إلى الوطء كان أحمق ؛ لأن الله علم أن سيكون بما يقدره من الوطء : ﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَاكَتَبَ الله لَكُمْ ﴾[1] ، وكذلك إذا علم أن هذا ينبت له الزرع بما يسقيه من الماء ويبذره من الحب ، فلو قال : إذا علم أن سيكون فلا حاجة إلى البذر ؛ كان جاهلاً ضالاً ؛ لأن الله علم أن سيكون بذلك ، وكذلك إذا علم أن هذا يشبع بالأكل ، وهذا يروى بالشرب ، وهذا يموت بالقتل فلابد من الأسباب التي علم الله أن هذه الأمور تكون بها .

وكذلك إذا علم أن هذا العبد يكون سعيداً في الآخرة ، وهذا شقياً فيها ، فإن ذلك لأن الأول يعمل بعمل أهل السعادة فعلم الله أنه يسعد بهذا العمل ، والآخر يعمل بعمل أهل الشقاء ، فالله علم أنه يشقى بهذا العمل ، فلو قيل : هو شقي وإن لم يعمل كان باطلاً ؛ لأن الله لايدخل النار أحداً إلاّ بذنب ، كما قال تعالى : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[2] ، وفي الحديث الذي رواه مسلم في أول كتاب القدر[3] بسنده عن علي رضي الله عنه قال : كنا في جنازة في

---

(١) سورة البقرة : ١٨٧ .

(٢) سورة ص : ٨٥ .

(٣) الحديث رقم ٦ منه ، وسبق تخريجه ص ١٠٣ من هذا البحث .

بقيع الغرقد[1] ، فأتانا رسول الله فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة[2] فنكّس[3] فجعل ينكت[4] بمخصرته ثم قال : « ما منكم من أحد ، ما من نفس منفوسة[5] ، إلاّ وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وإلاّ وقد كتبت شقية أو سعيدة » قال : فقال رجل : يارسول الله ! أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال : « من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة » فقال : « واعملوا فكل ميسر . أمَّا أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأمَّا أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة » ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۞ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾[6] .

فالتوكل يقوم على أصلين هما :

١ – العلم .

٢ – العمل .

فلايكون التوكل بالعلم فقط ، أي : بمعرفة القلب ويقينه بأن الله هو الرازق

---

(١) الغرقد : شجر ، سمي به بقيع الغرقد ، وهي مقبرة المدينة ؛ لأنه كان فيه هذا الشجر . [انظر : مراصد الاطلاع ٢/٩٩٠ ، ولسان العرب ٣/٣٢٥] .

(٢) المخصرة : ما أخذ الإنسان بيده واختصره من عصا لطيفة وعكاز لطيف وغيرهما .

(٣) أي : خفض رأسه إلى الأرض على هيئة المهموم .

(٤) ينكت : يخط بها خطاً يسيراً مرة بعد مرة ، وهذا فعل المهموم .

(٥) منفوسة : مولودة .

(٦) سورة الليل : ٥ – ١٠ .

سبحانه دون غيره ، كما تفعله بعض الصوفية ، ولا بالعمل واتخاذ الأسباب فقط دون العلم بأن الله إن شاء تحققت غاية الأسباب وإن لم يشأ لم تتحقق .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (الإنسان ليس مأموراً أن ينظر في النتائج إنما عليه أن يبذل الأسباب ويتوكل على الله تعالى ، وما أصابه من مصيبة صبر واحتسب ذلك عليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾[1] ، قال بعض السلف : ... هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم)[2] .

قلتُ : فلابد من الجمع بين التوكل والسبب أي : بين اعتماد القلب على الله ، والأخذ بالأسباب المأمور بها واعتقاد أنها لاتجلب بذاتها نفعاً ، ولاتدفع ضراً ، بل السبب والمسبب فعل الله ، والكل بمشيئته .

فـ (كل أمر بين الله تعالى لعباده فيه طريقاً ليسلكوه إذا عرض لهم ، والتوكل يقع منهم في سلوك تلك السبيل والتسبب به إلى المراد ، فإن فعلوا ذلك متوكلين على الله في أن ينجح سعيهم ويبلغهم مرادهم كانوا آتين الأمر من بابه ، ومن جرد التوكل عن السبب بما جعله الله سبباً ، فلم يفعل ما أمر به لم يأت الأمر من بابه)[3] .

---

(١) سورة التغابن ١١ .

(٢) الفتاوى ١٧٨/٨ .

(٣) المنهاج في شعب الإيمان ٥/٢ .

وكان أناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزوده يقولون نحج بيت الله ولايطعمنا ؟ فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾[1] . أخرج ذلك العوفي وابن ابي حاتم وابن جرير[2] ، ورواه البخاري[3] بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان أهل اليمن يحجون ولايتزودون ، ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا مكة سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ » . ورواه النسائي أيضاً[4] .

فالتزود وفعل السبب من التقوى ، بل هو من التوكل ، والتوكل لايكون محموداً إذا استعان بأحد في شيء ، وقيل : التوكل قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب كما قال عليه الصلاة والسلام : « اعقلها وتوكل »[5] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[6] : (فمن لم يفعل ما أمر به لم يكن مستعيناً بالله على ذلك ، فيكون قد ترك العبادة والاستعانة عليها بترك التوكل في هذا الموضع أيضاً ، وآخر يتوكل بلا فعل مأمور ، وهذا هو العجز المذموم ، كما في سنن أبي داود أن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ فحكم على أحدهما فقال : حسبي الله ونعم الوكيل . فقال النبي ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن

---

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٢٣٨/١ - ٢٣٩ .

(٣) في كتاب الحج ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ ... ﴾ .

(٤) في السنن كتاب المناسك ، باب ٤ .

(٥) سبق تخريجه ص ٧٧ .

(٦) الفتاوى ١٧٧/١ - ١٧٨ .

عليك بالكيس[1] ، فإن غلبك أمر فقل : حسبي الله ونعم الوكيل »[2] .

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ماينفعك واستعن بالله ولاتعجزن ، وإن أصابك شيء فلاتقل : لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وماشاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان »[3] .

ومن أهم نتائج عمل الأسباب الترفع عما في أيدي الناس وعدم سؤالهم كما قال الله تعالى : ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِيْنَ أُحْصِرُوْا فِي سَبِيْلِ اللهِ لاَيَسْتَطِيْعُوْنَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسِبُهُم الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِن التَّعَفُّفْ تَعْرِفُهُمْ بِسِيْمَاهُمْ لاَيَسْأَلُوْنَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوْا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيْمٌ** ﴾[4] .

لأن سؤال الناس مع القدرة على الكسب أو الغنى توكل عليهم ينتظر صاحبه منهم العطاء أو المنع ، وهذا مخالف للتوكل على الله لما فيه من الذلة وإراقة ماء الوجه لغير الله تعالى والالتفات إلى غيره في السؤال والطلب .

قلتُ : فحصول المطلوب مع اتخاذ الأسباب لايمكن أن يكون قاعدة مضطردة ، ولايمكن أن يقال : إنه لابد من حصول المراد إذا وجد السبب ، بل المطلوب من المؤمن التوكل على الله وحده ثم الأخذ بالأسباب ، أو الأخذ بالأسباب متوكلاً

---

(١) الكيس في الأمور يجري مجرى الرفق والفطنة ، والكيس : العقل .

(٢) سبق تخريجه ص ٥٢ .

(٣) أخرجه مسلم في آخر القدر ، وابن ماجه في المقدمة ، باب القدر ، وأحمد في المسند ٣٦٦/٢ .

(٤) سورة البقرة : ٢٧٣ .

على ا لله ، فيصاحب الفعل التوكل - وقد يعطي سبحانه أو يمنع مع وجود السبب .

ولذلك لايجوز أن يكون الاعتماد على الأسباب وحدها وأن يعتقد فاعلها أنها مؤثرة بذاتها بل يصحبها التوكل وماشاء ا لله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

أتى عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه على قوم فقال : « من أنتم ؟ فقالوا : نحن المتوكلون ، فقال : بل أنتم المتكلون[1] ، ألا أخبركم بالمتوكلين : رجل ألقى حبه في بطن الأرض ثم توكل على ربه »[2] .

قال المناوي رحمه ا لله : (وإنما أرشد لطلب الرزق منها ؛ لأنه أقرب الأشياء إلى التوكل وأبعدها من الحول والقوة ، فإن الزارع إذا كرب[3] الأرض ونقاها وقام عليها ودفن فيها الحب : تبرأ من حوله وقوته ونفذت حيلته فلا يرى لنفسه حيلة في إنباته وخروجه ، بل ينظر إلى القضاء والقدر ويرجو ربه دون غيره)[4] .

وقد سئل ابن سالم بالبصرة أمتعبدون بالكسب أو بالتوكل ؟ . فقال : (التوكل حال رسول ا لله ﷺ والكسب سنة رسول ا لله ﷺ ، وإنما سن لهم الكسب لضعفهم حين أسقطوا عن درجة التوكل الذي هو حاله ، لم يسقطهم عن طلب المعاش بالمكاسب الذي هو سنته ولولا ذلك لهلكوا)[5] .

---

(١) المتكلون : يعني على أموال الناس ، في المنهاج في شعب الإيمان : (المتآكلون) .

(٢) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ١٢/٢ ، وأخرجه ابن أبي الدنيا في التوكل ص ٦١ .

(٣) كرب الأرض : قلبها للحرث وأثارها للزرع .

(٤) فيض القدير ٥٤٢/١ .

(٥) ثلاث شعب من الجامع لشعب الإيمان للبيهقي ص ٨٠١ .

قلتُ : لقد أمر الله بالتوكل في قوله : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُم مُؤْمِنِيْنَ ﴾ وأمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل عليه ، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة لله ، والتوكل بالقلب عليه إيمان بالله .

إن التوكل على الله هو تعلق القلب بربه في حصول كل النتائج وفي الاستعانة به على تسهيل الأسباب ولايترك الأخذ بالأسباب المأمور بها ، ولايظن أن الأسباب وحدها هي الموصلة للنتائج .

وقد قال علماؤنا : (الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون : نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ، وإنما التوكل والرجاء معنى يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع)[1] .

ويقول ابن تيمية رحمه الله : (والالتفات إلى الأسباب وحدها شرك في التوحيد ، وهو ظلم وجهل ، وهذه حال من دعا غير الله وتوكل عليه)[2] .

والعبادات مبناها على الشرع والاتباع ، لا على الهوى والابتداع ؛ لأن الإسلام مبني على أصلين :

١ – أن نعبد الله وحده لاشريك له .

٢ – أن نعبده بما شرعه على لسان رسوله ﷺ لانعبده بالأهواء والبدع .

فالتوكل لايكون إلاّ على الله وحده لاشريك له ، ولابد من عمل الأسباب التي شرعها على لسان محمد ﷺ .

---

(١) القضاء والقدر للأشقر ص ٨٥ ، مكتبة الفلاح ١٤١١ هـ .

(٢) الفتاوى ١٧٥/٨ .

فمن جعل لأحد شيئاً من توكله أو توكل على غير الله عزوجل وظن أنه كافيه من دون الله فقد أشرك مع الله غيره ، وهذا الشرك في الربوبية ، ولايغفر له إلاّ بالتوبة منه .

وترك الأسباب التي أمر الله بفعلها تعطيل لأحد الأصلين السابقين ، وهو شرك في الألوهية .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (وقد أمر الله العباد بأن يعبدوه ويتوكلوا عليه ويسألوه ؛ لأنه سبحانه جعل هذه الأمور أسباباً لما يرتبه عليها من إثابة العابدين ، وإجابة السائلين ، وهو سبحانه يعلم الأشياء على ما هي عليه ، فعلمه بأن هذا محتاج أو هذا مذنب لاينافي أن يأمر هذا بالتوبة والاستغفار ، ويأمر هذا بالدعاء وغيره من الأسباب التي تقضى بها حاجته ، كما يأمر هذا بالعبادة والطاعة التي بها ينال كرامته)[1] .

فالدعاء مثلاً من أعظم الأسباب التي يفعلها العبد طلباً لمرضاة الله كما قال الله تعالى : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿ **فَادْعُوْهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْن** ﴾[3] .

وما أشار إليه الله سبحانه وتعالى وأمر به في قوله تعالى : ﴿ **وَأَعِدُّوْا لَهُمْ مَا**

---

(١) الفتاوى ١/١٨٣ .

(٢) سورة غافر : ٦٠ .

(٣) سورة غافر : ٦٥ .

اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُوْنَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِيْنَ مِنْ دُوْنِهِمْ لاَتَعْلَمُوْنَهُمْ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوْا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيْلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَتُظْلَمُوْنَ ﴾[1] .

فهذه الأمور تتخذ للوصول إلى النصر على الأعداء ﴿ وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيْزِ الحَكِيْم ﴾[2] ، وعمل هذه الأسباب موافق للفطرة ومؤيدة بالتجربة .

والاستعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد ، والآية السابقة تأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها ؛ لأنه لابد للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لإدخال الناس في دين الله أفواجاً بعد كسر الحواجز التي تصد الناس عن دين الله وفك القيود التي تمنع الإنسان من معرفة الحق ، أو تفتن الذين دخلوا في دين الله عن دينهم .

فاتخاذ هذه الوسائل في الجهاد ترهب أعداء هذا الدين بعد أن تؤمن الخائف من أهله ، وتدخل الرعب في قلوب الأعداء حتى لايفكروا في الوقوف في وجه هذا الدين ، بل وتحطم هذه القوة المتخذة كلَّ قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية .

كذلك فإن تحريض المؤمنين على القتال وترغيبهم فيه وتشجيعهم عليه : أسباب تُفعل طلباً وأملاً في تحقيق النصر على الأعداء ؛ ولهذا كان النبي ﷺ يرغب الصحابة

---

(١) سورة الأنفال : ٦٠ .

(٢) سورة آل عمران : ١٢٦ .

ويشجعهم يوم بدر فيقول لهم وهو يسوي الصفوف : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض »[1] .

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِذَا لَقِيْتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوْا وَاذْكُرُوْا اللهَ كَثِيْراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ ﴾[3] ، وغيرهما من الآيات التي تأمر باتخاذ الأسباب لمقابلة العدو وطلب النصر عليه ، ولعل سورة الأنفال بكاملها توضح ذلك .

فالنصر لايتحقق بالاستناد إلى الأسباب لكن العبد مأمور بفعلها واثقاً بالله ومتوكلاً عليه ، فهو سبحانه الذي يحقق النصر لعباده .

ولذلك لو تأمل العبد قصة أيوب عليه الصلاة والسلام الذي لبث به بلاؤه زمناً فنادى ربه ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾[4] فأمر أن يفعل سبباً من الأسباب التي قد يرى الإنسان أنه لا علاقة له بما أصاب أيوب عليه السلام فقال له سبحانه : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾[5] فزال البلاء بإذن الله ، وكذلك قصة مريم عليها السلام حينما طلب منها أن تهز جذع النخلة فقال سبحانه : ﴿ وَهُزِّيْ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾[6] . والله

---

(١) أخرجه مسلم في الامارة ، باب في ثبوت الجنة للشهيد .

(٢) سورة الأنفال : ٦٥ .

(٣) سورة الأنفال : ٤٥ .

(٤) سورة ص : ٤١ .

(٥) سورة ص : ٤٢ .

(٦) سورة مريم : ٢٥ .

قادر سبحانه على أن يساقط عليها الرطب من غير هز الجذع ولكن أمرها بفعل السبب كما تقدم[1] .

كما قال الشاعر :

توكل على الرحمن في كل حاجة	**ولاتؤثرن العجز يوماً على الطلب**
ألم تر أن الله قال لمريم	**إليك فهزي الجذع يساقط الرطب**
ولو شاء أن تجنيه من غير هزها	**جنته ولكن كل شيء له سبب[2]**

قال الشيخ عبدالقادر السندي عن الخوف ... : (لابد من اتخاذ الأسباب في هذه الحالة لابقاء نفسه كما أمر الله تعالى بها ورسوله ﷺ في صحيح سنته ، وهذا لاينافي التوكل أبداً ؛ لأن اتخاذ الأسباب شامل وداخل في التوكل ، ولايجوز التوكل بدونها ، وهذا من أوضح وأبين المسائل العلمية الثابتة عن الله تعالى ورسوله ﷺ ، ولايجوز للإنسان المسلم أن يعرض نفسه للخطر الجسيم ثم يزعم أن هذا هو التوكل ... وقد خفي هذا المعنى على كثير من الناس وقد وضح القرآن الكريم هذا المعنى - أي الخوف الطبيعي - في مواضع عديدة ، قال الله تعالى في حق نبيه نوح ﷺ عندما دعا ابنه الطالح لكي يركب معه في السفينة خوفاً من هلاكه وغرقه في الماء إذ قال جل جلاله : ﴿ **وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاتَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ** ﴾[3] ، ووجه الاستدلال من هذه الآية على

---

(١) انظر ص ٣٠ من هذا البحث .

(٢) بهجت المجالس ١/١٤٢ .

(٣) سورة هود : ٤٢ .

بطلان مازعم به ... من التوكل وعدم الخوف وهو الخوف الطبيعي من جميع الأشياء الضارة المضرة التي خلقها الله بحكمة بالغة لمصلحة عظيمة ، والآية هذه تنص على خوف نوح عليه السلام من غرق ابنه فدعاه لاتخاذ الأسباب المشروعة لانقاذ نفسه من الموت إلاّ إنه بكفره وطغيانه لم يلب دعوة أبيه إذ قال جل وعلا : **﴿ قَالَ سَآوِيْ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِيْ مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِيْنَ ﴾**[1] .

والآية هذه قصة تنص نصاً صريحاً عن أن ابن نوح عليه السلام كان أكثر فهماً وأشد تمسكاً بالأسباب المشروعة بقوله الذي نقله الله تعالى في كتابه : **﴿ سَآوِيْ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾** ، وفي ذلك رد بليغ على هؤلاء الصوفية الذين ينكرون الأسباب و لم يكن ابن نوح مختلفاً مع أبيه في هذا الباب ، وإنما كان اختلافهما في كيفية اتخاذ الأسباب ، ثم يوضح الحق تبارك وتعالى في هذه السورة موقف نوح عليه السلام من حب ابنه إذ قال جل وعلا : **﴿ وَنَادَى نُوْحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِيْنَ ﴾**[2] هكذا اتخذ سبباً آخر وسيلة نافعة في نظره عليه السلام لإنقاذ ابنه بدعائه وتضرعه أمام ربه جل وعلا فقال تعالى : **﴿ قَالَ يَا نُوْحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِي مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُوْنَ مِنَ الْجَاهِلِيْنَ ﴾**[3] . فلم ينكر عليه جل وعلا الدعاء والإنابة إليه إنما أنكر عليه عدم علمه بأنه غير صالح .

---

(١) سورة هود : ٤٣ .

(٢) سورة هود : ٤٥ .

(٣) سورة هود : ٤٦ .

ونفس القصة ذكرها الله تعالى في سورة هود في آية سابقة باتخاذ الأسباب الضرورية للحياة الدنيوية السعيدة ؛ إذ قال جل وعلا آمراً نوح عليه الصلاة والسلام بأن يصنع الفلك ، قال تعالى : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾[1] ، هيهات هيهات أين عقول هؤلاء الذين قالوا بالتوكل على الله بدون اتخاذ الأسباب)[2] .

فكيف لايفعل الأسباب لاكتساب مايعينه على طاعة الله وعبادته ويمنعه من سؤال الناس ، ويأكل من عمل يده الذي هو أفضل مايصيبه الإنسان ويأكله ، كما قال النبي ﷺ : « ما أكل أحدٌ قط طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإنّ نبي الله داود كان يأكل من عمل يده »[3] .

قال ابن حجر رحمه الله : (وفي الحديث أن التكسب لايقدح في التوكل)[4] .

كما أن العمل وفعل الأسباب للحصول على الرزق سبب للغنى عما في أيدي الناس في عدم الحاجة إليهم أو سؤالهم ، والرسول ﷺ أشار إلى ذلك بقوله : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي الجبل فيجيء بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيستغني بها خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه »[5] .

---

(١) سورة هود : ٣٧ .

(٢) التصوف في ميزان البحث والتحقيق لعبدالقادر السندي ص ١٠١ - ١٠٣ .

(٣) سبق تخريجه ص ٢٩ .

(٤) فتح الباري ٣٠٦/٤ . المطبعة السلفية .

(٥) أخرجه البيهقي في كتاب الآداب ، باب الرغبة في طلب الرزق والاستغناء به عن الناس ، والبخاري في الزكاة ، باب الاستعفاف عن المسألة ، وابن ماجه في الزكاة أيضاً ، باب كراهية المسألة ، وأحمد في المسند ١٦٧/١ .

لكن الذي ينبغي الحث عليه فعل الأسباب المشروعة أو المباحة واجتناب فعل الأسباب المحرمة أو المكروهة حتى يكون فعل الأسباب مشروعاً أو مباحاً ، ويكون الرزق حلالاً ، قال الله تعالى : ﴿ **فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ** ﴾[2] .

فالتوكل عند المسلم عمل وأمل مع هدوء قلب وطمأنينة نفس واعتقاد جازم أن ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن وأن الله لايضيع أجر من أحسن عملاً .

والمسلم إذ يؤمن بسنن الله في الكون فيعد للأعمال أسبابها المطلوبة لها ، ويستفرغ الجهد بإحضارها وإكمالها ، فلايعتقد أبداً أن الأسباب وحدها كفيلة بتحقيق الأغراض وإنجاح المساعي ، بل لايرى الأسباب أكثر من شيء أمر الله به يجب أن يطاع فيه كما يطاع في غيره مما يأمر به أو ينهى عنه ، أمّا الحصول على النتائج والفوز بالرغائب فقد وكل أمرهما إلى الله تعالى ؛ إذ هو القادر على ذلك دون غيره ، فكم من عامل كادح لم يأكل ثمرة عمله وكدحه ، وكم من زارع لم يحصد مازرع .

ولذلك وجب على العبد أن يكون توكله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله سبحانه وتعالى ، والله يقدر له من الأسباب ماشاء .

---

(١) سورة العنكبوت : ١٧ .

(٢) سورة الجمعة : ١٠ .

فإن عمل الأسباب واتبع الأمر والنهي دون التوكل على الله والاعتماد عليه ضل . كما حصل للقدرية المجوسية[1] .

وإن أعرض عن الأسباب و لم يعمل بها في أي من الأمور وتوكل على الله في تلك الأمور ضل أيضاً .

فالمؤمن إذن لابد أن يكون كما قال الله تعالى له : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[2] ، وكما قال : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[3] ، وكما قال سبحانه : عن شعيب عليه السلام : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[4] .

---

(١) هم : الذين قالوا بأن لا قدر ، وأول من قال ذلك : معبد الجهني ، المتوفى سنة ٨٠ هـ ، فهو الذي قال : (لا قدر والأمر أنف) أي : مستأنف لم يسبقه قدر . ثم تبعهم في ذلك المعتزلة أتباع واصل بن عطاء وغيرهم من الجهمية .

وسموا مجوسية لقولهم بإضافة الخير إلى الله والشر إلى غيره ، والله سبحانه خالق الخير والشر لايكون شيء منهما إلاّ بمشيئته ، وخلقه الشر شراً في الحكمة كخلقه الخير خيراً ، فالأمران مضافان إليه سبحانه خلقاً وإيجاداً وإلى العامل له عملاً .

وقولهم : يشبه قول المجوسية « الثانوية » الذين يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة . فصاروا ثانوية . [انظر : منهاج السنة ٣٦٢/١ ، والفتاوى ٣٦/١٢ - ٣٧] .

وفي الحديث الذي أخرجه أبو داود في السنة ، باب في القدر عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « القدرية مجوس هذه الأمة » وهو حديث منقطع ، وقد روى هذا الحديث عن ابن عمر من طرق ليس فيها شيء يثبت ، كما قاله المنذري في هامش سنن أبي داود .

(٢) سورة هود : ١٢٣ .

(٣) سورة الرعد : ٣٠ .

(٤) سورة هود : ٨٨ .

لابد أن يعبد الله باتباع الأوامر.واجتناب النواهي ويستعينه بذلك وبالدعاء وغيره ، ويتوكل على الله وحده ؛ فإنه نعم المتوكل عليه : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَيَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ ﴾(1) والنتائج مقدرة في قدره ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله ، فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن .

قال ابن كثير رحمه الله في الكلام حول قول الله تعالى : ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ ﴾(2) : (أي : لايرجون سواه ، ولايقصدون إلاّ إياه ، ولايلوذون إلاّ بجنابه ، ولايطلبون الحوائج إلاّ منه ، ولايرغبون إلاّ إليه ، ويعلمون أنه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك وحده لاشريك له ، ولامعقب لحكمه وهو سريع الحساب ؛ ولهذا قال سعيد بن جبير : التوكل على الله جماع الإيمان)(3) .

وقال سيد قطب رحمه الله بعد أن نقل كلام ابن كثير السابق عند كلامه عن هذه الآية : (وهذا هو إخلاص الاعتقاد بوحدانية الله ، وإخلاص العبادة له دون سواه ، فما يمكن أن يجتمع في قلب واحد : توحيد الله والتوكل على أحد معه سبحانه ، والذين يجدون في قلوبهم الاتكال على أحد أو على سبب يجب أن يبحثوا ابتداء في قلوبهم عن الإيمان بالله !)(4) .

ولايعاقب الله العبد على ماعلم سبحانه أن العبد يعمله حتى يعمله كما في الحديث :

---

(1) سورة الأنعام : ٥٩ .

(2) سورة الأنفال : ٢ .

(3) تفسير القرآن العظيم ٢/٢٨٦ .

(4) في ظلال القرآن ٣/١٤٧٦ .

« إنَّ الله عزوجل تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم به »[1] .

ولهذا أمر الله الناس بالعمل الصالح المسبب لدخول الجنة ، ومن ذلك الدعاء والاستعانة بالله ، وغير ذلك من الأسباب والسؤال من الأسباب التي ينال بها العبد مغفرة الله ورحمته ، وهداه ونصره ورزقه .

وما قدره الله وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم فإنما ذلك بأسباب فليس في الدنيا والآخرة شيء إلاّ بسبب ، والله خالق الأسباب والمسببات .

لكن الذي ينبغي أن يعلم ويعتقد أن مجرد الأسباب لايوجب حصول المسبب ، فإن المطر إذا نزل وبُذر الحب لم يكن ذلك كافياً في حصول النبات ، بل لابد من ريح مربية بإذن الله وماء يسقى به حتى ينبت وينمو بإذن الله ، وغير ذلك من الأسباب التي لابد منها حتى يحصل النبات ، فلابد من تمام الشروط وزوال الموانع ، وكل ذلك بقضاء الله وقدره ، فإذا لم يشأ الله حصول هذا النبات لم يحصل ولو توافرت الشروط وانتفت الموانع ، وكذلك حصول الولد لابد مع الأسباب وانتفاء الموانع من مشيئة الله وقدرته .

وهكذا كل شيء لابد فيه من فعل الأسباب مع تعليق حصوله على مشيئة الله وقدرته .

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان ، باب إذا حنثت ناسياً في الأيمان ، ومسلم في الإيمان ، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ، وابن ماجه في الطلاق ، باب طلاق المكره والناسي ، وأحمد في مواضع من المسند منها ٢/٢٥٥ .

فلايكون الالتفات للأسباب وحدها ؛ لأن ذلك شرك في التوحيد ، ولا محو الأسباب والاعتماد على المشيئة ، فالله قادر على أن يقول للشيء : كن فيكون ولكن من حكمته أن جعل لكل شيءٍ سبباً .

ولهذا قال بعضهم : الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع)[1] .

وقال الشيخ العثيمين : (وليس التوكل أن تعتمد على الله بدون فعل الأسباب فإن الاعتماد على الله بدون فعل الأسباب طعن في الله عزوجل ؛ لأنه ربط المسببات بأسبابها)[2] .

والنبي ﷺ قد أوضح ذلك في قوله : « لن يدخل أحداً عملُهُ الجنة . قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ ! . قال : ولا أنا ، إلاّ أن يتغمدني الله بفضل ورحمة ، فسددوا وقاربوا ... »[3] .

فمجرد العمل - فعل الأسباب - لايكفي ، ودخول الجنة بغير عمل لايحصل . فالعمل سبب لا مقابلة كما في مثل قوله تعالى : ﴿ **ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[4] فالباء سببية ، وليست للمقابلة كما يقال : اشتريت هذا بهذا .

فالأسباب وفعلها ليست عوضاً وثمناً كافياً في دخول الجنة ، بل لابد معها من عفو الله ورحمته .

---

(١) الفتاوى ٨/٧٠ .

(٢) المجموع الثمين ص ٥٧ . دار الوطن .

(٣) سبق تخريجه ص ١٠١ .

(٤) سورة النحل : ٣٢ .

وفي هذا ضل طائفتان من الناس :

١ – طائفة جعلت الأسباب كل شيء ، فيطلبون الجزاء من الله كما يطلب الأجير من المستأجر الأجر على فعله .

فهؤلاء متكلون على حولهم وقوتهم وعملهم ، ويظنون أنهم يطيعون الله بلا معونة ، وهذا شرك في التوحيد (وهم القدرية) .

الرد على القدرية :

ويمكن أن يرد عليهم بما يلي :

١ – أن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به حاجة إلى ذلك ، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً به ، ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم كما قال ﷺ فيما رواه عن ربه سبحانه في الحديث القدسي أنه قال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، ياعبادي كلكم ضالٌ إلاّ من هديتُهُ فاستهدوني أهدكم ، ياعبادي كلكم جائعٌ إلاّ من أطعمتُهُ فاستطعموني أطعمكم ، ياعبادي كلكم عار إلاّ من كسوتُهُ فاستكسوني أكسكم ، ياعبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ، ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئاً ، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان

مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلاّ كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، ياعبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلايلومنّ إلاّ نفسه »[1] .

والملك إذا أمر مملوكيه بأمر أمرهم لحاجته إليهم ، وهم فعلوه بقوتهم التي لم يخلقها لهم فيطالبون بجزاء ذلك ، والله تعالى غني عن العالمين فإن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ، وإن أساؤوا فلها ، لهم ماكسبوا وعليهم مااكتسبوا : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلعَبِيْدِ** ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ **لاَيُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾[3] .

٢ - أن الله تعالى مع غناه عن الخلق جميعاً ؛ خلقهم وأرسل إليهم الرسل ليبينوا لهم مايسعدهم ومايشقيهم ، ثم إنه هدى المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فمن عليهم بالإيمان والعمل الصالح .

فخلقه بفضله ، وإرساله الرسل بفضله ، وهدايته لهم بفضله ، وجميع ماينالون به الخيرات من قواهم وغير قواهم بفضله ، فكذلك الثواب والجزاء هو بفضله ، وإن كان أوجب ذلك على نفسه كما حرم الظلم على نفسه ووعد بذلك في قوله سبحانه : ﴿ **كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ﴾[4] ، وقال سبحانه : ﴿ **وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا**

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ، باب تحريم الظلم .

(٢) سورة فصلت : ٤٦ .

(٣) سورة البقرة : ٢٨٦ .

(٤) سورة الأنعام : ١٢ .

﴿ نَصْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴾[1] ... والخلق لايوجبون على الله شيئاً ، أو يحرمون عليه شيئاً بل هم أعجز من ذلك وأقل .

فكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، كما في الحديث القدسي السابق : « إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ... »[2] الحديث .

٣ – أن من أعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد ناظراً إلى القدر فقد ضل ، ومن طلب القيام بالأمر والنهي معرضاً عن القدر فقد ضل .

فالمؤمن كما قال الله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴾ ، ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ . يعبد الله اتباعاً للأمر ، ويستعينه إيماناً بالقدر .

٤ – أن من ظن أنه يطيع الله بلا معونة كما يزعم القدرية والمجوسية فقد جحد قدرة الله التامة ومشيئته النافذة وخلقه لكل شيء .

ومن ظن أنه إذا وفق وأُعين على مايريد ويسر له ذلك كان محموداً سواء وافق الأمر الشرعي أو خالفه فقد جحد دينه وكذب بكتبه ورسله ووعده ووعيده ، واستحق من غضبه وعقابه أعظم مايستحق الأول .

لأن العبد قد يريد مايرضاه ويحبه ويأمر به ويقرب إليه ، وقد يريد مايبغضه الله ويكرهه ويسخطه وينهى عنه ويعذب صاحبه ، فكل من هذين قد يسر له ذلك .

---

(١) سورة الروم : ١٢ .

(٢) أي : الحديث الذي أخرجه مسلم في البر والصلة ، باب تحريم الظلم .

الرد على بعض المتصوفة :

الطائفة الثانية : أعرضت عن الأسباب الشرعية ، والأعمال الصالحة واتكلت على عفو الله وفضله ورحمته وإحسانه وهؤلاء يؤول الأمر بهم إلى الكفر بكتب الله ورسله وشرعه .

وهؤلاء هم المتصوفة الذين يرون أنه لايبلغ درجة التوكل إلاّ من ترك السعي في طلب الرزق .

وهذا غلو منهم في التوكل بقطع الأسباب ، وقد اعتبروا من يأخذ بالأسباب غير متوكل على الله عزوجل .

وهذا الضلال بسبب قلة علمهم وفقههم في الشريعة ، وهؤلاء القوم بهذا القول يجعلون التوكل من باب المعارف والعلوم ، فيقولون : هو علم القلب بكفاية الرب مع سكون الحركة .

ونحن نقول لهؤلاء :

التوكل من الأسباب المعنوية القوية لتحقيق المطلوب وقضاء الله المصالح لكن على المؤمن أن يضم إليه ماتيسر له من الأسباب الأخرى ، سواء كانت من العبادات كالدعاء ، والصلاة والصدقة وصلة الأرحام أم كانت من الماديات التي جرت سنة الله بترتيب مسبباتها عليها كالحذر من أن يقذف الإنسان نفسه في بئر أو حوض سباحة أو نهر وهو لايجيد السباحة والعوم أو المخاطرة بالنفس في حركة رياضية لم يتدرب عليها أو يترك استعمال قاتل الحشرات ويعرض نفسه لها أو يترك باب البيت مفتوحاً دون إغلاق فتضيع أو تسرق محتوياته ، ونحو ذلك اقتداء برسول

الله ﷺ فإنه خير المتوكلين ، وكان يأخذ الأسباب الأخرى المناسبة مع كمال توكله على الله تعالى .

فمن ترك الأسباب الأخرى مع تيسرها واكتفى بالتوكل فهو مخالف لهدي رسول الله ﷺ ويسمى توكله عجزاً لاتوكلاً شرعياً[1] .

روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن عوف بن مالك أن النبي ﷺ قضى بين رجلين فقال المقضي عليه لما أدبر : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال رسول الله ﷺ : « ردوا عليّ الرجل ؟ فقال : ماقلت ؟ . قال : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل . فقال رسول الله ﷺ : إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل : حسبي الله ونعم الوكيل »[2] والحديث صحيح .

وقد سئل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى عن رجل جلس في بيته وفي المسجد وقال : لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي . فقال : هذا رجل جهل العلم . فقد قال النبي ﷺ : « وإن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي »[3] . وقال : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » . فذكر أنها تغدو وتروح في طلب الرزق ، قال : « وكان الصحابة يتجرون ويعملون

---

(١) انظر : فتوى اللجنة الدائمة : فتاوى إسلامية ٥٤/١ - ٥٥ .

(٢) سبق تخريجه ص ٥٢ .

(٣) أخرجه البخاري معلقاً عن ابن عمر رضي الله عنه : في الجهاد ، باب ماقيل في الرماح ، والإمام أحمد في المسند ٥٠/٢ من طريقين عن ابن عمر ، وفي ص ٩٢ ، وسنده حسن ، وصححه العراقي في تخريج الإحياء ، وحسنه الحافظ في فتح الباري ، وله شواهد كما ذكر الأرناؤوط في هامش زاد المعاد ٣٥/١ .

في نخيلهم ، والقدوة بهم »[1] انتهى .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّل عَلَى ا للهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل ؛ لأنه تبارك وتعالى ذكر التقوى ثم ذكر التوكل كما قال سبحانه : ﴿ وَاتَّقُوْا ا للهَ وَعَلَى ا للهِ فَلْيَتَوَكَّل الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾[2] ، فجعل التقوى التي هي قيامٌ بالأسباب المأمور بها توكلاً فحينئذٍ إذا توكل على ا لله فهو حسبه ، فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض ، وإن كان مشوباً بنوع من التوكل .

فلاينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً ولا عجزه توكلاً[3] .

لأن من سنة النبي ﷺ بل وكل الأنبياء والرسل صلوات ا لله عليهم السعي فيما لابد منه من المطعم والمشرب والتحرز من العدو .

وقولهم هذا وفعلهم في ترك الأخذ بالأسباب يخالف شرع ا لله تعالى ، وقدح فيه ، فالقرآن والسنة مملوءان بالأمر بفعل الأسباب وتعاطيها ، كما سيأتي إن شاء ا لله .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه ا لله تعالى : (وهذا الذي يقولونه يخالف مايدعون من الإحسان إلى عباد ا لله) .

قال شيخ الإسلام : (فأين الإحسان إلى عباد ا لله من إيذائهم بالسؤال والشحاذة

---

(١) فتح الباري ١١/٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٢) سورة المائدة : ١١ .

(٣) انظر : تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ٥٠٢ ، المكتب الإسلامي .

لهم وأين التوحيد للخالق بالرغبة إليه والرجاء له ، والتوكل عليه ، والحب له من الاشراك به بالرغبة إلى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه وأن يحب كما يحب الله ؟ ، وأين صلاح العبد في عبودية الله والذل له ، والافتقار إليه من فساده في عبودية المخلوق والذل له والافتقار إليه ؟)[1] .

ولهذا قال الشيخ عبدالقادر عفا الله عنه[2] : (كثير من الرجال إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا وأنا انفتحت لي فيه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والولي من يكون منازعاً للقدر لا من يكون موافقاً له .

وهذا الذي قال الشيخ تكلم به على لسان المحمدية أي : أن المسلم مأمور بأن يفعل ما أمر الله به ، ويدفع ما نهى الله عنه ، وإن كانت أسبابه قد قدرت فيدفع قدر الله بقدر الله .

وفي الترمذي : قيل : يارسول الله : أرأيت أدوية نتداوى بها ورقىً نسترقي بها وتقىً نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ . فقال : « هن من قدر الله »[3] .

وأمَّا من قال : إن التوكل بترك السبب فقد طعن في سنة رسول الله ﷺ ؛ لأن الله عزوجل يقول : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً ﴾[4] . فالغنيمة اكتساب .

---

(١) الفتاوى ١/١٩٥ .

(٢) انظر : الفتاوى ٢/٤٥٨ - ٤٥٩ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/٤٢١ ، والترمذي في الطب ، باب ماجاء في الرقى والأدوية . وقال : (هذا حديث حسن صحيح) ، وابن ماجه ، الحديث الثاني من كتاب الطب ، وفي سنده مجهول وباقي رجاله ثقات ، والحاكم ٤/١٩٩ ، وصححه ووافقه الذهبي .

(٤) سورة الأنفال : ٦٩ .

وقال تعالى : ﴿ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[1] . وهذا عمل .

وأمَّا من عرف التوكل وحقيقته وتفاصيله كمعرفته للعلوم وحقائقها وتفاصيلها دون العمل بها . فهذا غير متوكل - وإن ظن أنه كذلك - فإن وراء العلم به . العمل ، فالعمل هو اتخاذ الأسباب المأمور بها أو المباحة مع الثقة با لله لا بها .

قال ابن القيم رحمه ا لله تعالى : (ومنه اشتباه علم التوكل بحال التوكل . فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفاصيله فيظن أنه متوكل ، وليس من أهل التوكل ، فحال التوكل أمر آخر من وراء العلم به ...)[2] .

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه ا لله : (... إن ا لله قد أمر في عدة آيات بالقيام بجميع الأسباب النافعة والسعي في كل وسيلة فيها صلاح الأحوال ، كما أمر في عدة آيات بالتوكل عليه والاعتماد عليه وعلى حوله وقوته ، فبالقيام بهذين الأصلين العظيمين تقوم الأمور كلها وتتم وتكمل ، والنقص والقصور إنما يجيء من الاخلال بهما أو بأحدهما .

فالتوكل الذي لايصحبه جد واجتهاد ليس بتوكل وإنما هو إخلاد إلى الكسل وتقاعد عن الأمور النافعة كما أن العمل بالأسباب من دون اعتماد وتوكل على مسببها واستعانة به مآله الخسارة والزهو والإعجاب بالنفس والخذلان ، فالجمع

---

(١) سورة الأنفال : ١٢ .

(٢) مدارج السالكين ١٢٥/٢ .

بين التوكل على الله وبين الاجتهاد في فعل الأسباب هو الذي حث عليه الدين ، وهو الذي كان عليه سيد المرسلين وبهما يتحقق الإيمان وتقوى دعائم الدين وبها تقوى معنوية المسلمين حيث اعتمدوا على رب العباد وأدوا مافي مقدورهم من جد واجتهاد)[1] .

وقال ابن حجر رحمه الله : (والحق أن من وثق بالله تعالى وأيقن أن قضاءه عليه ماض لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب إتباعاً لسنته وسنة رسوله ، فقد ظاهر ﷺ في الحرب بين درعين ، ولبس على رأسه المغفر وأقعد الرماة على فم الشعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وهاجر هو وتعاطى أسباب الأكل والشرب ، وادخر لأهله قوتهم و لم ينتظروا أن ينزل عليه من السماء . وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك ، وقال للذي سأله : أعقل ناقتي أو أدعها ؟ . قال : « اعقلها وتوكل » ، فأشار إلى أن الاحتراز لايدفع التوكل . والله أعلم)[2] .

وعمل الأسباب وفعلها هو جزء التوكل ، فمن تعاطى الأسباب مع توكله على الله وحده ، فقد كمل توكله ، ومن ترك الأسباب نقص توكله ، بل لم يحقق التوكل على الله ، المطلوب منه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (فهذا حال النبيين وأتباعهم ، وهو أن

---

(١) وجوب التعاون بين المسلمين لعبدالرحمن السعدي ص ١٨ ، ١٩ .

(٢) فتح الباري ٢١٢/١٠ . المطبعة السلفية .

يفنى بعبادته عن عبادة ماسواه ، وبحبه عن حبه ماسواه ، وبخشيته عن خشية ماسـواه ، وطاعته عن طاعة ماسواه ، وبالتوكل عليه عن التوكل على ماسواه ، فهذا تحقيق توحيد الله وحده لاشريك له ، وهو الحنيفية ملة إبراهيم .

ويدخل في هذا : أن يفنى عن اتباع هواه بطاعة الله ، فلايحب إلاّ للهِ ، ولايبغض إلاّ للهِ ، ولا يعطى إلاّ للهِ ، ولايمنع إلاّ للهِ ، فهذا هو الفناء الديني الشرعي ، الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتبه .

ومن قال :

فارفع بحقك إني من البين ....

بمعنى أن يرفع هو نفسه فلايتبع هواه ولايتوكل على نفسه وحوله وقوته ، بل يكون عمله لله لا لهواه ، وعمله بالله وبقوته لا بحوله وقوته ، كما قال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، فهذا حق محمود .

فهذا كما يحكى عن أبي يزيد[1] أنه قال : (رأيت رب العزة في المنام فقلت : خداي كيف الطريق إليك ؟ قال : اترك نفسك وتعال أي : اترك اتباع هواك والاعتماد على نفسك ، فيكون عملك لله واستعانتك بالله ، كما قال تعالى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[2])[3] .

---

(١) هو : طيفور بن عيسى بن سروشان البسطامي ، كان جده مجوسياً فأسلم ، زاهد عابد منسوب إليه أقوال مخرجة من الملة مثل قوله : سبحاني سبحاني أنا ربي الأعلى ، مات سنة ٢٦١ هـ ، وقيل : سنة ٢٣٤ هـ . انظر ترجمته في : حلية الأولياء ٣٣/١٠ - ٤٠ ، طبقات الصوفية ص ٦٧ ، ووفيات الأعيان ٥٣١/٢ .

(٢) سورة هود : ١٢٣ .

(٣) مجموع الفتاوى ٣١٤/٢ - ٣١٥ .

مناقشة شبه الصوفية :

(١) – ومن شبههم الشرعية :

قصة إبراهيم عليه السلام مع ولده إسماعيل وأمه هاجر :

وفيها : أن إبراهيم عليه السلام تركهما بوادٍ غير ذي زرعٍ ، ولما هم بالرحيل نادته هاجر وقالت له : إلى من تدعنا ؟ فلم يجب ، ثم قالت : آ الله أمرك بذلك ؟ . قال : نعم . قالت : رضيت با الله .

والجواب : أنه لاوجه للتعليل بهذه القصة ؛ لأن فيها أموراً تبعدها عما قالوا به من التواكل :

أولها : أن مافعله إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان بوحي من ا لله تعالى ، وإبراهيم لايسعه إلاّ تنفيذ الوحي .

ثانيها : أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ترك لزوجته وولده جراباً فيه تمر وسقاءً فيه ماء .

ثالثها : مع علم إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأن هذا وحي من ا لله وأن ا لله الذي أمره بذلك لايضيعهما : أخذ يرجو ربه في الرحمة بهما والتفضل عليهما .

قال ا لله تعالى على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام : ﴿ **رَبَّنَا إِنِّيْ أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِيْ زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيْمُوْا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِيْ إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُوْنَ** ﴾[1] .

---

(١) سورة إبراهيم : ٣٧ .

رابعها : لم تقعد هاجر مع رضاها بقضاء الله ومع توكلها عليه ومع ثقتها بأنه سبحانه لن يضيعها وولدها بل سعت عندما احتاجت إلى الماء حتى هداها الله إلى بئر زمزم .

(٢) - ومن شبههم العقلية :

أن الأخذ بالأسباب يتنافى مع حقيقة التوكل .

فقالوا : إن التوكل لايثبت لأهله إلا بترك الحركة في طلب الرزق ، والقعود عن الاضطراب وترك العمل بالأسباب وأن فعل شيء من ذلك قادح في التوكل .

ومما يدل على بطلان هذا الرأي :

١ - أن الله تعالى أمر عباده بالسعي في طلب الرزق فقال : ﴿ **هُوَ الَّذِيْ جَعَلَ لَكُم الأَرْضَ ذَلُوْلاً فَامْشُوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوْا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُوْرُ** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوْا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوْا مِنْ فَضْلِ اللهِ** ﴾[2] ، كما أمر المجاهدين إذا صلوا صلاة الخوف أن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم في قوله سبحانه : ﴿ **وَلْيَأْخُذُوْا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ** ﴾[3] .

٢ - أن رسول الله ﷺ حث على السعي في طلب الرزق ، وهذا من سنته ﷺ : فقال : « ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده ... »[4] .

---

(١) سورة الملك : ١٥ .

(٢) سورة الجمعة : ١٠ .

(٣) سورة النساء : ١٠٢ .

(٤) سبق تخريجه ص ٧٨ .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده »[1] .

وقال ﷺ : « ... جعل الله رزقي تحت ظل رمحي ... »[2] .

٣ – وكان أصحاب رسول الله يتجرون في تجار الشام ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان أصحاب رسول الله عمال أنفسهم ... »[3].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح الطريق فاستبقوا الخيرات ولاتكونوا عيالاً على المسلمين »[4] .

قال ابن القيم رحمه الله : (وطائفة قدحوا في أربابها – أصحاب الأسباب – وجعلوهم مخالفين للشرع والعقل مدعين لأنفسهم حالاً أكمل من حال رسول الله ﷺ وأصحابه ؛ إذ لم يكن فيهم أحد قط يفعل ذلك ، ولا أخل بشيء من الأسباب ، فقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين يوم أحد و لم يحضر الصف قط عرياناً كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة ، واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه يدله على طريق الهجرة ، وقد هدى الله به العالمين وعصمه من الناس أجمعين ، وكان يدخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين ، وكان إذا سافر في جهاد أو حج

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٩ .

(٢) سبق تخريجه ص ١٦٢ .

(٣) أخرجه البخاري في البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده .

(٤) أورده ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٢٨٣ ، والبيهقي في شعب الإيمان في شعبة التوكل .

أو عمرة حمل الزاد والمزاد وجميع أصحابه - وهم أولو التوكل حقاً - وأكمل المتوكلين بعدهم من شم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة ، أو لحق أثراً من غبارهم ، فحال النبي ﷺ وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها وبها يعلم صحيحها من سقيمها)[1] ا . هـ .

٣ - ومنها :

أن الرزق المضمون هو الغذاء والقوام ، فلايمكن طلبه إذ هو شيء من فعل الله بالعبد كالحياة والموت لايقدر العبد على تحصيله ولا دفعه .

والمقسوم من الأسباب لايلزم العبد طلبه ؛ إذ لاحاجة للعبد إلى ذلك ، إنما حاجته إلى المضمون وهو من الله وفي ضمان الله ، والله يفعل بالسبب وبغير السبَب ، فمن أين يلزمنا طلب السبب وقد ضمن الرزق ضماناً مطلقاً من غير شرط الطلب والكسب : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾[2] .

ولايصح للعبد طلب مالايعرف مكانه ؛ إذ لايعرف أي سبب منها رزقه بتناوله .

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه :

١ - أن الكسب يكون تارة واجباً وتارة مستحباً وتارة مباحاً وتارة حراماً وتارة مكروها ، فلايجوز بأن يقال : إنه لايلزم العبد طلبه .

---

(١) مدارج السالكين ٢/١٣٤ - ١٣٥ .

(٢) سورة هود : ٦ .

٢ – أن السبب الذي أمر الله به أمر إيجاب أو أمر استحباب هو عبادة الله وطاعته له ولرسوله ، والله فرض على العباد أن يعبدوه ويتوكلوا عليه ، كما قال : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[1] .

٣ – أن الله لم يأمره بالتوكل فقط ، بل أمر مع التوكل بعبادته وتقواه التي تتضمن فعل ما أمر وترك ماحذر ، فمن ظن أنه يرضي ربه بالتوكل بدون فعل ما أمر كان ضالاً كما أن من ظن أنه يقوم بما يرضي الله عليه دون التوكل كان ضالاً بل فعل العبادة التي أمر الله بها فرض .

٤ – أنه إذا أطلق لفظ العبادة « الأسباب المباحة أو الواجبة » دخل فيها التوكل ، فلاتوكل من غير عبادة كما أنه لا عبادة من غير توكل ، كما في حديث « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وسببه ، وقد جمع الله بين العبادة والتوكل في عدة مواضع من القرآن الكريم ، منها : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[1] ، وقوله سبحانه : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[3] ، فالتوكل لايغني عن الأسباب المأمور بها والأسباب المأمور بها لاتغني عن التوكل .

قال شيخ الإسلام : (فعلى العبد أن يكون قلبه معتمداً على الله لا على سبب من الأسباب ، والله ييسر له من الأسباب مايصلحه في الدنيا والآخرة ، فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها فعلها مع التوكل على الله كما يؤدي الفرائض

---

(١) سورة هود : ١٢٣ .

(٢) سورة الرعد : ٣٠ .

(٣) سورة هود : ٨٨ .

وكما يجاهد العدو ، ويحمل السلاح ، ويلبس جنة الحرب ، ولايكتفي في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم)[1] .

٥ – أن الله خلق العالمين بأسباب وشرع لهم أسباباً يطلبون بها مغفرته ورضوانه في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فمن زعم أنه بمجرد توكله يحصل له مطلوبه من دون فعل الأسباب ، وأن الأسباب لاتتوقف على الأسباب التي جعلها الله أسباباً لها ، فقد أخطأ ، فالله سبحانه وإن كان قد ضمن للعبد رزقه وهو لابد أن يرزقه ما عُمِّر ، فهذا لايمنع أن يكون ذلك الرزق المضمون له أسباب تحصل من فعل العبد وغير فعله .

كما في قوله تعالى لمريم : ﴿ **وَهُزِّيْ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً** ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوْا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوْا مِنْ فَضْلِ اللهِ** ﴾[3] .

٦ – أن قولهم : لايمكن طلب الرزق كما لايمكن طلب الحياة والموت . فليس الأمر كما قالوا ، بل ما فعل الله بأسباب يمكن طلبه بأسباب .

فالموت يمكن طلبه بأسباب ويمكن الحذر منه ودفعه بالأسباب التي قدرها الله . ولذلك إذا أراد المسلم موت عدوه عمل الأسباب لقتله .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٥٢٨/٨ – ٥٢٩ .

(٢) سورة مريم : ٢٥ .

(٣) سورة الجمعة : ١٠ .

﴿ وَاقْتُلُوْهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوْهُمْ ﴾[1] ، ﴿ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوْهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِيْن ﴾[2] .

وإحدى أهداف المسلم من الجهاد في سبيل الله « الشهادة » والله سبحانه وتعالى قال أيضاً : ﴿ وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ ﴾[3] .

٧ – أن قولهم : إن الله يفعل بسبب وبغير سبب ، فمن أين يلزمنا طلب السبب . غير صحيح ، فجميع مايخلقه الله ويقدره إنما يخلقه ويقدره بأسباب . لكن من الأسباب ماليس في قدرة العبد ، ومنها ماهي في قدرته ، ومنها مايفعله ومنها مالايفعله[4] .

٨ – أن قولهم : إن الله ضمن ضماناً مطلقاً . لايمنع وجوب الأسباب على مايجب ، فإن في ضمنه رزق الأطفال والبهائم والزوجات ، ومع هذا فيجب على الرجل أن ينفق على ولده وبهائمه وزوجته ، بإجماع المسلمين ونفقته على نفسه أوجب عليه[5] .

٩ – أمَّا قولهم : كيف يطلب مالايعرف مكانه ؟ .

فجوابه : أنه يفعل السبب المأمور به ويتوكل على الله ، فيما ليس من قدرته .

---

(١) سورة البقرة : ١٩١ .

(٢) سورة البقرة : ١٩١ .

(٣) سورة البقرة : ١٧٩ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ٥٣٤/٨ .

(٥) انظر : مجموع الفتاوى ٥٣٥/٨ .

وهذا مثل الزارع للأرض فإنه يشقها ويلقي الحب ويتوكل على الله في إنزال المطر وإنبات الزرع ... ، ونحو ذلك .

فالعبد يطلب من الله رزقه وكفايته من غير تعيين .

الشبهة الثالثة : أنهم يقولون : إن الأنبياء والأولياء لم يطلبوا رزقاً .

والجواب : أن الأمر ليس كما قالوا بل عامة الأنبياء كانوا يفعلون أسباباً للحصول على الرزق ، كما في الحديث أنه قال : « ... وجعل رزقي تحت ظل رمحي »[1] .

وقال ﷺ : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده ... »[2] .

قال ابن الجوزي رحمه الله : (وقد بينا أن التوكل فعل القلب فلاينافي حركة الجوارح ، ولو كان كل كاسب ليس بمتوكل لكان الأنبياء غير متوكلين ، فقد كان آدم عليه السلام حراثاً ، ونوح وزكريا نجارين ، وإدريس خياطاً ، وإبراهيم ولوط زارعين ، وصالح تاجراً ، وكان سليمان يعمل الخوص ، وداود يصنع الدرع ويأكل من ثمنه ، وكان موسى وشعيب ومحمد رعاة صلوات الله عليهم أجمعين ، وقال نبينا ﷺ : « كنت أرعى غنماً لأهل مكة بالقراريط »[3])[4] .

---

(١) سبق تخريجه في ص ١٠١ .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٤) سبق تخريجه ص ٧٨ .

وخيار الأولياء أبو بكر وعمر أفضل المتوكلين بعد نبينا وكان عامتهم يرزقهم الله بأسباب يفعلونها .

قال ابن الجوزي رحمه الله : (وكان أبو بكر وعثمان وعبدالرحمن بن عوف وطلحة رضوان الله تعالى عليهم بزازين وكذلك محمد بن سيرين وميمون بن مهران بزازين ...)[1] .

* * *

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٨٢ .

السَّعْيُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ لاَيُنَافِي التَّوَكُّلْ

الأسباب التي يطلب بها الزرق الحلال ستة أنواع :

١ - الجهاد : أعلاها كسب نبينا محمداً ﷺ حيث قال : « جعل الله رزقي تحت ظل رمحي »[١] .

فجعل الله رزق نبيه ﷺ في كسبه لفضله وخصه بأفضل أنواع الكسب وهو أخذ الغلبة والقهر لشرفه .

قال ابن حجر رحمه الله : (وفي الحديث إشارة إلى فضل الرمح وإلى حل الغنائم لهذه الأمة وإلى أن رزق النبي ﷺ جعل فيها لا في غيرها من المكاسب ؛ ولهذا قال بعض العلماء : إنها أفضل المكاسب)[٢] .

٢ - الأعمال اليدوية : أكل الرجل من عمل يده كما قال ﷺ : « ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ... »[٣] .

وقال ﷺ : « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه »[٤] .

---

(١) سبق تخريجه ص ١٠١ .

(٢) فتح الباري ٩٨/٦ .

(٣) سبق تخريجه ص ٢٩ .

(٤) أخرجه البخاري في البيوع ، باب كسب الرجل عمله بيده ، وبنحوه أخرجه الترمذي في الزكاة ، باب ماجاء في النهي عن المسألة ، والنسائي في الزكاة ، باب فضل من لايسأل الناس شيئاً ، والإمام أحمد في المسند ٢٤٣/٢ ، ٣٠٠ .

٣ - التجارة :

وكانت جل عمل الصحابة رضوان الله عليهم ، وخاصة المهاجرين . قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ وَاذْكُرُوا الله كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَاعِندَ الله خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَالله خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[1] .

وأخرج البخاري[2] وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه : « إنكم تقولون : إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ ، وتقولون : مابال المهاجرين والأنصار لايحدثون عن رسول الله ﷺ بمثل حديث أبي هريرة ؟ وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصفق[3] بالأسواق وكنت ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني ، فأشهد إذا غابوا ، وأحفظ إذا نسوا ، وكان يشغل إخوتي من الأنصار عمل أموالهم ، وكنت امرءاً مسكيناً من مساكين الصفة أعي حين ينسون ... » الخ .

وعن أنس رضي الله عنه قال : « قدم عبدالرحمن بن عوف المدينة فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري ، وكان سعد ذا غنى ، فقال لعبدالرحمن : أقاسمك مالي نصفين وأزوجك . قال : بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلوني على السوق ، فما رجع حتى استفضل[4] أقطاً وسمناً فأتى به أهل منزله ، فمكثنا

---

(١) سورة الجمعة : الآيتان الأخيرتان .

(٢) أول كتاب البيوع ، وبغير هذا اللفظ مسلم في فضائل الصحابة ، باب : من فضائل أبي هريرة الدوسي رضي الله عنه ، وأحمد في المسند ٢/٢٤٠ .

(٣) الصفق بالأسواق : التبايع . انظر : فتح الباري ٤/٢٨٩ .

(٤) استفضل : أصاب أقطاً وسمناً . كما هو اللفظ الثاني للبخاري في النكاح ، باب الوليمة ولو بشاة .

يسيراً - أو ماشاء الله - فجاء وعليه.وضر من صفرة[1] ، فقال له النبي ﷺ : مهيم[2] ؟ . قال : يارسول الله تزوجت امرأة من الأنصار . قال : ماسُقْتَ لها ؟ . قال : نواة من ذهب - أو وزن نواة من ذهب - قال : أولم ولو بشاة »[3] .

فقد كان القوم رضي الله عنهم يتبايعون ويتجرون ، ولكنهم إذا نابهم حق من حقوق الله لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله حتى يؤده إلى الله . ﴿ رِجَالٌ لاَّتُلْهِيْهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُوْنَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيْهِ الْقُلُوْبُ وَالأَبْصَارُ ۞ لِيَجْزِيَهُم اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوْا وَيَزِيْدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[4] .

٤ - الحرث والغرس :

قال قيس بن مسلم[5] عن أبي جعفر[6] قال : « ما بالمدينة أهل بيت هجرة إلاّ

---

(١) الصفر : صفرة الخلوق ، وهو طيب يصنع من زعفران وغيره .

(٢) كلمة يمانية . معناها : مالك ؟ ، أو ماشأنك ؟ ، أو ماهذا ؟ كما في لفظ الترمذي .

(٣) أخرجه البخاري في البيوع ، الباب الأول ، وبعضها في صحيح مسلم كتاب النكاح ، باب الصداق حديث رقم ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، وأبو داود في النكاح ، باب قلة المهر ، والترمذي في النكاح ، باب ماجاء في الوليمة ، والنسائي في النكاح ، باب التزويج على نواة من ذهب ، وابن ماجه في النكاح ، باب الوليمة .

(٤) سورة النور : ٣٧ ، ٣٨ .

(٥) هو : أبو عمرو قيس بن مسلم الجدلي العدواني الكوفي من قيس عيلان ، من الثقات في رواية الحديث ، وهو من شيوخ البخاري ، قال البخاري ، مات سنة عشرين ومائة . انظر ترجمته في : تهذيب التهذيب ٨/٤٠٣ - ٤٠٤ .

(٦) هو : أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الباقر ، كان كثير الحديث ، وأخذ = =

يزرعون على الثلث والربع ، وزارع علي ، وسعد بن مالك ، وعبدالله بن مسعود ، وعمر بن عبدالعزيز ، والقاسم ، وعروة ، وآل أبي بكر ، وآل عمر ، وآل علي ، وابن سيرين ، ... » الخ[1] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلاّ كان له به صدقة »[2] .

٥ – إقراء القرآن وتعليمه والرقية به :

فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله »[3] .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : انطلق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب ، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم ، فلدغ سيد ذلك الحي ، فسعوا له بكل شيء ، لاينفعه شيء . فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء ،

= = عن أبيه وجديه الحسن والحسين ، وهو من ثقات التابعين ، مات سنة ١١٤ هـ . انظر ترجمته في : تهذيب التهذيب ٩/٣٥٠ – ٣٥٢ ، والأعلام للزركلي ٦/٢٧٠ .

(١) صحيح البخاري كتاب الحرث والمزارعة ، باب المزارعة بالشطر ونحوه .

(٢) أخرجه البخاري في أول الحرث والمزارعة ، ومسلم في المساقاة ، باب فضل الغرس والزرع ، والترمذي في الأحكام ، باب ماجاء في فضل الغرس ، والدارمي في البيوع ، باب فضل الغرس ، والإمام أحمد في المسند ١٤٧/٣ ، ومواضع أخرى .

(٣) أخرجه البخاري في الطب ، باب الشروط في الرقية بفاتحة الكتاب .

فأتوهم فقالوا : يا أيها الرهط إن سيدنا لدغ وسعينا له بكل شيء لاينفعه ، فهل عند أحد منكم من شيء ؟ فقال بعضهم : نعم وا لله ، إني لأرقي ، ولكن وا لله لقد استضفناكم فلم تضيفونا ، فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلاً ، فصالحوهم على قطيع من الغنم ، فانطلق يتفل عليه ويقرأ ﴿ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ ﴾ فكأنما نشط من عقال ، فانطلق يمشي ومابه قَلَبة . فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه . فقال بعضهم : اقتسموا . فقال الذي رقى : لاتفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ فنذكر له الذي كان فننظر مايأمرنا ، فقدموا على رسول ا لله ﷺ فذكروا له ، فقال : ومايدريك أنها رقية ؟ ثم قال : قد أصبتم ، اقسموا واضربوا لي معكم سهماً فضحك النبي ﷺ »[1] .

٦ - الأخذ بنية الأداء إذا احتاج :

عن أبي هريرة رضي ا لله عنه عن النبي ﷺ قال : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى ا لله عنه ، ومن أخذ يريد اتلافها أتلفه ا لله »[2] .

أمرنا ا لله بابتغاء الرزق لما في قوله تعالى : ﴿ فَابْتَغُوْا عِنْدَ ا للهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوْهُ ﴾[3] . وهذا أمر بابتغاء الرزق عنده لا عند غيره ممن لايملك رزقاً من

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة ، باب مايعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب ، ومواضع أخرى ، ومسلم في السلام ، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار ، والترمذي في الطب ، باب أخذ الأجرة على التعويذ ، وابن ماجه في التجارات ، باب أجر الراقي ، وأحمد في المسند ٢/٣ .

(٢) أخرجه البخاري في الاستقراض ، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها ، وأخرج جزء منه ابن ماجه في الصدقات ، باب من أدان ديناً لم ينو قضاءه ، والإمام أحمد في المسند ٣٦١/٢ ، ٤١٧ .

(٣) سورة العنكبوت : ١٧ .

الأوثان والأصنام وغيرها ، كما في أول الآية : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ ا للهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُوْنَ إِفْكاً ﴾[1] .

قال ابن كثير رحمه ا لله : (وهذا أبلغ في الحصر كقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴾)[2] .

فطلب الرزق لاينبغي إلاّ من ا لله ، وقد أمر ا لله بطلب الرزق وفعل السبب والتوكل عليه في آن واحد .

وفعل هذه الأسباب ينبغي أن يصحب بالتوكل على ا لله تعالى ؛ لأن فعلها من غير التوكل اعتماد على غير ا لله تعالى .

وقال عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه : سمعت رسول ا لله ﷺ يقول : « لو أنكم توكلتم على ا لله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » .

عن سلام بن شرحبيل ، عن حبة وسواء ابني خالد قال : دخلنا على النبي ﷺ وهو يعالج شيئاً ، فأعناه عليه ، فقال : « لاتيأسا من الرزق ما تهززت رؤوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشر ، ثم يرزقه ا لله عزوجل »[3] .

---

(١) سورة العنكبوت : آية ١٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٠٧/٣ - ٤٠٨ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦٩/٣ ، وابن ماجه في الزهد ، باب التوكل واليقين ، وفي نسخة محمد فؤاد عبدالباقي : (في الزوائد : إسناده صحيح وسلام بن شرحبيل ذكره ابن حبان في الثقات ، ولم أر من تكلم فيه ، وباقي رجال الإسناد ثقات) ا . هـ .

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين حفظه الله : (... أن يتعلق بالسبب تعلقاً مجرداً لكونه سبباً فقط مع اعتماده الأصلي على الله ، فيعتقد أن هذا السبب من الله ، وأن الله لو شاء قطعه ولو شاء لأبقاه ، وأنه لا أثر للسبب في مشيئة الله عزوجل ، فهذا لاينافي التوحيد لا أصلاً ولا كمالاً .

ومع وجود الأسباب الشرعية الصحيحة ينبغي للإنسان أن لايعلق نفسه بالسبب بل يعلقها بالله ، فالموظف الذي يتعلق قلبه بمرتبه تعلقاً كاملاً مع الغفلة عن المسبب وهو الله ، فهذا نوع من الشرك ، أما إذا اعتقد أن المرتب سبب والمسبب هو الله سبحانه وتعالى ، فهذا لاينافي التوكل ، والرسول ﷺ كان يأخذ بالأسباب مع اعتماده على المسبب وهو الله عزوجل)[1] .

فالتوكل لاينافي السعي وفعل الأسباب ، فإن الطير تغدو في طلب رزقها ، والله سبحانه وتعالى قال : ﴿ **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِيْنٍ** ﴾[2] .

وفي حديث ثوبان رضي الله عنه النبي ﷺ : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه »[3] .

وفي حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « لن تموت نفس

---

(١) المجموع الثمين ١٤٩/٢ - ١٥٠ . دار الوطن .

(٢) سورة هود : ٦ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٧٧/٥ ، وابن ماجه في الفتن وفي الزوائد : إسناده حسن ، والحاكم في المستدرك ٤٩٣/١ ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي في التلخيص بهامش المستدرك : (صحيح) .

حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، خذوا ما حل ودعوا ماحرم »[1] .

وقصة أهل اليمن الذين كانوا يحجون ولايتزودون ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا سألوا الناس ؟ أنزل الله فيها قرآناً وأمر فيها بالتزود فقال : ﴿ **وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ** ﴾[2] .

وقد لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ناساً من أهل اليمن فقال : « من أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكلون . قال : بل أنتم المتكلون ، إنما المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله »[3] .

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى : (ولا أبله ممن يدعي العقل والعلم ويستسلم للبلاء إنما ينبغي أن تكون أعضاء المتوكل في الكسب وقلبه ساكن مفوض إلى الحق منع أو أعطي ؛ لأنه لايرى إلاّ أن الحق سبحانه وتعالى لايتصرف إلاّ بحكمة ومصلحة ، فمنعه عطاء في المعنى ، وكم زين للعجزة عجزهم وسولت لهم أنفسهم أن التفريط توكل فصاروا في غرورهم بمثابة من اعتقد التهور شجاعة والخور حزماً . ومتى وضعت أسباب فأهملت كان ذلك جهلاً بحكمة الواضع)[4] .

فالله قد أمر بالتوكل وأمر بالسعي في طلب الرزق فكلاهما عبادة يحبها الله

---

(١) أخرجه ابن ماجه في التجارات ، باب الاقتصاد في طلب المعيشة ، وقال في الزوائد : إسناده ضعيف .

(٢) سورة البقرة : ١٩٧ .

(٣) سبق تخريجه ص ٩٠ .

(٤) تلبيس إبليس ص ٢٨٠ .

ورسوله ﷺ كما قال سهل بن عبدا لله التستري : « ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان ، ومن طعن على الكسب فقد طعن على السنة »[1] .

قال ابن الجوزي رحمه ا لله : (وقد بينا أن التوكل فعل القلب فلاينافي حركة الجوارح ، ولو كان كل كاسب ليس بمتوكل لكان الأنبياء غير متوكلين ، فقد كان آدم عليه السلام حراثاً ، ونوح وزكريا نجارين ، وإدريس خياطاً ، وإبراهيم ولوط زارعين ، وصالح تاجراً ، وكان سليمان يعمل الخوص ، وداود يصنع الدرع ويأكل ثمنه ، وكان موسى وشعيب ومحمد رعاةً صلوات ا لله عليهم أجمعين ، وقال نبينا ﷺ : « كنت أرعى غنماً لأهل مكة بالقراريط »)[2] .

فالتوكل على ا لله سلوك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واعتقادهم والسعي في طلب الرزق سنتهم ، فترك السعي وعدم فعل الأسباب بدعة .

والسعي في الرزق علامة على افتقار العبد إلى ا لله تعالى دون غيره ، وسبب في عدم تعلق قلبه بغير ا لله ويعف نفسه فيعدل عن سؤال الناس ، ويأكل من أفضل الحلال وهو كسب اليد .

وهذه الحكمة التي بينها ا لله من السعي في طلب المعيشة ، وحث عباده عليها ، لكي يعتزوا بربهم الذي منه العزة ، وعلى هذا أجمعت الأمة كما سبق .

وفي الحديث المتقدم : « لو أنكم تتوكلون على ا لله حق توكله لرزقكم كما

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٨١ .

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٨١ - ٢٨٢ ، والحديث أخرجه البخاري في الإجارة ، باب رعي الغنم على قراريط ، وابن ماجه في التجارات ، باب الصناعات .

يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » فيه دلالة على طلب الرزق ؛ لأن الطير إذا غدت فإنما تغدو لطلب الرزق .

فلو توكلوا على الله تعالى لم ينصرفوا من طلب الرزق إلاّ سالمين غانمين كالطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً ، لكنهم يعتمدون على قوتهم وجلدهم ويغشون ويكذبون ولاينصحون ، وهذا خلاف التوكل .

قيل لابن المبارك[1] رحمه الله : (أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة ، ونراك تأتي بالبضائع ، كيف ذا ؟ . قال : يا أبا علي ، إنما أفعل ذا لأصون وجهي ، وأكرم عرضي ، وأستعين به على طاعة ربي . قال : يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تم ذا)[2] .

* * *

(١) هو : شيخ الإسلام عالم زمانه عبدالله بن المبارك بن واضح أمير الأتقياء في وقته ، أبو عبدالرحمن الحنظلي مولاهم التركي ثم المروزي ، الحافظ الغازي ، ولد سنة ١١٨ هـ ، طلب العلم وهو ابن عشرين سنة ، وله شعر رائق ، يقدر العلماء ويحترمهم ويتورع في الفتوى ، توفي في تسع من رمضان سنة ١٨١ هـ . انظر ترجمته في : سير أعلام النبلاء ٣٧٨/٨ - ٤٢١ ، وتاريخ بغداد ١٥٢/١٠ - ١٦٩ .

(٢) تاريخ بغداد ١٦٠/١٠ ، وسير أعلام النبلاء ٣٨٧/٨ .

التَّوَكُّل وَالتَّدَاوِي

حث الإسلام على العلاج والتداوي من الأمراض والأدواء ، ففي صحيح البخاري رحمه الله : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما أنزل الله من داء إلاّ أنزل له شفاء »[1] .

وعن أسامة بن شريك قال : كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب فقالوا : يارسول الله أنتداوي ؟! ، فقال : « نعم يا عباد الله تداووا ، فإن الله عزوجل لم يضع داء إلاّ وضع له شفاء غير داء واحد » قالوا : وما هو ؟ ! قال : « الهرم »[2] .

وفي لفظ : « إن الله لم ينزل داءً إلاّ أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله »[3] .

وقد ادَّعى قوم أن ترك التداوي والعلاج من التوكل ، وعدوا فعله قادحاً في

---

(١) أخرجه البخاري في الطب ، باب ما أنزل الله داء إلاّ أنزل له شفاء ، وابن ماجه في الطب ، باب ما أنزل الله داءً إلاّ أنزل له شفاء بنحوه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٧٨/٤ ، والبخاري في الأدب المفرد ٢٩١ ، وأبو داود في أول الطب ، والترمذي في الطب ، باب ماجاء في الدواء والحث عليه ، وإسناده صحيح ، وصححه ابن حبان (١٣٩٥) و ١٩٢٤ ، وقال الترمذي : (حسن صحيح) ، وابن ماجه في أول الطب . وقال في الزوائد : (رجاله ثقات) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٧٨/٤ .

التوكل ، لكن أهل العلم ردوا عليهم زعمهم هذا فقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى : (والمقصود ههنا أنا نقول : إذا ثبت أن التداوي مباح بالإجماع مندوب إليه عند بعض العلماء فلايلتفت إلى قوم رأوا أن التداوي خارج من التوكل ؛ لأن الإجماع على أنه لايخرج من التوكل ، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه تداوى وأمر بالتداوي ، ولم يخرج بذلك من التوكل ولا أخرج من أمره أن يتداوى من التوكل)[1] .

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن نبيه بن وهب رضي الله عنه قال : « خرجنا مع أبان بن عثمان حتى إذا كنا بملل اشتكى عمر بن عبيد الله عينيه ، فلما كنا بالروحاء اشتد وجعه ، فأرسل إلى أبان بن عثمان يسأله ، فأرسل إليه أن اضمدها بالصَّبِر[2] ، فإن عثمان رضي الله عنه حدث عن رسول الله ﷺ في الرجل إذا اشتكى عينيه وهو محرم ضمدها بالصبر »[3] .

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٨٧ .

(٢) **الصبِر** : بكسر الباء : نبات كنبات السوس الأخضر ، غير أن ورق الصبر أطول وأعرض وأثخن كثيراً ، وهو كثير المائ جداً ، قال الرازي : (هو الدواء المر) .

وهو نوعان : هندي وفارسي ، فالهندي ينقى الفضول الصفراوية التي في الدماغ وأعصاب البصر ، وإذا طلي على الجبهة والصدغ بدهن الورد نفع من الصداع ، وينفع من قروح الأنف والفم ، ويسهل السوداء ، وغير ذلك بإذن الله . والفارسي يذكي العقل ... وينقي الفصول الفراوية والبلغمية من المعدة ... ويرد الشهوة الباطلة والفاسدة ، وإذا شرب في البر خيف أن يسهل دماً . انظر : لسان العرب ٤٤٢/٤ ، ومختار الصحاح ص ٣٥٥ ، وزاد المعاد ٣٣٣/٤ - ٣٣٤ .

(٣) أخرجه مسلم في الحج ، باب جواز مداواة المحرم عينيه ، وأبو داود في المناسك ، باب يكتحل المحرم ، والترمذي في الحج ، باب ماجاء في المحرم يشتكي عينه فيضمدها بالصبر ، والنسائي في الحج ، باب الكحل للمحرم ، والإمام أحمد في المسند ٦٠/١ ، ٦٥ ، ٦٩ .

قال ابن جرير الطبري : (وفي هذا الحديث دليل على فساد ما يقوله ذوو الغباوة من أهل التصوف والعُبَّاد من أن التوكل لايصح لأحد عالج علة به في جسده بدواء ؛ إذ ذاك عندهم طلب العافية من غير من بيده العافية والضر والنفع)[1] .

(وفي إطلاق النبي ﷺ للمحرم علاج عينه بالصبر لدفع المكروه أدل دليل على أن معنى التوكل غير ما قاله الذين ذكرنا قولهم ، وأن ذلك غير مخرج فاعله من الرضا بقضاء الله ، كما أن من عرض له كلب الجوع لايخرجه فزعه إلى الغذاء من التوكل والرضا بالقضاء ؛ لأن الله تعالى لم ينزل داءً إلاّ أنزل له دواءً إلاّ الموت . وجعل أسباباً لدفع الأدواء ، كما جعل الأكل سبباً لدفع الجوع ، وقد كان قادراً على أن يحي خلقه بغير هذا ، ولكن خلقهم ذوي حاجة فلايندفع عنهم أذى الجوع إلاّ بما قد جعل سبباً لدفعه عنهم ، فكذا الداء العارض ، والله الهادي)[2] .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : (وفي الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي وأنه لاينافي التوكل كما لاينافيه دفع داء الجوع والعطش ، والحر والبرد بأضدادها ، بل لاتتم حقيقة التوحيد إلاّ بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً ، وأن تعطيلها يقدح في نفس المتوكل كما يقدح في الأمر والحكمة ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل فإن تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ماينفع العبد في دينه ودنياه ودفع مايضر في دينه ودنياه ، ولابد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب وإلاّ كان

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٨٧ .

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

معطلاً للحكمة والشرع فلايجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزاً)[1] .

وقد اختلف العلماء في التداوي : هل هو مباح وتركه أفضل ؟ أو مستحب ؟ أو واجب ؟ . فالمشهور عن أحمد الأول ، لحديث السبعين ألفاً ومافي معناه .

ولكن بناءً على ماتقدم من النصوص لايتم الاستدلال به على ذلك .

والمشهور عن الشافعي : الثاني ، حتى ذكر النووي في شرح صحيح مسلم أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلق .

ومذهب أبي حنيفة أنه مؤكد حتى يداني به الوجوب .

ومذهب مالك : أنه يستوي فعله وتركه ، فإنه قال : لابأس بفعله ولا بأس بتركه .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : (ليس بواجب عند جماهير الأئمة إنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد)[2] .

الرد على من قال : إن التداوي ينافي التوكل :

يظن بعض الجهال من المتصوفة أن شرط التوكل على الله تعالى هو أن يترك التداوي ؛ لأن ذلك ينافي التوكل على الله سبحانه ، وقالوا : إن التداوي حال الضعفاء ، وأن درجة الأقوياء توجب التوكل على الله بترك الدواء .

---

(١) زاد المعاد ٤/١٥ .

(٢) تيسير العزيز الحميد ص ١١١ - ١١٢ .

ويجاب عن هذا بما يلي :

هذا فهم سقيم يخالف ما أتى به الشرع وحض عليه الإسلام في اتخاذ الأسباب .

فقد أمر النبي ﷺ بذلك في قوله : « تداووا عباد الله فإن الله تعالى لم يضع داءً إلاّ وضع له دواء غير واحد : الهرم »[1] .

فإذا كان هذا قول النبي ﷺ فأنى لمخلوق أن يدعي أن التداوي ليس من أحوال أهل التوكل ؟ .

إن العاقل يعلم أنه إذا أراد الولدَ لابد له من الوقاع مع الزوجة ؛ لأنه لايمكن أن يطلب الولد وهو لم يتزوج بعد . فارتباط المسببات بالأسباب من سنة الله في خلقه ، لكن على المتوكل أن يكون اعتماده على الله في الباطن وإن أتبع الأسباب في الظاهر .

وقد دلت أدلة كثيرة على جواز التداوي وعدم منافاته للتوكل على الله تعالى منها :

١ - قول الله تعالى عن القرآن الكريم : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلمُؤْمِنِيْنَ ﴾[2] .

٢ - وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوْا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ

---

(١) سبق تخريجه ص ١٨٧ باختلاف يسير في الألفاظ .

(٢) سورة الإسراء ٨٢ .

أأعجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِيْنَ آمَنُوْا هُدَىً وَشِفَاء ﴾ الآية[1] .

٣ – قوله ﷺ : « لكــل داء دواء ، فـإذا أصيـب دواءُ الـداءِ بـرأ بـإذن ا لله عزوجل »[2] .

٤ – قوله ﷺ : « ما أنزل ا لله من داء إلاّ أنزل له شفاء »[3] .

٥ – وعن أبي خزامة ، قال : قلـت : يارسـول ا لله ! أرأيـت رقـى نسـترقيها ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقيها ، هل ترد من قدر ا لله شيئاً ؟ . فقال : « هــي مـن قدر ا لله »[4] .

قال ابن القيـم رحمـه ا لله بعـد إيـراد هـذه الأحـاديث : (فقـد تضمنـت هـذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات وإبطال قول من أنكرها)[5] .

فالأمر بالتداوي لاينافي التوكل ؛ بل لاتتم حقيقة التوحيد إلاّ بمباشرة الأسباب التي نصبها ا لله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً ، وتعطيلها يقدح في نفـس التوكـل كما يقدح في الأمر والحكمة .

---

(١) سورة فصلت : ٤٤ .

(٢) أخرجه مسلم في السلام ، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي .

(٣) أخرجه البخاري في الطب ، باب ما أنزل ا لله داء إلاّ أنزل له شفاء ، وابن ماجـه في الطـب ، بـاب مـا أنزل ا لله داء إلاّ وأنزل له شفاء بسند حسن .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/٤٢١ ، وابن ماجه في الطب ، باب ما أنزل ا لله داءً إلاّ أنزل له شفاءً . وإسناده صحيح ، وصححه البوصيري في زوائده ، والحاكم ٤/١٩٦ ، ١٩٧ ، ووافقه الذهبي .

(٥) زاد المعاد ٤/١٤ .

فلابد من طرق الأسباب في الشفاء بالتداوي مع صدق اليقين بأنه لاشفاء إلاّ شفاؤه سبحانه ، ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِيْنِ ﴾[1] . فهذا منهج الأنبياء وماشرعه الله لهم مسبب الأسباب وخالق الأضداد ، وقد أمرنا أن نتأسى بهم وبخيرهم على الإطلاق محمد ﷺ كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُوْلِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوْ اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيْراً ﴾[2] .

وقد بوب بعض العلماء أبواباً في هديه ﷺ في فعل التداوي في نفسه والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه وفق الطريقة المشروعة والبعد عن السحر والكهانة والشعوذة والتداوي بذلك ؛ لأنها إهلاك للنفوس ، وقد تركنا رسولنا ﷺ « على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلاّ هالك »[3] .

إذن فلاحجة لمن قال بعدم ذلك مع وجود هذه الأدلة وهذه القرائن ؛ التي تدل على أن فعل الأسباب من الإيمان ، والتوكل من الإيمان ، وأن حججهم التي بنوا عليها كلامهم واهية .

* * *

---

(١) سورة الشعراء : ٨٠ .

(٢) سورة الأحزاب : ٢١ .

(٣) سنن ابن ماجه : المقدمة ، باب : اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ، ومسند الإمام أحمد ٤/١٢٦ .

التداوي بالكي :

أمَّا الكي في نفسه فجائز كما في الصحيح عن جابر بن عبدالله « أن النبي ﷺ بعث إلى أبي بن كعب طبيباً فقطع له عرقاً وكواه »[1] .

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه : « أنه كوي من ذات الجنب والنبي ﷺ حي »[2] .

وروى الترمذي وغيره عن أنس : أن النبي ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة[3] .

ولما رمي سعد بن معاذ في أكحله حسمه النبي ﷺ ، ثم ورمت فحسمه الثانية[4] . والحسم هو : الكي .

ففي هذه الأحاديث دليل على جواز الكي وإباحته ، وذلك بفعله ﷺ له مع سعد بن معاذ ، وأسعد بن زرارة رضي الله عنهما ، وبتقريره وعدم الإنكار على من فعله من الصحابة رضوان الله عليهم أو فعل لهم في حياته ﷺ كما في قصتي أبي بن كعب ، وأنس بن مالك رضي الله عنهما هذه .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب السلام ، باب لكل داء دواء ، واستحباب التداوي .

(٢) أخرجه البخاري في الطب ، باب ذات الجنب .

(٣) أخرجه الترمذي في الطب ، باب ماجاء في الرخصة في التداوي بالكي ، وقال : وفي الباب عن أبي وجابر ، وهذا حديث حسن غريب .

(٤) أخرجه مسلم في السلام ، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي ، والإمام أحمد في المسند ٢١٣/٣ ، ٣٥٠ ، ٣٨٦ .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعاً : « الشفاء في ثلاث : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكية نار ، وأنا أنهى عن الكي » . وفي لفظ : « وما أحب أن أكتوي »[1] .

وقد حمل بعض العلماء الكي المذكور في قوله ﷺ عن المتوكلين : « ولايكتوون » على ماكانوا يفعلونه في الجاهلية فإنهم كانوا يكتوون ويسترقون في زمن العافية لئلا يمرضوا ، فإن النبي ﷺ كان يرقي ويعلم الرقية بعد نزول المرض وقد كوى أسعد ابن زرارة كما سبق ، واكتوى بعض الصحابة في وقت الرسول ﷺ و لم يعنفه .

ولكن يفهم مما تقدم أيضاً أن الكي - ولو كان جائزاً - فإنه يؤخر إلى مابعد تناول الأودية التي يمكن أن تنوب عنه ، فإن نفعت وإلاّ فآخر الدواء الكي .

قال ابن القيم رحمه الله : (ولايعجل التداوي به لما فيه من استعجال الألم الشديد في دفع ألم قد يكون أضعف من ألم الكي)[2] .

وقال رحمه الله تعالى : (فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع ، أحدها : فعله ، والثاني : عدم محبته له ، والثالث : الثناء على من تركه ، والرابع : النهي عنه ، ولاتعارض بينها بحمدالله تعالى ، فإن فعله يدل على جوازه ، وعدم محبته له لايدل على المنع منه .

وأمّا الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل ، وأمّا النهي عنه فعلى

(١) أخرجه البخاري في الطب ، باب الشفاء من ثلاث .

(٢) زاد المعاد ٥١/٤ .

سبيل الاختيار والكراهة ، أو عن النوع الذي لايحتاج إليه ، بل يفعل خوفاً من حدوث الداء ، والله أعلم)[1] .

قلتُ : تركه أولى للمتوكل على الله لما ثبت من نهي النبي ﷺ في الحديث المتقدم « أنهى أمتي عن الكي » .

وأيضاً لما جاء في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وهم المتوكلون والذين من وصفهم أنهم لايكتوون ، وقد سبق .

* * *

---

(١) زاد المعاد ٤/٦٥ - ٦٦ .

التداوي بالرقى :

التداوي بالرقى من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ لاينافي التوكل على الله ؛ لأن الله عزوجل جعلها سبباً في دفع مكروهات كثيرة ؛ ولأن النبي ﷺ فعلها بنفسه وبغيره مرات كثيرة ، وكذلك جبريل عليه السلام وخيار الصحابة رضوان الله عليهم ؛ ولأنها من الأسباب التي جعلها الله أسباباً تفعل .

ولاتقدح في التوكل إذا كان الاعتماد على الله تعالى لا على السبب ، أمَّا إذا كان الاعتماد على السبب لذاته ، أو كانت الرقية بمحرم فإن ذلك ينافي التوكل ، والله لايبارك فيه .

وقد كره بعض العلماء التداوي بالرقى مستدلين بحديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب المتقدم ، وفيه : « هم الذين لايتطيرون ولايكتوون ولايسترقون »[1] .

قال ابن حجر رحمه الله عند شرحه لهذا الحديث : (... فتمسك بهذا الحديث من كره الرقى والكي ، من بين سائر الأدوية ، وزعم أنهما قادحان في التوكل دون غيرهما)[2] .

وقد أجاب العلماء عن هذا الحديث بعدة أجوبة منها :

١ – أنه محمول على من جارى اعتقاد الطبائعيين في أن الأدوية تنفع بطبعها ،

---

(١) سبق تخريجه ص ٤٧ .

(٢) فتح الباري ٢١١/١٠ .

كما كان أهل الجاهلية يعتقدون ، أو أن المقصود الرقى التي يحمد تركها ما كان من كلام الجاهلية ومن الذي لايعقل معناه ؛ لاحتمال أن يكون كفـراً ، بخلاف الرقـى بالذكر ونحوه[1] .

٢ – أن المراد بالحديث : الذين يجتنبون فعـل ذلـك في الصحـة خشـية وقـوع الداء ، وأمَّا من يستعمل الدواء بعد وقوع الداء به فلا[2] .

٣ – يحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المذكورين في الحديث : من غفل عن أحـوال الدنيا ومافيها من الأسباب المعهودة لدفع العوارض ، فهم لايعرفـون الاكتـواء ، ولا الاسترقاء ، وليس لهم ملجأ فيها يعتريهم إلاّ الدعاء والاعتصام با لله والرضا بقضائـه فهم غافلون عن طب الأطباء ، ورقى الرقـاة ، ولايحسـنون مـن ذلـك شيئاً ، وا لله أعلم[3] .

٤ – أن المراد بترك الرقـى والكـي الاعتمـاد علـى ا لله في دفـع الـداء والرضـا بقدره ، لا القدح في جواز ذلـك ؛ لثبـوت وقوعـه في الأحـاديث الصحيحـة وعـن السلف الصالح لكن مقام الرضى والتسليم أعلى من تعاطى الأسباب .

قال ابن الأثير : (هذا من صفة الأولياء المعرضين عن الدنيا وأسبابها ، وعلائقهـا وهؤلاء هم خواص الأولياء ، ولايرد على هذا وقوع ذلـك مـن النـبي ﷺ ، فعـلاً وأمـراً ؛ لأنـه كان في أعلى مقامـات العرفـان ودرجات التـوكل ، فكان ذلك منـه

(١) انظر : فتح الباري ٢١١/١٠ . وقد نسبه ابن حجر للطبري والمازري .
(٢) وهذا منسوب للداودي وابن قتيبة (فتح الباري ٢١١/١٠) .
(٣) انظر : المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٩/٢ .

للتشريع ، وبيان الجواز ، ومع ذلك فلاينقص ذلك من توكله ؛ لأنه كامل التوكل يقيناً ، فلايؤثر فيه تعاطي الأسباب شيئاً بخلاف غيره[1] .

قلتُ : لعل قول من قال هذا الوجه : يحمل على مدح الذين يتركون أسباب التداوي المكروهة فقط ؛ لأن ترك الأسباب قدح في الشرع ومخالف للعقل والشرع ، والمتصوفة الذين يقررون ذلك نظرياً يخالفونه عملياً ، فهم يتناولون الطعام والشراب ويلبسون اللباس ونحو ذلك ممايحفظ الحياة .

٥ - أن وقوع الرقية من النبي ﷺ لنفسه ولغيره ومن جبريل عليه السلام للنبي ﷺ ومن الصحابة رضي الله عنهم وإقرار النبي ﷺ لهم : دليل على أن ذلك من التوكل على الله ولاينافيه .

قال الشيخ سليمان بن عبدالله بن عبدالوهاب رحمه الله : (واعلم أن الحديث لايدل على أنهم لايباشرون الأسباب أصلاً كما يظنه الجهلة ، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري لا انفكاك لأحد عنه حتى الحيوان البهيم ، بل نفس التوكل مباشرة ؛ لأعظم الأسباب كما قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ . أي : كافيه ، إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلاً على الله ، كالاسترقاء والاكتواء ، فتركهم له ليس لكونه سبباً لكن لكونه سبباً مكروهاً ، لاسيما والمريض يتشبث بمايظنه سبباً لشفائه بخيط العنكبوت .

أمّا نفس مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهية فيه فغير قادح في

---

(١) فتح الباري ٢١٢/١٠ .

التوكل ، فلايكون تركه ، مشروعاً كما في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً : « ما أنزل الله من داء إلاّ أنزل له شفاء »[1] .

وعن أسامة بن شريك قال : كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب ، فقالوا : يارسول الله ! أنتداوى ؟ فقال : « نعم يا عباد الله تداووا ، فإن الله عزوجل لم يضع داءً إلاّ وضع له شفاء ، غير داء واحد » . قالوا : ماهو ؟ . قال : « الهرم »[2] . رواه أحمد[3] .

* * *

---

(١) (٢) سبق تخريجهما .

(٣) تيسير العزيز الحميد ١١٠ - ١١١ .

أَهَمُّ خَصَائِص التَّوَكُّلِ عَلَى ا للهِ وَثَمَرَاتُهُ

إن المتدبر لآيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ وما ذكرناه في هذا البحث يصل إلى أن للتوكل على ا لله تعالى خصائص جليلة وثمرات عظيمة يزيد التعرف عليها ومعرفتها المؤمن إيماناً وتوكلاً على ا لله تعالى وحرصاً على تحقيق عقيدة التوكل في كل الأمور والأعمال والعبادات وتزيد ثقته با لله تعالى والاعتماد عليه وحده دون سواه في كل الأمور .

ومن أهم خصائص التوكل على ا لله تعالى :

١ – أن التوكل على ا لله تعالى هو منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وخاصة أتباعهم في جميع الأمور ، في دعوتهم إلى ا لله ، وجهادهم في سبيله ، وطلبهم الرزق ، وطلب الحفظ والرعاية والعصمة ، وفي الحكم ، وفي الحضر والسفر ، وفي الحركة والسلم والحرب ، وفي العبادات كلها .

فمن يدعو إلى ا لله تعالى لاينجح في دعوته لأي أحد أو أي قوم إلاّ إذا أخذ بأسباب قبول دعوته .

هذه الأسباب أسباب مادية لابد من الأخذ بها في أي مقام أو مقال . إلاّ أن مايريد الداعي من دعوته قد يتحقق ، وقد لايتحقق ، ولذلك فإن الداعية إلى ا لله لايكفيه العمل بالأسباب ما لم يضف إلى ذلك التوكل على ا لله وتفويض الأمر إليه سبحانه .

وهذا هو منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام :

وأعظم توكلهم توكل خيرهم وأفضلهم محمد المتوكل ﷺ .

عن عبدالله بن عمرو قال : « قرأت في التوراة صفة النبي ﷺ : محمد رسول الله عبدي ورسولي ، سميته المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ، ولايجزي السيئة بالسيئة ، بل يعفو ويصفح ، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلاّ الله »[1] .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (وهو أحق الناس بهذا الاسم ؛ لأنه توكل على الله في إقامة الدين توكلاً لم يشركه فيه غيره)[2] .

قال الله عنه : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيْمِ ﴾[3] .

قال ابن كثير رحمه الله : (﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي : تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ، ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أي : الله كافي ، لا إله إلاّ هو عليه توكلت . كما قال تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَاتَّخِذْهُ وَكِيْلاً ﴾ ، ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيْمِ ﴾ أي : هو مالك كل شيء

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفتح ، باب ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيْراً ﴾ ، والإمام أحمد في المسند ١٧٤/٢ .

(٢) زاد المعاد ٩٣/١ - ٩٤ .

(٣) سورة التوبة : ١٢٩ .

وخالقه ؛ لأنه رب العرش العظيم ...)[1] .

فإن تولى المنافقون والكفار وأعرضوا عن الإيمان بك يا محمد ، وأصروا على أن يناصبوك العداء ، بعد هذه النعم التي من الله بها عليهم فلاتأبه بهم ، ولاتبخع نفسك عليهم واستعن بالله ، وفوض إليه جميع أمورك ، فإنه كافيك كل شيء ، وناصرك عليهم وهو وحده صاحب الملك وهو العظيم القادر المنزه عن أن يتمثل في الأوهام أو تصل إليه الأفهام[2] .

وقد روى أبو داود بسنده عن أبي الدرداء قال : « من قال إذا أصبح وإذا أمسى : « حسبي الله لا إله إلاّ هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » سبع مرات إلاّ كفاه الله ما أهمه »[3] .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِيْ لاَيَمُوْتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوْبِ عِبَادِهِ خَبِيْراً ﴾[4] .

توكل يا محمد على الحي القيوم الذي لاتأخذه سنة ولا نوم ، العزيز في ملكه الذي وسعت رحمته كل شيء سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ ۝ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِن الْمُؤْمِنِيْنَ ۝ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا

---

(١) تفسير القرآن العظيم /٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٨/ ، وتفسير القاسمي ٨/٣٦٦ .

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ، باب ما يقول إذا أصبح .

(٤) سورة الفرقان : ٥٨ .

تَعْمَلُوْنَ ۞ وَتَوَكَّلْ عَلَى العَزِيْزِ الرَّحِيْمِ ﴾[1] .

توجيه إلهي إلى محمد ﷺ بأن يستمر على الصلة الدائمة صلة الرعاية والعناية والحفظ : وتوجه إلى ربك معتمداً عليه ، مستعيناً في أمرك كله به ، وفي التعبير كما قال سيد قطب رحمه الله : (إيناس بالرعاية والقرب والملاحظة والعناية ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يشعر أنه في كنف ربه وفي جواره وقربه ، وفي جو الأنس العلوي كان يعيش ...)[2] .

ولقد كان محمد ﷺ متوكلاً في أعظم المواقف وأشدها حاجة إلى العون المادي والتأييد والنصرة .

ومعركة أحد من أعظم الأمثلة التي نوردها على ذلك فقد كانت ثمرتها : صدق اليقين ، ومحصت فيها النفوس ورسخت فيها عقيدة التوكل على الله وحده ورد الأمر إلى الله في النصر والهزيمة وفي الحياة والموت .

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّءُ الْمُؤْمِنِيْنَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ ۞ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾[3] .

ولقد كان محمد ﷺ القدوة النموذجية للبشرية كلها في التوكل على الله في تلك المعركة خاصة بعد اضطراب الصفوف بعد رجوع ثلث الجيش قبل المعركة

---

(١) سورة الشعراء : ٢١٤ - ٢١٧ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/٢٦٢٠ .

(٣) سورة آل عمران : ١٢١ ، ١٢٢ .

بقيادة رأس النفاق عبدا لله بن أبي بن سلول ، ثم مخالفة الرماة أمـره ﷺ وإشـاعة مقتله فانهزم الجيش وتركوه في النفر القليل ، وهو مثخـن بـالجراح قليـل الحيلـة قـد يئس من المخلوقين ، ولكنه صامد يدعو ربه بكـل ثقـة متوكـل علـى ا لله وحـده لا على القوة المادية أو البشرية وحدهـا ؛ لأنهـا أسـباب تفعـل وتحقـق النصـر بيـد ا لله تعالى ؛ ولذلك كانت له ﷺ العاقبة ؛ لأنه على الحق المبين ، كما قال ا لله عنـه : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ا للهِ إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِيْن ﴾[1] .

قال العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه ا لله تعالى[2] : (ومـن أوضـح الأدلة على عظم توكل نبينا ﷺ قوله يوم حنين وهو علـى بغلـة في ذلـك الموقـف العظيم :

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب »

قلتُ : وقوله في الغار لأبي بكر الصديق رضي ا لله عنه : ﴿ إِذْ هُمَا فِي الغَـارِ إِذْ يَقُوْلُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ ا للهَ مَعَنَا ﴾[3] من هذا الباب .

ووصفه ا لله تعالى في التوراة بالمتوكل كما سبق[4] .

وتوكله ﷺ حتى في غير الشدائد أو الحرب فهو دائماً مرتبـط بـا لله متوكـل

(١) سورة النمل : ٧٩ .

(٢) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ٤٧٦/٢ .

(٣) سورة التوبة : ٤٠ .

(٤) انظر : تفسير ابن كثير ٤٩٦/٣ ، وانظر ما سبق ص ٢٠٢ من هذا البحث .

عليه سبحانه : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوْا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ا للهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ العَلِيْمُ ﴾[1] .

والنبي ﷺ كان يجد من قومه ماوجده غيره من الرسل من انحرافات النفوس ومن أعباء الدعوة ومايحتاج معه إلى التسلية والتثبيت من ربه فيقص عليه قصصهم مع أقوامهم وأنهم كانوا يسلمون الأمور في مثل حاله إلى ا لله فيتوكلون عليه ويردون الأمر كله إليه سبحانه ؛ لأنه الجدير بذلك وحده والولي وحده والنصير ، وهو العليم بما يعملون من خير وشر :

﴿ وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِيْنَ ۞ وَقُلْ لِلَّذِيْنَ لاَيُؤْمِنُوْنَ اعْمَلُوْا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُوْنَ وَانْتَظِرُوْا إِنَّا مُنْتَظِرُوْن ۞ وَ للهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَارَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُوْن ﴾[2] .

فأمر ا لله محمداً ﷺ في الآيات السابقة بالتوكل ولاشك أنه ممتثل ذلك ، فهو سيد المتوكلين عليه صلوات وسلامه ، والتوكل على ا لله هو شأنه وشأن إخوانه المرسلين صلوات ا لله عليهم وسلامه ، كما بين تعالى ذلك في آيات أخر ، كقوله عن هود عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ ا للهَ وَاشْهَدُوْا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ فَكِيْدُوْنِي جَمِيْعاً ثُمَّ لاَتُنْظِرُوْنِ ۞ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ا للهِ رَبِّيْ وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ

---

(١) سورة الأنفال : ٦١ .

(٢) هود : ١٢٠ - ١٢٣ .

دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[1] .

لقد أخبر قومه أن هناك أمراً عظيماً هو سر هدايتهم أو ضلالهم وهو التوكل على الله تعالى .

وقوله تعالى عن نوح عليه الصلاة والسلام : **﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوْا أَمْرَكَمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَيَكُنِ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوْا إِلَيَّ وَلاَتُنْظِرُوْنِ * فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُوْنَ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ ﴾**[2] .

قال ابن كثير رحمه الله في قوله : **﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾** : (أي : فإني لاأبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أولا)[3] .

فنوح عليه الصلاة والسلام مهما رأى من قومه من الضيق وعدم تحمل بقاءه ودعوته لهم وتذكيره إياهم بآيات الله فإنه ثابت على توكله على الله والاعتماد عليه وحده ؛ لأنه حسبه ونعم الحسب ونعم الوكيل .

وشعيب عليه السلام لما دعا قومه وعمل ما استطاعه من أسباب الهداية ، وقابل منهم ما قابل وعملوا من أسباب الضلال ماعملوا كان الحكم بينهما في ذلك

---

(١) سورة هود : ٥٣ .

(٢) سورة يونس : ٧١ ، ٧٢ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤٢٥/٢ .

الله سبحانه وتعالى ؛ ولذلك أخبرهم بتوكله عليه سبحانه فقال : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِيْ مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيْدُ أن أُخَالِفَكُم إِلى مَا أنهَاكُم عَنهُ إن أُرِيْدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيْقِيْ إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيْبُ ﴾[1] .

قال الشهيد سيد قطب رحمه الله : (ويتلطف شعيب صاحب الدعوة الواثق من الحق الذي معه ، ويعرض عن تلك السخرية لاياليها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم يتلطف في إشعارهم أنه على بينة من ربه كما يجده في ضميره وقلبه وأنه على ثقة مما يقول لأنه أوتي من العلم مالم يؤتوا ، وأنه إذ يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة سيتأثر مثلهم بنتائجها ؛ لأنه مثلهم ذو مال وذو معاملات ، فهو لايبغي كسباً شخصياً من وراء دعوته لهم ، فلن ينهاهم عن شيء ثم يفعله هو لتخلو له السوق إنما هي دعوة الاصلاح العامة لهم وله وللناس ... ﴿ وَمَا تَوْفِيْقِي إِلاَّ بِاللهِ ﴾ فهو القادر على إنجاح مسعاي في الإصلاح بما يعلم من نيتي ، وبما يجري على جهدي ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ عليه وحده لا أعتمد على غيره ، ...)[2] .

ويعقوب عليه السلام في قصته مع بنيه : ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوْنِي مَوْثِقاً مِن اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُوْلُ وَكِيْلٌ ۞ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَتَدْخُلُوْا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوْا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُوْنَ ﴾[3] .

---

(١) سورة هود : ٨٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/١٩٢٠ - ١٩٢١ .

(٣) سورة يوسف : ٦٦ ، ٦٧ .

بعد هذا العهد والموثق والوصية. والأمر يخبرهم ويسلي نفسه بأن الأمر مرده إلى الله وأن التوكل عليه سبحانه هو الأصل في كل قضية من القضايا ، وهذا منهج أمر الله به المؤمنين في كل أمورهم وشئونهم .

وإبراهيم عليه السلام المتوكل على الله قال الله عنه : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيْمَ وَالَّذِيْنَ مَعَهُ إِذْ قَالُوْا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوْا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيْمَ لأَبِيْهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِن اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المَصِيْرُ ﴾[1] .

قال سيد قطب رحمه الله : (ويثبت هنا أن إبراهيم فوض الأمر كله لله وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال : ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِن اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المَصِيْرُ ﴾ .

وهذا التسليم المطلق لله : هو السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم يبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه ، وإبراز ما في ثناياه من ملامح وسمات وتوجيهات على طريق القرآن الكريم)[2] .

ومن أوضح توكله عليه السلام ماتضمنته قصة إسماعيل وهاجر الواردة في قول

---

(١) سورة الممتحنة : ٤ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٥٤٢ - ٣٥٤٣ .

الله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِيْ بِوَادٍ غَيْرِ ذِيْ زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيْمُوْا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِيْ إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُوْنَ ﴾[1] .

فإنه لما وضع إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر بمكة وليس بها ماء ولا أحد ... ثم قضى منطلقاً تبعته أم إسماعيل فلما بلغوا كداء[2] نادته من ورائه : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء ؟ وكررت ذلك مراراً وهو لايلتفت إليها ، فقالت : آ الله أمرك بهذا ؟ . قال : نعم . . قالت : إذن لايضيعنا الله .

وفي لفظ : إلى من تكلنا ؟ . قال : إلى الله . قالت : رضيت . ثم رجعت . فانطلق حتى إذا كان عند الثنية حيث لايرونه استقبل البيت ، ورفع يديه ودعا بهذه الدعوات : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِيْ زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ... ﴾ الآية[3] .

بل أخبر الله عن جملة الرسل أن منهجهم هو التوكل على الله عزوجل والاعتماد عليه دون سواه فقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوْحٍ وَعَادٍ وَثَمُوْدَ وَالَّذِيْنَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَيَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى

---

(١) سورة إبراهيم : ٣٧ .

(٢) كداء : بفتح الكاف : الموضع الذي دخل منه النبي ﷺ مكة في حجة الوداع .

(٣) أخرج القصة البخاري في الأنبياء باب يزفون النسلان في المشي .

مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَعَلَى ا للهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ ۞ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّـلَ عَلَـى ا للهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُوْنَا وَعَلَى ا للهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُوْنَ ﴾[1] .

يطلق الرسل صلوات ا لله عليهم أجمعين حقيقة دائمة وهـي التوكـل علـى ا لله وحده : توكل الواثق بربه الذي لايلتفت إلى سواه ولايرجو عوناً إلاّ منه .

فهم مهما قابلوا وحابهوا من الأذى يصبرون ويقولون ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى ا للهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُوْنَـا وَعَلَـى ا للهِ فَلْيَتَوَكَّـلِ الْمُتَوَكِّلُوْنَ ﴾ وهذه الكلمة هي كلمة المطمئـن إلى موقفـه وطريقـه المؤمـن بـأن ا لله الـذي يهـدي السبيل لابد أن ينصره ولو بعد حين .

٢ – أن التوكل على ا لله أحد عوامل النصر على الأعداء :

فالتوكل على ا لله والاعتماد عليه وتفويض الأمر إليـه والاستعانة بـه والإيمـان بأنه سبحانه إذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون ، فلا معطي ولا مانع إلاّ هو سبحانه ولايصيب أحداً شيءٌ إلاّ ما كتب ا لله له ، وجميع الخلق لايقدرون علـى نفـع أحـد ولا ضر أحد لم يرد ا لله له ذلك ولايتم شيء إلاّ بمباشرة الأسـباب الـتي جعلهـا ا لله كوناً وشرعاً مؤدية إلاّ مسبباتها .

وما أروع التوكل إذا كان بعد أخذ العدة وإعداد الوسائل .

وقد قص القرآن لنا مثلين مـن أروع الأمثلـة في الثقـة بـا لله والتوكـل عليـه في الجهاد في سبيل ا لله ، وطلب النصر على الأعداء .

---

(١) سورة إبراهيم ٩ – ١٢ .

فهؤلاء صحابة رسول الله ﷺ أصابتهم الجراح في غزوة أحد ثم دعاهم الرسول ﷺ لغزوة أخرى فاستجابوا لله والرسول واثقين من نصر الله ومعونته ، معتمدين على تأييده وقوته ، ولم يأبهوا بالعوائق التي يضعها في طريقهم المعوقون ، ولا بالتثبيط الذي يحرص عليه المثبطون ، ولم تهن عزائمهم تصرفات المخذلين وقولهم : إن خصومكم قد جمعوا لكم كل جمع ورصدوا لكم كل قوة فخافوهم ، بل لم يزدهم ذلك كله إلاّ يقينا صادقاً وإيماناً راسخاً وشجاعة في نصرة دين الله وإقداماً على النصر أو الشهادة في سبيل الله ، ... ، وقالوا : ﴿ **حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ** ﴾ فكان عاقبتهم الفوز والنصر والغلبة ... يقول الله تعالى : ﴿ **الَّذِيْنَ قَالَ لَهُم النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ ۝ فَانْقَلَبُوْا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوْءٌ وَاتَّبَعُوْا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُوْ فَضْلٍ عَظِيْم** ﴾[1] .

وفي غزوة الأحزاب التي جمعت قريش فيها عدتها وجيشها وجيش حلفائها من المشركين والكفار الذين تحزبوا جميعاً طمعاً في القضاء على الإسلام وأهله فماوهن المسلمون وما استكانوا ، بل قالوا : هذا ماوعدنا الله ورسوله ، ولقد صدقهم وعده فأعز جنده وهزم الأحزاب وحده .

قال الله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُوْنَ الأَحْزَابَ قَالُوْا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُوْلُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُوْلُهُ وَمَازَادَهُمْ إِلاَّ إِيْمَاناً وَتَسْلِيْماً** ﴾[2] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢) سورة الأحزاب : ٢٢ .

فهذه ثقة بالله وتوكل نشأ عن إيمان راسخ ويقين صادق هو الذي أمر الله به ورغب فيه في مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾[1] .

قال تعالى : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِيْنَ ﴾[2] .

(فأمره إذا عزم أن يتوكل على الله ، فلو كان المتوكل لايعينه على مثل ماعزم عليه لم يكن به عند العزم فائدة ، ويبين سبحانه أنه هو الناصر دون غيره ، فقال : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾ فنهى عن التوكل على غيره ، وأمره بالتوكل عليه ليحصل للمتوكل عليه النصر الذي لايقدر عليه غيره)[3] .

٣ - أن التوكل على الله هو الاعتماد على الله وحده وتفويض الأمر إليه سبحانه والاستعانة به مع الأخذ بالأسباب المأمور بها واعتقاد أنها لاتجلب بذاتها نفعاً ولا ضراً :

كما في حديث النبي ﷺ : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه » فبات الناس يدركون ليلتهم أيهم يعطاها . فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : « أين

---

(١) سورة الطلاق : ٣ .

(٢) سورة آل عمران : ١٧٩ .

(٣) جامع الرسائل لابن تيمية ص ٩٤ - ٩٥ .

علي بن أبي طالب ؟ » فقيل : هو يشتكي عينيه ، فأرسلوا إليه فأتي به فبصق في عينيه ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال : « انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم »[1] .

فإن مما يستفاد منه : التوكل على الله والإقبال بالقلب وعدم الالتفات إلى الأسباب وإن فعلها لاينافي التوكل .

٤ – أن التوكل والاعتماد على الله في جلب المصالح والمنافع ودفع المضار والمصائب ، وحصول الأرزاق والنصر على الأعداء وشفاء المرض من أهم المهمات وأوجب الواجبات .

عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ، واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي ﷺ فقال لهم : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا »[2] .

٥ – أن التوكل على الله من صفات المؤمنين الصادقين ، ومن أهم ماينبغي أن يتصف به أولياء الله المتقون في كل وقت وحين :

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة ، باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي ، ومسلم في الجهاد والسير ، باب غزوة ذي قرط وغيرها .

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ، باب ماجاء في شأن الصور ، وفي تفسير سورة الزمر ، وقال : (هذا حديث حسن) ، والإمام أحمد في المسند ٣٢٦/١ ، ٧/٣ ، ٣٧٤/٤ .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوْبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيْمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ ﴾[1] .

فالتوكل صفة علية من صفات عباد الله ، وعلامة واضحة لأهل الإيمان .

٦ – أن التوكل على الله من شروط الإيمان بالله عزوجل : ويدخل في كل العبادات والأفعال .

قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوْا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ ﴾[2] .

٧ – أن التوكل على الله من أسباب قوة القلب ونشاطه .

٨ – أن التوكل على الله أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ولجميع أعمال الإسلام وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس فكما لايقوم الرأس إلاّ على البدن فكذلك لايقوم الإيمان إلاّ على ساق التوكل .

فلابد من التحلي به وتحقيقه في جميع أمور الحياة .

٩ – أن التوكل على الله علامة على تحقيق الإيمان والعبادة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوْا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوْبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيْمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ ﴾[1] .

---

(١) سورة الأنفال : ٢ .

(٢) سورة المائدة : ٢٣ .

١٠ – التوكل علامة الإيمان الصادق :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ لَيَقُوْلُنَّ الله قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ الله إِنْ أَرَادَنِيَ الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتِ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتِ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ الله عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المَتَوَكِّلُوْنَ ﴾[١] .

وقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِن الجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِيْنَ ۞ الَّذِيْنَ صَبَرُوْا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْن ﴾[٢] .

﴿ الَّذِيْنَ قَالَ لَهُم النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً وَقَالُوْا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيْلُ ﴾[٣] .

ولما نكص بنوا إسرائيل في جهادهم مع موسى عليه السلام : ﴿ وَقَالُوْا يَا مُوْسَى إِنَّ فِيْهَا قَوْماً جَبَّارِيْنَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوْا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوْا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُوْنَ ﴾[٤] .

وأظهروا بعدهم عن التوكل على الله تبين أن إيمانهم ضعيف ، وأنهم لم يصدقوا فيه .

---

(١) سورة الزمر : ٣٨ .

(٢) سورة العنكبوت : ٥٨ – ٥٩ .

(٣) سورة آل عمران : ١٧٣ .

(٤) سورة المائدة : ٢٢ .

لكن من كان صادق التوكل والإيمان ظهر وبان : ﴿ قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِيْنَ يَخَافُوْنَ أَنْعَمَ ا لله عَلَيْهِمَا ادْخُلُوْا عَلَيْهِم البَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوْهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُوْنَ وَعَلَى ا لله فَتَوَكَّلُوْا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ ﴾[1] .

فعلى ا لله وحده يتوكل المؤمن ، وهذه خاصية الإيمان وعلامة برزت من الرجلين في الخوف من ا لله في ساعة الشدة وموطن الخوف من الناس .

قال ا لله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ ا لله وَجِلَتْ قُلُوْبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيْمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ ﴾[2] .

ففي الآية وصف المؤمنين الصادقين في إيمانهم بثلاث مقامات من مقامات الإحسان ، وهي : الخوف ، وزيادة الإيمان ، والتوكل على ا لله وحده .

قال الشيخ سليمان بن محمد بن عبدالوهاب في معنى الآية : (فإن قيل : إذا كان المؤمن حقاً هو الذي فعل المأمور وترك المحظور فلماذا لم يذكر إلاّ خمسة أشياء .

قيل : لأن ما ذكر مستلزم لما ترك ، فإنه ذكر وجل قلوبهم إذا ذكر ا لله ، وزيادة إيمانهم إذا تليت عليهم آياته ، مع التوكل عليه ، وأقام الصلاة على الوجه المأمور به باطناً وظاهراً ، والإنفاق من المال والمنافع ، فكان مستلزماً للباقي ، فإن وجل القلب عند ذكر ا لله يقتضي خشيته والخوف منه ، وذلك يدعو صاحبه إلى

---

(١) سورة المائدة : ٢٣ .

(٢) سورة الأنفال : ٢ .

فعل المأمور وترك المحظور ، وكذلك زيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله يقتضي زيادته علماً وعملاً ، ثم لابد من التوكل على الله فيما لايقدر عليه إلاّ الله ومن طاعة الله فيما يقدر عليه ، وأصل ذلك الصلاة والزكاة ، فمن قام بهذه الخمس كما أمر لزم أن يأتي بسائر الواجبات ، بل الصلاة نفسها إذا فعلها كما أمر فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر ذكر ذلك شيخ الإسلام)[1] .

١١ – أن التوكل على الله أحد الأسباب التي يستحق العبد بها التفضيل ورفع الدرجات ، كما في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب وهم : « ... وعلى ربهم يتوكلون » .

١٢ – أن التوكل على الله تعالى سبب للحفظ :

كما قال الله على لسان يعقوب عليه السلام في قصة يوسف وإخوته : ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوْنِ مَوْثِقاً مِن اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُوْلُ وَكِيْلٌ ۞ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَتَدْخُلُوْا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوْا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُوْنَ ﴾[2] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُوْنَ ﴾[3] .

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٤٩٩ – ٥٠٠ .

(٢) سورة يوسف : ٦٦ ، ٦٧ .

(٣) سورة التوبة : ٥١ .

وقال عزوجل : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾[1] .

ولهذا أمر النبي ﷺ العبد أن يتوكل على الله إذا خرج من بيته وإذا ولج بيته وإذا اضطجع على فراش منامه .

فعن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته قال : « بسم الله ، توكلت على الله ، اللهم إنّا نعوذ بك أن نزل أو نضل أو نظلم أو نظلم أو نجهل أو يجهل علينا »[2] .

وعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا ولج الرجل بيته فليقل : اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج ، باسم الله ولجنا وباسم الله خرجنا وعلى ربنا توكلنا ، ثم ليسلم على أهله »[3] .

وأخرج البخاري رحمه الله تعالى عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ أوصى رجلاً فقال : « إذا أردت مضجعك فقل : اللهم أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك ووجهت وجهي إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجا إلاّ إليك ، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت ،

---

(١) سورة المجادلة : ١٠ .

(٢) أخرجه الترمذي في الأدب ، باب مايقول إذا خرج من بيته ، وقال : (هذا حديث حسن صحيح) .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ، باب مايقول إذا خرج من بيته .

فإن مت مت على الفطرة »[1] .

١٣ - أن تحقيق التوكل على الله حماية من الدجال :

كما في المسند عن هشام بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن رأس الدجال من ورائه ٧ حبك ، فمن قال : أنت ربي افتتن ، ومن قال : كذبت ، ربي الله عليه توكلت ، فلايضره - أو قال - : فلا فتنة عليه »[2] .

١٤ - أن التوكل على الله يبعث قوة العزيمة والثبات في نفس المسلم ، كما سبق في الآيات والأحاديث وقصص الأنبياء والرسل وعباد الله الصالحين .

١٥ - أن التوكل على الله يدفع ، بل ويقضي على التردد والنكوص عن المطالب العالية والهمم الرفيعة .

بخلاف توكل العاجزين المتكلين المتقاعسين عن فعل الأسباب وطلب الرزق ، فإن ذلك خمول وركون إلى الراحة والدعة وانتظار الرزق بدون مشقة وتعب ، ومعناه كذلك في عرفهم الذلة والمسكنة والعزوف عن الدنيا ومباهجها والرضا بالفضلات من الطعام والفتات من الخبز وما تمزق من الثياب ، وما تكرمت به الأيدي الرحيمة والنفوس الكريمة من معروف وإحسان .

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ، باب مايقول إذا نام ، ومسلم في الذكر ، باب مايقول عند النوم ، وأبو داود في الأدب ، باب مايقول عند النوم ، والترمذي في الدعوات ، باب ماجاء في الدعاء إذا أوى إلى فراشه .

(٢) أخرج الإمام أحمد في المسند ٢٠/٤ ، وبلفظ آخر في ٣٧٢/٥ .

١٦ - أن التوكل على ا لله تعالى : عدة روحية وقوة معنوية للمسلم في جميع أمور حياته :

كم يمر على الإنسان في حياته من اللأواء والشدائد والمصائب وخذلان المخلوقين له .

إنها أمور لو يستسلم لها لصعق ، ولاختلت إنسانيته ، وخبث طبعه وحياته ، وأصبحت جحيماً لايطاق .

ولا مخرج له منها أبداً إلاّ بتسليم أمره لله وحده في كل أمر نابه : إذا أصابته مصيبة لجأ إلى ا لله بفعل ما يرضيه واتباع أمره وإن خذله الناس لجأ إلى ا لله في اتقاء شرورهم ، كما قال ا لله تعالى : ﴿ **الَّذِيْنَ قَالَ لَهُم النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً وَقَالُوْا حَسْبُنَا ا للهُ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ** ﴾[١] .

هذه الصورة الرائعة : صورة التوكل على ا لله وحده وعدم المبالاة بالناس في مقالاتهم وتخويفهم ، هي المخرج للإنسان .

معرفة أن ا لله هو الكافي والوكيل هي التي تطمئن النفس وترضيها ، وتزيدها إيماناً في ساعة الشدة ومواجهة خذلان الناس وتخويفهم .

إن شعار « حسبنا ا لله ونعم الوكيل » هو للمسلمين المؤمنين وحدهم لايشاركهم فيه غيرهم ، فهم الذين يقطفون ثمرته ويحصلون على عاقبته الطيبة وعلى وعدا لله

---

(١) سورة آل عمران : ١٧٣ .

الذي ذكره بعد ذلـك : ﴿ فَانْقَلَبُوْا بِنِعْمَةٍ مِنَ ا للهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوْءٌ وَاتَّبَعُوْا رِضْوَانَ ا للهِ وَا للهُ ذُوْ فَضْلٍ عَظِيْمٍ ﴾[1] .

إن من يجعل التوكل شعاره وعقيدته يكفيه ا لله شر المخلوقين الخاذلين ويكـون وكيله في الدارين .

﴿ وَيَقُوْلُوْنَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوْا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُوْلُ وَا للهُ يَكْتُبُ مَايُبَيِّتُوْنَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ا للهِ وَكَفَى بِا للهِ وَكِيْلاً ﴾[2] .

نعم : يكفي البشر كلهم أن يرتبطوا با لله ارتباط العبودية للمعبـود وهـو يرعـاهم أجمعين ، ﴿ وَكَفَى بِا للهِ وَكِيْلاً ﴾ .

إنها راحة شعور المؤمن من ناحية رعايـة ا لله لـه وقيامـه سـبحانه عليـه وعلـى حوائجه ومصالحه ، ليكل إليه سبحانه أمره كله في طمأنينة ، وليصرف عنـه شـرور العدوان ، وهذه نعمة منه سبحانه وعدة روحية للعبـد المؤمـن ، كمـا قـال تعـالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اذْكُرُوْا نِعْمَةَ ا للهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوْا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوْا ا للهَ وَعَلَى ا للهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾[3] .

وقـد يتعـرض المؤمـن للاسـتهزاء مـن المنـافقين – وخاصـة في هـذه الأزمنـة – والسخرية لتدينـه وإيـمانه ، وقد ينهزم هذا المؤمن إذا كان ضعيف الإيـمان ... وفي

---

(١) سورة آل عمران : ١٧٤ .

(٢) سورة النساء : ٨١ .

(٣) سورة المائدة : ١١ .

مثل هذه المواقف يبين ا لله له المنهج في هذا فيقول سبحانه : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُم وَمَنْ يَتَوَكَّل عَلَى ا للهِ فَإِنَّ ا لله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1] .

إن العدة الأساسية في مثل هذا الموقف هي التوكل على ا لله والثقة بنصره .

إن المؤمن مدعو أن يزن بميزان الإيمان والعقيدة ، وأن يدرك ببصيرة المؤمن وقلبه ، وأن يرى بنور ا لله وهداه ، وألا تتعاظمه قوى الطاغوت الظاهر ، وألا يستهين بقوته ووزنه ، فإن ا لله معه ، وأن يصغي دائماً إلى تعليم ا لله سبحانه وتعالى للمؤمنين : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّل عَلَى ا للهِ فَإِنَّ ا لله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

إن الواثقين با لله وحده الذين يهون خوفهم من البشر مهما كان ظلمهم وبطشهم وجبروتهم المتوكلين عليه سبحانه ، هم أهل العزة والرفعة دائماً وإن قل عددهم وقلت قوتهم المادية ، ولنا في أتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أسوة حسنة .

في مرحلة من مراحل دعوة موسى عليه السلام ولعلها الأولى لم يؤمن معه من بني إسرائيل إلاّ نفر قليل من الشباب لا من الشيوخ ، وكانوا بين خوفهم من فرعون وطغيانه وتأثير كبار قومهم أصحاب المصالح عند أصحاب السلطان ، والأدلاء الذي يلوذون بكل صاحب سلطان وخاصة من بني إسرائيل ، وكان فرعون طاغية مسرفاً في القتل لايتحرج من أي إجراء قاس ، وبين الثبات على ماجاء به موسى عليه

---

(١) سورة الأنفال : ٤٩ .

السلام من عند الله رغم كل المصاعب المذكورة ، فهم بحاجة إلى مايطمئن قلوبهم ويثبتها على الحق الذي تنحاز إليه ، فأخبرهم موسى عليه السلام بأن المخرج لهم هو التوكل على الله تعالى ، وأن ذلك هو الرصيد الحقيقي في مثل هذه المواقف بل فيه القوة والثبات أمام أي طغيان ، فاستجابوا لدعوته إلى هذا الركن الركين وإسلام نفوسهم لله تعالى والعمل بما يريد سبحانه .

قال الله تعالى : ﴿ **فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ۞ وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ۞ فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَتَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾[1] .

إن كل شدة تمر بالإنسان أو ابتلاء في نفسه أو عرضه أو ماله أو جاهه أو سلطانه عدة من عتاد النصر على الأعداء في المعارك وعلى الأعداء في القرب والبعد وعلى المنافقين والذين همهم فتنة أهل الإيمان والسخرية بهم والنيل منهم إذا صحبها التوكل على الله تعالى ، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فقد رباه ربه على هذا المنهج كما في قوله تعالى : ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَتَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ۞ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ۞ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾[2] .

---

(١) سورة يونس : ٨٣ - ٨٦ .

(٢) سورة التوبة : ٤٩ - ٥١ .

١٧ - أن التوكل على الله تعالى حماية من الشيطان :

فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال - يعني إذا خرج من بيته - : باسم الله توكلت على الله لاحول ولا قوة إلاّ با لله . يقال له : كفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان »[١] .

وعند ابن أبي الدنيا عن عبدا لله بن ضمرة قال : قال كعب : « إذا خرج الرجل من بيته فقال : باسم الله توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلاّ با لله ، قال المَلَكُ : هديت وحفظت وكفيت . قال : فتجيء الشياطين ، فيقولون : ماتريدون إلى عبد قد هدي وكفي وحفظ ؟ ! »[٢] .

وفي السنن عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال - يعني إذا خرج من بيته - : بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلاّ با لله ، يقال حينئذٍ : هديت وكفيت ووقيت ، فتتنحى له الشياطين ، فيقول الشيطان

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ، باب ما يقول إذا خرج من بيته ، والترمذي في الدعوات ، باب مايقول إذا خرج من بيته ، وقال : (هذا حديث حسن صحيح غريب) ، ورجاله رجال الصحيح ، ولهذا صححه ابن حبان ... وأخرجه ابن أبي الدنيا في التوكل على الله ص ٦٧ - ٧٠ . دار الأرقم ، وأخرجه أحمد في المسند ١/٦٥ - ٦٦

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوكل على الله ص ٧٠ وعبدا لله بن ضمرة لم يوثقه غير العجلي وابن حبان وتساهلهما في التوثيق معلوم ، وبقية رجاله ثقات ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٣٨٩/٥ ، وعبدالرزاق في المصنف ٣١/١١ - ٣٢ ، وفيه سقط راوٍ .

وكعب هو : كعب الأحبار بن ماتع الحميري ، أسلم بعد وفاة النبي ﷺ وكان يهودياً قبل إسلامه . قال عنه الذهبي : (كان حسن الإسلام متين الديانة من نبلاء العلماء) .

لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي »[1] .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ ۞ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ ﴾[2] .

قال سيد قطب رحمه الله : (والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تمهيد للجو الذي يتلى فيه كتاب الله ، وتطهير له من الوسوسة واتجاه بالمشاعر إلى الله خالصة لايشغلها شاغل من عالم الرجس والشر الذي يمثله الشيطان .

فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم .. ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ ﴾ فالذين يتوجهون إلى الله وحده ويخلصون قلوبهم لله لايملك الشيطان أن يسيطر عليهم مهما وسوس لهم فإن صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه وينقادوا إليه وقد يخطئون لكنهم لايستسلمون فيطردون الشيطان عنهم ويثوبون إلى ربهم من قريب ...)[3] .

﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْن ﴾[4] .

فالمؤمنون لايتوكلون إلاّ على الله فليس وراء ذلك توكل ، وليس من دون الله من يتوكل عليه المؤمنون ، وقد وردت الأحاديث النبوية الكريمة بالنهي عن

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ، باب : مايقول إذا خرج من بيته .

(٢) سورة النحل : ٩٩ .

(٣) في ظلال القرآن ١٩٤/٤ .

(٤) سورة المجادلة : ١٠ .

التناجي في الحالات التي توقع الريبة وتزعزع الثقة وتبعث التوحس جاء في الصحيح من حديث الأعمش بإسناده عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلايتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه »[1] .

وهو أدب رفيع ، كما أنه تحفظ حكيم لإبعاد كل الريب والشكوك ، فأمَّا حيث تكون هناك مصلحة في كتمان سر ، أو ستر عورة ، في شأن عام أو خاص ، فلا مانع من التشاور في سر وتكتم .

فهذا هو الذي نهى عنه القرآن ونهى الرسول ﷺ ، وهذا هو الذي يفتت الأمة أو يوقع في صفوفها الشك وفقدان الثقة ، وهذا هو الذي يدبره الشيطان ليحزن الذين آمنوا . ووعدالله قاطع في أن الشيطان لن يبلغ بهذه الوسيلة مايريد في الأمة المؤمنة ؛ لأن الله حارسها وكالئها ، وهو معها في كل مناجاة وعالم بما يدور فيها من كيد ودس وتآمر ، ولن يضر الشيطان المؤمنين ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ .

﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾ فهو الحافظ ، وهو القوي العزيز وهو العليم الخبير ، وهو الحي الذي لايموت ولايكون في الكون إلاّ مايريد ، وقد وعد بحراسة المؤمنين فأي طمأنينة بعد هذا وأي يقين ؟ .

---

(١) أخرجه مسلم في السلام ، باب : تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه ، والترمذي في الأدب ، باب : ماجاء لايتناجى اثنان دون ثالث ، وابن ماجه في الأدب ، باب : لايتناجى اثنان دون ثالث ، والدارمي في الاستئذان ، باب : لايتناجى اثنان دون صاحبهما ، وأحمد في المسند ٣٧٥ ، ومواضع أُخرى .

١٨ - أن التوكل على الله سبب في دفع الشر عن المتوكل عليه سبحانه .

عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يخرج من بيته يريد سفراً أو غيره فقال حين يخرج : بسم الله ، آمنتُ بالله ، وتوكلتُ على الله ، لا حول ولاقوة إلاّ بالله ، إلاّ رزق خير ذلك المخرج ، وصرف عنه شر المخرج »[١] .

وعند ابن أبي الدنيا عن مجاهد قال : « كان يقال إذا خرج الرجل من المسجد فليقل : بسم الله ، توكلتُ على الله ، اللهم إني أعوذ بك من شر ما خرجت إليه »[٢] .

١٩ - التوكل سبب بل من أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق :

كما في حديث : « لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » .

وكما قال الله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَيَحْتَسِبْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾[٣] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦٥/١ - ٦٦ ، وابن السني في عمل اليوم والليلة ٤٩١ ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١٤٥/٩ - ١٤٦ ، من طريق أبي جعفر الرازي به ، ووقع عند أحمد عن رجل عن عثمان ، وإسناده ضعيف . وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٢٧٧/٣ : (رواه أحمد عن رجل لم يسمه عن عثمان ، وبقية رواته ثقات) ، وكذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٣١/١٠ .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوكل على الله ص ٧١ - دار الأرقم - بإسناد صحيح ، وأخرجه عبدالرزاق ٤٢٨/١ بسند صحيح أيضاً .

(٣) سورة الطلاق ٢ ، ٣ .

٢٠ - أن الرجاء مقرون بالتوكل على الله :

والرجاء مقرون بالتوكل ، فإن المتوكل يطلب ما رجاه من حصول المنفعة ودفع المضرة ، والتوكل لايجوز إلاّ على الله كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوْا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ ﴾[1] ، وقال ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُوْنَ ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُم اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِيْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْا مَا آتَاهُم اللهُ وَرَسُوْلُهُ وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِيْنَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُوْلُهُ إِنَّا إِلى اللهِ رَاغِبُوْنَ ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِيْنَ قَالَ لَهُم النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ ﴾[5] .

فهؤلاء قالوا : حسبنا الله أي : كافينا الله في دفع البلاء ، وأولئك أمروا أن يقولوا : حسبنا الله في حلب النعماء ، فهو سبحانه كاف عبده في إزالة الشر وفي إنالة الخير ، أليس الله بكاف عبده ، ومن توكل على غير الله ورجاه خذل من جهته وحرم : ﴿ مَثَلُ الَّذِيْنَ اتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوْتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوْتِ لَبَيْتِ الْعَنْكَبُوْت ﴾[6] ، ﴿ وَاتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِ اللهِ آلِهَةً

---

(١) سورة المائدة : ٢٣ .
(٢) سورة إبراهيم : ١٢ .
(٣) سورة آل عمران : ١٦٠ .
(٤) سورة التوبة : ٥٩ .
(٥) سورة آل عمران : ١٧٣ .
(٦) سورة العنكبوت : ٤١ .

لِيَكُوْنُوا لَهُمْ عِزاً ۞ كَلاَّ سَيَكْفُرُوْنَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُوْنُوْنَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾[1] .

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِا للهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِن السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِيْ بِهِ الرِّيْحُ فِي مَكَانٍ سَحِيْق ﴾[2] ، ﴿ لاَتَجْعَلْ مَعَ ا للهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوْماً مَخْذُوْلاً ﴾[3] ، وقال الخليل : ﴿ فَابْتَغُوْا عِنْدَ ا للهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوْهُ واشْكُرُوْا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ ﴾[4] .

فمن عمل لغير ا لله رجاء أن ينتفع بما عمل له ، كانت صفقة خاسرة ، قال ا لله تعالى : ﴿ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ ا للهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَا للهُ سَرِيْعُ الحِسَاب ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيْحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَيَقْدِرُوْنَ مِمَّا كَسَبُوْا عَلَى شَيْءٍ ﴾[6] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَاعَمِلُوْا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوْراً ﴾[7] ، وقال تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾[8] كما قيل في تفسيرها : كل عمل باطل إلاّ ما أريد به وجهه .

---

(١) سورة مريم : ٨٢ .

(٢) سورة الحج : ٣١ .

(٣) سورة الإسراء : ٢٢ .

(٤) سورة العنكبوت : ١٧ .

(٥) سورة النور : ٣٩ .

(٦) سورة إبراهيم : ١٨ .

(٧) سورة الفرقان : ٢٣ .

(٨) سورة القصص : ٨٨ .

فمن عمل لغير الله ورجاه بطل سعيه ، والراجي يكون راجياً تارة بعمل يعمله لمن يرجوه ، وتارة باعتماد قلبه عليه والتجائه إليه وسؤاله ، فذاك نوع من العبادة له ، وهذا نوع من الاستعانة به ، وقد قال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وقال ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[1] ، وقال : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَاب ﴾[2] .

٢١ – أن التوكل لايتعارض مع الأسباب كما سبق في مثل قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّل عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[3] .

ففي هذه الآية دليل على فضل التوكل على الله وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار ؛ لأن الله علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط ، فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه ؛ لأن الله تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له فعلم أن توكله هو سبب كون الله حسباً له .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِيْنَ لاَتَعْلَمُوْنَهُم اللهُ يَعْلَمُهُمْ ... ﴾ الآيات[4] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوْا فَي الأَرْضِ وَابْتَغُوْا مِنْ فَضْلِ اللهِ ﴾[5] .

---

(١) سورة هود : ١٢٣ .

(٢) سورة الرعد : ٣٠ .

(٣) سورة الطلاق : ٣ .

(٤) سورة الأنفال : ٦٠ .

(٥) سورة الجمعة : ١٠ .

وغيرها من الآيات والأحاديث - التي سبق الإشارة إليها - التي تدل على أن الأخذ بالأسباب واتخاذ أعوان من الخلق فيما يقدرون عليه من قضاء حاجة ودفع مكروه لاينافي التوكل على الله تعالى ، إذا اعتقد المتوكل اعتقاداً جازماً بأن قضاء الحاجة ودفع المكروه إنما هو بقضاء الله وقدره ولولاه سبحانه ماقضيت حاجة لأحد ولا كشفت كربة ، ولادفع مكروه ، وأن غاية مايقدرون عليه بذل الأسباب المحدودة المناسبة لقدرة المخلوق .

﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِيْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾[1] .

فالسبب له مسبب وخالق ، وليس فعل السبب وحده كافٍ في الوصول إلى المراد أو الحصول عليه ، فلابد من التوكل على الله مع فعله .

٢٢ - أن التوكل مرتبط بالإيمان والإسلام والتقوى :

ذكر ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى[2] وأنه من لوازم الإيمان ومقتضياته ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوْا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ ﴾[3] فجعل التوكل شرطاً في الإيمان فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل ، وفي الآية الأخرى ﴿ وَقَالَ مُوْسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوْا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِيْنَ ﴾[4] . فجعل دليل

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٠ .

(٢) طريق الهجرتين ص ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

(٣) المائدة : ٢٣ .

(٤) يونس : ٨٤ .

صحة الإسلام التوكل ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : « من ذروة الإيمان الاستسلام للرب جل جلاله »[1] ، وقال تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[2] فذكر اسم الإيمان ههنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل ، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه ، وأمَّا الجمع بين الإيمان والإسلام ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾[3] . وأمَّا الجمع بين التقوى والتوكل ففي مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ۞ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ۞ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾[4] ، وكذلك جمع بين التوكل والهداية كقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾[5] ، وقد جمع بين التوكل والعبادة في مثل قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[6][7] .

---

(١) هامش التوكل على الله لابن أبي الدنيا ص ٣٥ . مكتبة القرآن .

(٢) آل عمران : ١٦٠ .

(٣) يونس : ٨٤ .

(٤) سورة الأحزاب : ١ - ٣ .

(٥) سورة إبراهيم : ١٢ .

(٦) سورة هود : ١٢٣ .

(٧) انظر : طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ . الناشر : دار ابن القيم ط / ١ .

قال الله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى العَزِيْزِ الرَّحِيْمِ ﴾[1] : دعهم وعصيانهم متبرئاً من أعمالهم ، وتوجه إلى ربك معتمداً عليه مستعيناً في أمرك كله بـه ، ثـم أشـار إلى معنى قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّل عَلَى الله وَكَفَى بِاللهِ وَكِيْلاً ﴾ أنـه لايهمنـك أكـانوا معك أم كانوا عليك ، وألق بأمرك كله لله ، ثم بيّن أن هذه العنـاصر الثلاثـة مـن أول سورة الأحزاب إلى هذه الآية وهي : تقوى الله ، واتباع وحيـه ، والتوكـل عليـه مع مخالفة الكافرين والمنافقين هي العناصر التي تزود الداعية بـالرصيد وتقيـم الدعـوة على منهجها الواضح الخالص من الله وإلى الله وعلى الله ...[2] .

* * *

---

(١) سورة الشعراء : ٢١٧ .

(٢) انظر : في ظلال القرآن ٢٦٢٠/٥ ، ٢٨٢٣ . دار الشروق .

وأمّا أهم ثمرات التوكل فهي :

١ – أن الله يحقق للمتوكل عليه حق توكله : النجاة والرضوان والفضل والنعمة .

كما قال الله تعالى : ﴿ **الَّذِيْنَ قَالَ لَهُم النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ فَانْقَلَبُوْا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوْءٌ وَاتَّبَعُوْا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُوْ فَضْلٍ عَظِيْمٍ** ﴾[١] .

فقد عقب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل بحرف الفاء وهي تفيد السبب ، فدل على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل ، وأن هذا الجزاء : جزاء على ذلك العمل[٢] .

إن أكبر كرامة للعبد الصالح في هذه الحياة الدنيا هي الاستقامة على أمر الدين والتوفيق لمتابعة سنة سيد المرسلين ، ومنها التوكل على الله وحده والاعتماد عليه دون غيره .

وقال تعالى : ﴿ **وَالَّذِيْنَ هَاجَرُوْا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِمَا ظُلِمُوْا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوْا يَعْلَمُوْنَ ۞ الَّذِيْنَ صَبَرُوْا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ** ﴾[٣] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٢) انظر : جامع الرسائل لابن تيمية ص ٩٠ .

(٣) سورة النحل : ٤٢ .

فهؤلاء الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم ، وتعروا عما يملكون وعما يحبون وضحوا بدارهم وقرب عشيرتهم والحبيب من ذكرياتهم ... هؤلاء يرجون في الآخرة عوضاً عن كل ما خلفوا وكل ما تركوا ، وعانوا الظلم وفارقوه ، فإذا كانوا قد خسروا الديار ، فلنبوئنهم في الدنيا حسنة ، ولنسكننهم خيراً مما فقدوا ولأجر الآخرة أكبر لو كان الناس يعلمون هؤلاء الذين صبروا واحتملوا ما احتملوا ، وعلى ربهم يتوكلون ، لايشركون به أحداً في الاعتماد والتوجه والتكلان[1] .

٢ – أن المتوكل الصادق مع الله يعيش في معيته سبحانه لايخشى أحداً غير الله ويعلم أنه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن .

إذا شئتَ كان وإن لم أشـــأ　　　وإذا شئتُ إن لم تشأ لم يكن

٣ – أن تحقيق التوكل على الله تعالى يحقق للمتوكل محبته سبحانه وتعالى ، ومن أحب الله كان معه وأدخله الجنة : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيْظَ القَلْبِ لاَنْفَضُّوْا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْـرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِيْنَ** ﴾[2] .

فالتوكل على الله والاستعانة به ودعاءه ومسألته دون ماسواه يقضي للعبد محبة الله والشكر له وإحسانه إليه سبحانه وإسباغ نعمه عليه[3] .

---

(١) انظر : في ظلال القرآن ٢١٧٢/٤ .

(٢) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٣) انظر : الفتاوى ٢٨/١ .

إن الخلة التي يحبها الله ويحب أهلها هي التي ينبغي أن يحرص عليهـا المؤمـن في كل أمر وهي التوكل على الله .

بل هي الصفة التي تُميز المؤمنين عن غيرهم ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِيْنَ ﴾ .

قال سيد قطب رحمه الله : (والتوكـل علـى الله ورد الأمـر إليـه في النهايـة هـو خط التوازن الأخير في التصور الإسلامي وفي الحياة الإسلامية وهو التعامل مع الحقيقـة الكبيرة ، حقيقة أن مرد الأمر كله لله ، وأن الله فعال لما يريد ...)[1] .

ويقرر الله تعـالى في هـذا الـدرس حقيقـة التوكـل علـى الله ، وإقامتهـا علـى أصولها الثابتة ، بأن القوة الفاعلة في النصـر والخـذلان هـي قـوة الإلـه الأحـد الفـرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، فعندها يلتمس النصر وتتقـى الهزيمـة ، وإليهـا يكـون التوجه وعليها يكون التوكل بعد اتخاذ الأسباب وترك التفكر والانشـغال بـالعواقب بتعليقها بقدر الله تعالى : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِيْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾[2] .

إن عمل الإنسان وعبادته وطاعته لأوامر الله تعالى وبذل الجهد : أسباب فاعلة في حصول النتائج ، ولكن لاتكفى بل وليست الأسباب هي التي تنشيء النتـائج ، إنمـا الذي ينشوها ويحققها هو الله صاحب القدرة والمشيئة في كل الأمور : ﴿ وَمَا تَشَاؤُوْنَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾[3] .

---

(١) في ظلال القرآن ١/٥٠٣ .

(٢) سورة آل عمران : ١٦٠ .

(٣) آخر سورة الإنسان .

هكذا تظل النتائج في أي عمل من الأعمال متعلقة بقدرة الله ومشيئته وحده لا شريك له : ﴿ **وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ** ﴾[1] ، يتوكلون عليه وحده في إحداث النتائج وتحقيق المصاير وتدبير الأمر كله ، ويتقبلون ذلك بنفوس مطمئنة .

﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِيْ وَادْخُلِي جَنَّتِيْ** ﴾[2] .

نعم إن المؤمن المتوكل على الله تعالى في السراء والضراء ، في البسط والقبض في النفع والعطاء ، يحصل على هذه النتيجة يوم الفزع الأكبر تطمئن نفسه يوم يرتاع الناس ، وترضى يوم الهول والرعب ، ويدخل الجنة بأنفاسها الرضية الندية .

٤ – أن من حقق التوكل على الله فقد حقق رضوان الله ويدخل الجنة بغير حساب كما في الآية السابقة : ﴿ **الَّذِيْنَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً وَقَالُوْا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ فَانْقَلَبُوْا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوْءٌ وَاتَّبَعُوْا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُوْ فَضْلٍ عَظِيْمٍ** ﴾[3] .

وكما في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وهم : « الذين لايسترقون ولايتطيرون ولايكتوون وعلى ربهم يتوكلون » .

---

(١) سورة آل عمران : ١٢٢ ، ١٦٠ ، والمائدة : ١١ ، والتوبة : ٥١ ، وإبراهيم : ١١ ، والمجادلة : ١٠ ، والتغابن : ١٣ .

(٢) آخر سورة الفجر .

(٣) سورة آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤ .

٥ – أنه يحقق الطمأنينة وسكون النفس والسعادة في الدنيا والآخرة :

للتوكل على الله أثر في بث السكينة في نفوس المؤمنين الصادقين ؛ لأنهم يؤمنون بأن بيد الله تصاريف الحياة ومنه النفع والضر ، فيرضون بما قدره لهم ، ويتركون الأمر إليه سبحانه ، لا يفزعهم المستقبل ويستعيضون عن الخوف بسكينة وطمأنينة إلى عدل الله ورحمته .

ولهذا بين الله تعالى أن الإيمان لابد أن يصاحبه التوكل على الله : ﴿ **وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوْا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ** ﴾[1] ، ﴿ **اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ** ﴾[2] .

وهذا يمسح ما في نفوس المؤمنين من الخوف ويمدهم بقوة روحية وسعادة أبدية يتغلبون بهما على خوفهم وقلقهم مما يصيبهم ويتعرضون له : ﴿ **فَمَا أُوْتِيْتُمْ مِنْ شَيءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ** ﴾[3] ، ﴿ **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾[4] . أي : كافيه مما أهمه وأحزنه .

هذا هو الزاد الروحي الذي يعطى المؤمن بسمة أمام أصعب الساعات التي تمر به ، ويهبه سكينة حرم منها كثير من سكان الأرض .

---

(١) المائدة : ٢٣ .

(٢) آل عمران : ١٦٠ .

(٣) الشورى : ٣٦ .

(٤) الطلاق : ٣ .

وسيد المتوكلين ﷺ أمره الله أن يقول : ﴿ ... **حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾[1] .

(إنها الطمأنينة والثقة التي لاتخاف ولاتقلق ، واليقين الذي لايتزعزع والمضي على الثقة)[2] .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : (من ترك الاختيار والتدبر في رجاء زيادة أو خوف نقصان أو فرار من سقم ، وعلم أن الله على كل شيء قدير ... ، وأنه أعلم بمصلحته من العبد وأقدر على جلبها وتحصيلها ... ، وأرحم به منه ، وعلم مع ذلك أنه لايستطيع أن يتقدم بين يدي تدبيره خطوة واحدة ولايتأخر ... ، فألقى بنفسه بين يديه وسلم الأمر كله إليه ، وانطرح بين يديه انطراح عبد مملوك ضعيف بين يدي مالك عزيز قاهر له التصرف في عبده كما يشاء وليس للعبد التصرف فيه بوجه من الوجوه ، فاستراح حينئذٍ من الهموم والغموم ... ، وحمل حوائجه ومصالحه من لايبالي بحملها ولاتثقله فتولاها دونه وأراه لطفه وبره ورحمته وإحسانه فيها من غير تعب العبد ؛ لأنه قد صرف همه إلى ربه وفزع قلبه إليه ، فما أطيب عيشه وما أنعم قلبه وأعظم سروره وفرحه ... ، وإن أبى إلاّ تدبيره لنفسه دون ربه خلاه وما اختاره وولاه ما تولى فدخل عليه الهم والحزن والنكد والخوف والتعب فلا قلب ولا عمل يزكو ... ، فالله تعالى قد أمر العبد بأمر وضمنه له فالنصر لمن

---

(١) سورة الزمر : ٣٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٥/٣٠٥٤ . دار الشروق .

توكل عليه والرزق لمن عبده والمغفرة لمن استغفره ، فمن علامات السعادة صرف اهتمامه إلى أمر الله دون ضمانه ، ومن علامات الحرمان فراغ قلبه من الاهتمام بأمره وحبه وخشيته والاهتمام بضمانه ...)[1] .

ومما يدل على هذه الخصيصة وهي بث السكينة في النفس قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ ﴾[2] ، أي : يعتمدون عليه بقلوبهم مفوضين إليه أمورهم فلايرجون سواه ، ولايقصدون إلاّ إيَّاه ، ولايرغبون إلاّ إليه يعلمون أن ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك وحده والمعبود وحده لاشريك له ، وفي الآية وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسان وهي : الخوف ، وزيادة الإيمان ، والتوكل على الله وحده ، وهذه المقامات تقتضي كمال الإيمان وحصول أعماله الباطنة والظاهرة)[3] .

٦ – من ثمرات التوكل على الله : العلم بأنه لا نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع ولا هدى ولا ضلال ولا نصر ولا خذلان ، ولا خفض ، ولارفع ، ولا عز ولا ذل إلاّ بإذن الله[4] .

٧ – أن اعتماد العبد على الله بالتوكل عليه يكفيه مؤونة الناس والحاجة إليهم

---

(١) انظر : الفوائد لابن القيم ص ١٤٨ ، ١٤٩ . دار النفائس ط / ١ ، ٦ .

(٢) سورة الأنفال : ٢ .

(٣) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ص ٣٥٤ ، توزيع مكتبة ابن تيمية ، القاهرة – مكتبة السنة المحمدية .

(٤) انظر : الفتاوى ٢٧/١ .

بلا ريب ، وإن لم يرضوا عنه ، كما قال ا لله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ا للهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَيَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ا للهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[1] .

أي : كافيه من كل أحد أو عن كل أحد سوى ا لله .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِيْنَ قَالَ لَهُم النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوْا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً وَقَالُوْا حَسْبُنَا ا للهُ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ فَانْقَلَبُوْا بِنِعْمَةٍ مِنَ ا للهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوْءٌ وَاتَّبَعُوْا رِضْوَانَ ا للهِ وَا للهُ ذُوْ فَضْلٍ عَظِيْمٍ ﴾[2] .

٨ - الرضا بقضاء ا لله وقدره :

وهذا من أعظم الثمرات التي يحصل عليها المتوكل على ا لله سبحانه وتعالى ، وفي الحديث : « اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ... ، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به »[3] .

وقال ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من رضي با لله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً »[4] . والرضا با لله رباً يتضمن أن يكون المؤمن في غاية الرضا عما يفعله ا لله ويقسمه له عطاءً أو منعاً .

---

(١) سورة الطلاق : ٢ ، ٣ .

(٢) سورة آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٣) سبق تخريجه ص ٨٧ .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٥٦ ، باب : الدليل على أن من رضي با لله رباً ... الخ ، والإمام أحمد في المسند ٢٠٨/١ .

٩ – من ثمراته أيضاً : أنه يسبب الغنى والعز للمؤمن ، كما قال الحسن رحمه الله تعالى : (العز والغنى يجولان في طلب التوكل ، فإذا ظفرا أوطنا)[1] .

وقال الشاعر :

يجول الغنى والعــز في كل موطن ... ليستوطنا قلب امــرئ إن توكلا

ومن يتوكل كان مــولاه حسبه ... وكان له فيما يحــاول معقــلا

إذا رضيت نفسي بمقــدور حظها ... تعالت وكانت أفضل الناس منزلا[2]

١٠ – أن من استغنى وتصبر وتعفف متوكلاً على الله فقد نجح وانتفع في حياته وأموره كلها .

١١ – أن من يحقق التقوى والتوكل على الله سبحانه في كل الأمور فقد حقق الإيمان والتوحيد والعبادة لله وحده لاشريك له .

كما قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَيَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[3] . يعني لو حققوا التقوى والتوكل لاكتفوا بذلك في مصالح دينهم ودنياهم .

* * *

(١) التوكل على الله لابن أبي الدنيا ص ٦٥ . دار الأرقم .

(٢) هامش التوكل على الله لابن أبي الدنيا ص ٦٥ . دار الأرقم .

(٣) سورة الطلاق : ٢ – ٣ .

الخَاتِمَة

وبعد :

فإن عقيدة التوكل على الله تعالى يجب ألاّ تغيب عن أيّ ميدان من ميادين الحياة ، وعن أيّ عمل من أعمال المسلم ؛ لأنها رأس الإيمان .

فهي خاتمة الوصايا لمحمد ﷺ من ربه عز وجل الغفور الرحيم رب العرش العظيم .

﴿ فَإِن تَوَلَّوا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيْمِ ﴾[1] .

فيجب أن يتذكر أتباع رسول الله ﷺ هذه الوصية عند فعل الأسباب في كل الأمور ، فإن ذلك هي الميزة المميزة لأهل الإيمان دون غيرهم ، فحسبهم الله ، وكافيهم الله ، أما غير المؤمنين بالله فإن حسبهم ما اتكلوا عليه سوى الله .

﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِيْنَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِيْنَ فِيْهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيْم ﴾[2] .

وهذا مصير من زعم أنه مستغن عن الله فلا يتوكل عليه ولا يلتجيء إليه .

---

(١) سورة التوبة : ١٢٩ .

(٢) سورة التوبة : ٦٨ .

إن توكل المؤمن على الله والاعتماد عليه وحده كاف له ، حين يتولى عنه من يتولى من أصحاب المصالح والأهواء ، وحين يخذله من يخذله من النصراء ؛ لأنه يرتكن إلى القوة الحقيقية التي تدفع الضر عن المسلم ، إنها قوة الله وحفظه .

ولا ضير في أن يتوكل العبد على الله فيما شاء صغر أو عظم ، لكن المفترض في المؤمن أن يكون توكله في جميع أموره الدينية والدنيوية ، وألا يجعل توكله محصوراً في جزئية معينة ، وإن صح هذا أو غيره مما ذكر فقد يكون من قبيل ما يكرم الله سبحانه به بعض عباده لكن لا يجوز أن يؤخذ على أنه قاعدة مطردة فاتخاذ الأسباب المأمور بها أمر ضروري لا انفكاك عنه ، فمن ترك الأسباب بحجة التوكل فقد جعل توكله عجزاً .

والتوكل على الله لا يتصور إلا ممن وثق بالله وسلم أمره إليه ورضي بكل ما يجريه عليه ، بحيث لا يجد في نفسه أدنى شك بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

هذا وغيره مما توصلت إليه في هذا البحث ، وهو واضح والحمد لله لدى كل مؤمن عالم بهذا الدين الحنيف .

والمتتبع لهذا البحث من خلال مباحثه السابقة يتضح له ما يلي :

يتضح لنا من تعريف التوكل على الله في اللغة : أنها لفظة أصيلة في لغة العرب وأنها تحمل معان لغوية عظيمة منها :

١ – أن المتوكل بالأمر هو من يضمن القيام به لقدرته عليه ، وهذا لا يكون من مخلوق ، بل من الله وحده .

٢ – أن الالتجاء والاعتماد في توكيل الأمر إلى الغير : الاستكفاء ثقة بكفاية الوكيل أو عجزاً عن القيام بالأمر ، وأعظم من يُلتجأ إليه ويستكف به ويوثق به في أي أمر من الأمور : هو الله تعالى .

٣ – أن التوكل إظهار للعجز وقلة الحيلة ، وضعف القوة ، فيعتمد المتوكل العاجز ... على من هو أقوى وأقدر وأحكم منه ، والله سبحانه القادر على أن يقول للشيء كن فيكون ، فهو الذي يكفي العاجز والضعيف دون سواه .

٤ – أن المتوكل على الله : يعلم أن الله كافل رزقه وأمره ، فيركن إليه وحده ولا يتوكل على غيره .

٥ – أن الاعتماد على غير الله فيما يقدر عليه لا يسمى توكلاً إنما يسمى وكالة ، وأن الموكول إليه بأمر من الأمور يسمى وكيلاً .

٦ – أن لفظ : الوكيل لفظ مشترك في اللفظ بين الوكيل سبحانه ومن وكل إليه أمر من الأمور الدنيوية من المخلوقين ، وليس الوكيل كالوكيل ، فالوكيل سبحانه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[١] .

٧ – التوكل على الله معناه : الاستسلام إليه في كل الأمور ، أما توكيل غير الله أو الاعتماد في أمر من الأمور ، فإنه تفويض له ونيابة عنه فقط دون استسلام إليه .

---

(١) سورة الشورى : ١١ .

٨ – أن هناك فرقاً بين التوكل ، والتواكل ، فالتوكل : اعتماد على ا لله ثقة به ورضى بما يفعل سبحانه ، أما التواكل : فهو اتكال كل واحد من المخلوقين على الآخر في فعل أمر من الأمور ، قد لا يتحقق منه شيء من الطرفين .

٩ – أن ا لله يوكل العبد ويقيمه في حفظ ما وكل إليه ، والعبد المؤمن يتوكل على ربه سبحانه ويعتمد عليه في كل الأمور .

وأما تعريف التوكل في الاصطلاح ، فقد تبين أن الناس قد عرفوا التوكل بتعريفات متعددة ، فكل عالم عرفه بتعريف يرى حسب فهمه واعتقاده أنه جامع مانع .

فالذين يرون أن التوكل : اعتماد على ا لله ثقة به ، وأن فعل الأسباب جزء منه ، وأن ذلك دليل على افتقار العبد إلى ا لله ، ورضاء بقضاء ا لله وقدره ، يعرفونه تعريفاً غير تعريف من ظن أن فعل الأسباب ينافي التوكل ، وأن التوكل استسلام القلب فقط ، وانطراحه بين يدي الرب كانطراح الميت بين يدي الغاسل ، وهذا مَثَلُهُ مَثَلُ مَنْ يرى أن أعمال الجوارح لا تدخل في مسمى الإيمان ، وأن الإيمان يقوم بالقلب فقط ، فقول العبد وفعل جوارحه لا تسمى إيماناً عندهم .

وهذا جهل بالشرع ، وسوء في الفهم ، وانحراف في الاعتقاد .

والحقيقة أن من كان أعلم با لله وبشرعه كان توكله أصح وأقوى ، وكان صاحبه أقدر على تعريف التوكل بتعريف جامع مانع .

ومن حقيقة التوكل يظهر لنا عدة أمور منها :

١ – أن لكل شيء حقيقة تعرف من التطبيق العملي لها فالادعاء في الأشياء لا يكفي وحده ، ولذلك قال الله تعالى للمؤمنين : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لِمَ تَقُوْلُوْنَ مَا لا تَفْعَلُوْنَ ۞ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُوْلُوْا مَا لا تَفْعَلُوْنَ** ﴾[1] .

فصدق التوكل على الله والثقة به ، لا تظهر إلا بالعمل بأوامر الله واجتناب نواهيه .

فاتباع أمر الله في قوله سبحانه : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُوْلاً فَامْشُوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوْا مِنْ رِزْقِهِ** ﴾[2] .

وفي قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوْا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوْا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيْراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ** ﴾[3] .

وقوله عزو وجل : ﴿ **وَأَعِدُّوْا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُوْنَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ...** ﴾[4] .

وغيرها من الأوامر الكثيرة في القرآن والسنة ، دليل على صدق التوكل على الله والثقة به والاستسلام له دون غيره .

---

(١) سورة الصف : ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الملك : ١٥ .

(٣) سورة الجمعة : ١٠ .

(٤) سورة الأنفال : ٦٠ .

واجتناب النواهي في مثل قول الله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إِذَا نُوْدِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُم إِن كُنتُم تَعْلَمُونَ ﴾[1] .

وقوله عز وجل : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوْمًا مَحْسُوْرًا ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيْرًا بَصِيْرًا ﴾[2] .

وقوله ﷺ : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم » .

وغيرها من النواهي في القرآن والسنة دليل على صدق التوكل على الله والثقة به سبحانه والاستسلام لأمره .

٢ – أن حقيقة التوكل على الله السعي فيما لا بد منه .

فلا بد من المطعم والمشرب ، والله قد أمر بذلك في نصوص كثيرة .

ولا بد من التداوي من الأمراض كما في الأحاديث السابقة ، ولا بد من التحرز من الهلكة ، ولا بد من الحذر من العدو وأخذ العدة لدفعه وكسر شوكته .

وكل هذه الأمور هي حقيقة التوكل على الله لأنها أمور لا بد منها ، وقد أمر الله بها الأنبياء عليهم السلام وأممهم .

---

(١) سورة الجمعة : ٩ .

(٢) سورة الإسراء ٢٩ ، ٣٠ .

٣ - أن حقيقة التوكل على الله اليأس مما عند غير الله والاعتماد والركون إلى الرازق والخالق المحيي المميت المعطي سبحانه وتعالى دون غيره .

٤ - أن حقيقة التوكل على الله طلب الإعانة من الله على فعل الأسباب ، والرغبة في الحصول على المطلوب من فعل الأسباب فهو عبادة واستعانة كما في قوله سبحانه : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ .

٥ - أن حقيقة التوكل : الرضا والتسليم لقضاء الله وقدره ، ويقينه أن الأسباب لا تجلب بذاتها نفعاً ولا ضراً ، إنما ذلك بقضاء الله وقدره .

أما ما أحب أن أشير إليه مما توصلت إليه في منزلة التوكل وفضله .

فهو أنه من أعظم الواجبات ، وأفضل ما يتعبد به من الأعمال القلبية ، وأعلى مقامات العقيدة وتوحيد الله سبحانه ، وأنه متعلق بكل أمور العبد بل جزء من عقيدته وإيمانه ، فهو أصل أصل الأصول : الإيمان ، والقاعدة التي يفيء إليها القلب ويعرف بها حدوده ، وينتهي عندها مسلماً الأمر إلى مولاه في ثقة وطمأنينة ويقين .

ولهذا تميز أصحابه بشعارهم المميز « **حسبنا الله ونعم الوكيل** » إبراهيم عليه السلام ومن كان على ملته إلى يوم القيامة .

والتوكل يزيد وينقص كما يزيد الإيمان وينقص ، ذكره الله في مقامات عظيمة شريفة : في الجهاد في سبيل الله ، في الدعوة ، في طلب الرزق ، في العهود والمواثيق ، بل في مقام العبادات كلها .

وأما درجاته التي لا تتم حقيقته إلا بها ، فإنها تبدأ بمعرفة الله سبحانه وتعالى وصفاته ، وفعل الأسباب التي أمر الله بها أو أباحها ، مع رسوخ القلب في مقام توحيد الله تعالى ، والاعتماد عليه وحده دون سواه في كل أمر من الأمور ، وحسن الظن به جل وعلا مسلماً قلبه لخالقه ، ومفوضاً أمره إلى مولاه ، راضياً بما يقدر له وعليه ، متبعاً في ذلك سنة رسوله ﷺ وأمره قائلاً : « واقدر لي الخير كله حيث كان ثم رضني به » ، مستلهماً قول الرسول ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من قال : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً » .

وقد بينت الفرق بين التوكل على الله تعالى والتواكل ، وأن صفة التوكل محمودة والتواكل مذموم ، وأن التوكل على الله سلوك الأنبياء والرسل عليهم السلام ، وأن التواكل سلوك العاجزين الخاملين ، وإن ادعوا أنهم بترك العمل وفعل الأسباب متوكلون ، لكنهم متكلون مقصرون في تنفيذ أوامر الله تعالى في الأخذ بالأسباب .

وهذا الأمر قد ألهم الله به المخلوقات الضعيفة ، فنفذت وأطاعت وعملت : فكيف بالعقلاء من عباد الله من بني آدم .

وقد اتضح والحمد لله لكل صاحب عقل أن ترك الأسباب بدعوى التوكل يقدح في التوكل ويخرجه من كونه توكلاً على الله إلى اتكال على مخلوق ، أو قتل للنفس أو تعذيب لها ، وهذا كله يضاد الشرع والعقل .

أما ما توصلت إليه في الحديث عن أقسام التوكل وأنواعه : فهو أن التوكل على الله يجمع بين أصلين عظيمين هما : علم القلب وعمله ، علمه بأن الله مقدر الأشياء ومدبر الأمور كلها ، ويقينه بأنه كاف عبده وأنه لا شيء مثله ولا رب سواه ولا معبود بحق إلا هو ، فهو الرازق النافع الضار ، ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن .

وأما عمله : فالسكون للخالق والاعتماد عليه والثقة به والطمأنينة والرضا بحكمه وقضائه وقدره واستسلامه لربه جاعلاً كل ذلك فوق رضى النفس .

ثم إن التوكل على الله نوعان : توكل عليه في تحصيل المراد والحظ مع الطلب ومعاطاة الأسباب أو مع اسقاط طلب الخلق والاعتماد عليهم من دون الله ، أما ما كان من غير معاطاة الأسباب واسقاط الطلب من الله ، فإن ذلك مذموم .

وتوكل على الله في تحصيل مرضاة الرب سبحانه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة والدعاء والذكر ، وغير ذلك من عبادة الله القولية والفعلية .

وأما التوكل على غير الله فإنه ينافي التوكل على الله ويضاد التوحيد ، وهو يوجب الضرر والهلكة لصاحبه ، سواء توكل على المخلوق في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله ، أو دعا غير الله في دفع ضر أو جلب نفع لا يستطيعه المخلوق ، فإن ذلك شرك أكبر .

أما اعتماده على هذا المخلوق فيما يقدر عليه من الأسباب الظاهرة العادية ، فإنه نوع شرك خفي لا يخرج من الملة ، لكنه مضر بدين العبد ، قادح في كمال توحيده .

فلا بد أن يتوكل على الله وحده في حصول مأموله ، من توكيل أو طلب المخلوق ، وأن ذلك لا يتم له إلا بقضاء الله وقدره حتى يسلم توكله وتوحيده .

أما فيما يضاد التوكل على الله فقد عرفنا بعض ذلك مثل الطيرة ، وإتيان الكهان والتعلق بهم ، وتعليق التمائم ، وإتيان السحرة وتصديقهم ، وسوء الظن بالله عز وجل ، ولبس الحلقة والخيط ونحوها والاستعاذة بغير الله تعالى .

وأن من توكل على غير الله تعالى بأي طريق ، من هذه الطرق أو غيرها ، أتاه الشر في الدنيا والآخرة ، مقابلة له بنقيض قصده وسوء ظنه بالله تعالى ، وهذه سنة الله تعالى ولن تجد لسنته تبديلاً .

فإن من يطمئن إلى غير الله أو يثق بسواه ، أو يركن إلى مخلوق يدبر أمره ، فإنه يستحق ما يجريه الله له في الدنيا والآخرة من الخسارة والمعاقبة والهلكة .

أما في مبحث التوكل وفعل الأسباب ، فقد توصلت إلى أن فعل الأسباب لا ينافي التوكل على الله تعالى ، وأنه لا يعتمد عليها فاعلها لذاتها ، بل هي وسيلة يفعلها ويتخذها للوصول إلى ما يريد فإن حصل له ما أراد فهذه نعمة من الله وفضل عليه أن يحمد الله تعالى على ذلك ، وإن حصل له غير ما أراد أو غير ما أحب ، فهذا قدر الله لا بد أن يرضى به ويسلم .

ثم إن الأسباب منها الواجب فعله أو المستحب أو المباح الجائز ، وهذه الأسباب الشرعية التي أمر الله بها ورسوله ، أو حث عليها أو رغب فيها أو رخص لفاعلها .

ومنها المحرم أو المذموم غير الجائز ، كاتخاذ الأولياء عند الصوفية والشيعة ومن سار على نحو هذا المنهج : وسطاء أو شفعاء أو تفويض الأمر إليهم ورجاؤهم في اجتلاب نفع أو دفع ضر .

فهذا كما قال الراجز :

كم سبب يفعله الإنسان ... هو هَلْكُهُ يسخطه الديان[1]

وقيل عن الشرعية والمذمومة :

وعندنا الأسباب منها ما حمد ... ففعلها ليس إذ لم يتعمد

وبعضها عنها النبي ينهى ... فابحث عن المطلوب تدري الكنها[2]

وترك الأسباب المشروعة ترك للاستعانة با لله ، بل ترك لعبادة ا لله وعجز ، ذمه الشرع على لسان المصطفى ﷺ ، يُلجىء الإنسان إلى الذلة والركون إلى المخلوقين ، وإراقة ماء الوجه لغير ا لله تعالى ، والالتفات إلى غيره في السؤال والطلب .

فالتوكل على ا لله عمل وأمل ، مع هدوء قلب وطمأنينة نفس ، واعتقاد جازم أن ما شاء ا لله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن ا لله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

وكل شيء لا بد فيه من فعل الأسباب المشروعة ، مع تعليق حصول المراد على مشيئة ا لله وقدرته ، حتى يكون توكلاً على ا لله .

---

(١) مجموعة القصائد الزهديات للسلمان ٢/٧ .

(٢) مجموعة القصائد الزهديات للسلمان ٢/٨ .

وبذلك عرفنا من ضل في هذا من القدرية الذين جعلوا الأسباب كل شيء لذاتها فيطلبون الجزاء عليها كما يطلب الأجير أجره من صاحب العمل .

ورددنا عليهم بأن الله سبحانه ليس في حاجة إلى أعمالهم التي يطلبون أجرها منه ، وأنهم بذلك يمنون على الله تعالى بأعمالهم ، مع أنه سبحانه قد بين ما يسعد الخلق وما يشقيهم ، وأنه مقدر كل شيء لحكمة يعلمها ويريدها سبحانه ، فلا يستطيع أحد أن يطيعه في أمره من غير معونته وتسديده سبحانه وتعالى .

أما ضلال بعض الصوفية في باب التوكل على الله فهو اعراضهم عن الأسباب المشروعة أو المستحبة ، واتكالهم على عفو الله وفضله ورحمته وزعمهم أن هذا هو التوكل على الله سبحانه .

وقد ناقشتهم في ذلك وتوصلت إلى أن السبب هو جهلهم بالشرع واتخاذهم رؤساء جهالاً بدين الله تعالى بعضهم عوام لا يفقه شيئاً من الدين .

وقد جعلوا التوكل من باب المعارف والعلوم فقط ، وهذا لا يقبله العقلاء فضلاً عن العلماء بشرع الله تعالى ودينه .

وتوصلنا إلى أن قولهم هذا يوصلهم إلى الكفر بالله وبرسله وكتبه المنزّلة .

وأما ما أوردوه من الشبهة الشرعية أو العقلية ، فهي مردودة عليهم من وجوه متعددة ، مرَّ ذكرها عند الحديث عن تلك الشبه .

ومما توصلت إليه في هذا البحث : تقرير ما دل عليه الشرع من أن السعي في طلب الرزق بأسبابه المتعددة ، لا ينافي التوكل على الله ، بل هو جزء التوكل وفعل

الأنبياء عليهم السلام ، وهو عون على طاعة الله تعالى ، وصون لماء الوجه وإكرام للعرض ، وسبب في عدم تعلق قلب العبد بغير الله ، وأكل أفضل المال الحلال وهو عمل يده .

وأن التداوي من الأمراض بالأدوية المباحة أو بالرقى ، المذكورة في الكتاب والسنة لا تنافي التوكل على الله ، بل حث عليها الإسلام وما حث عليه الإسلام ، فهو جزء التوكل على الله سبحانه وتعالى .

أما التداوي بما حرم الله ، فإن الله لم يجعل شفاء الأمة فيه ، وهو ينافي التوكل على الله تعالى .

وقد توصلت في نهاية البحث إلى استنباط بعض خصائص التوكل ، وذكر بعض ثمراته ، علها تكون دافعاً قوياً لتقوية الثقة بالله ، والاعتماد عليه واللجوء إليه ، في كل أمر من الأمور ، والرضا بقضائه وقدره سبحانه وتعالى .

« اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك » . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

* * *

فهرس الآيات الواردة في البحث

سورة النساء

سورة المائدة

سورة الأعراف

سورة يونس

سورة يوسف

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الإسراء		
﴿ ولاتجعل مع ا لله إلهاً آخر ﴾	٢٢	٢٣٠
﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾	٢٩	٢٤٨
﴿ إن ا لله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾	٣٠	٢٤٨
﴿ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة ﴾	٨٢	١٩١
سورة الكهف		
﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما ﴾	٧٧	١١٣
سورة مريم		
﴿ وهزي إليك بجذع النخلة ﴾	٢٥	٣٠ ١٤٩ ١٧٣
﴿ رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده ﴾	٦٥	١١
﴿ واتخذوا من دون آلهة ليكونوا ﴾	٨١	١٠٦ ٢٣٠
﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ﴾	٨٢	١٠٦ ٢٣٠
سورة الحج		
﴿ ومن يشرك با لله فكأنما خر من السماء ﴾	٣١	١٠٦ ٢٣٠
سورة المؤمنون		
﴿ ومن يدع مع ا لله إلهاً آخر لا برهان له به ﴾	١١٧	١٠٨

* * *

فهرس الأحاديث الواردة في البحث

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

* * *

فهرس الآثار الواردة في البحث

* * *

فهرس الأشعار مرتبة حسب ورودها في البحث

الأبيات		الصفحة

* * *

فهرس الأماكن والبلدان

اسم المكان أوالبلد	الصفحة

* * *

فهرس الأعلام

اسم العلم	الصفحات

اسم العلم	الصفحات

اسم العلم	الصفحات
ابن ماجه	١٧ ٧٨ ٨٢ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١١٨
	١١٩ ١٢٥ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٣ ١٣٨ ١٤٤
	١٥٢ ١٥٦ ١٦٤ ١٧٩ ١٨١ ١٨٣ ١٨٤
	١٨٥ ١٨٧ ١٩٢
أبي بن كعب	١٩٤
أبو إسماعيل الهروي	٢٣
أبو الدرداء	٢٠٣
أبو السفر	١٢٥
أبو القاسم القشيري	٣١
أبو أيوب الأنصاري	٢٣
أبو بردة	١٢٥
أبو بكر	٥٢ ١٧٦ ٢٠٥
أبو جعفر الباقر	١٧٩
أبو جعفر الرازي	٢٢٨
أبو جعفر الطبري	٣٠ ٥٨ ٧٧ ١٤٣ ١٨٩ ١٩٨
أبو حامد الغزالي	٦ ٢٤ ٩٤
أبو حنيفة	١٨٩
أبو خزامة	١٩٢
أبو داود	١٨ ٢٠ ٤٥ ٥٢ ٥٨ ٧٨ ٧٩

اسم العلم	الصفحات
....	٨٣ ٨٧ ١٠٢ ١١٨ ١١٩ ١٢٢ ١٢٣
....	١٢٤ ١٢٥ ١٢٩ ١٤٣ ١٥٤ ١٦٢ ١٧٩
....	١٨٧ ١٨٨ ٢٠٣ ٢١٩ ٢٢٠

اسم العلم	الصفحات

اسم العلم	الصفحات

اسم العلم	الصفحات

اسم العلم	الصفحات

اسم العلم	الصفحات

اسم العلم	الصفحات

اسم العلم	الصفحات

اسم العلم	الصفحات

اسم العلم	الصفحات

* * *

فهرس المراجع والمصادر

اسم الكتاب	اسم المؤلف أو المحقق	بيانات الطبعة
١ – إحياء علوم الدين	الغزالي	دار القلم – بيروت
٢ – الأدب المفرد	البخاري	المطبعة العصرية – الإمارات
٣ – الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد	د . صالح الفوزان	طبع ونشر الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء
٤ – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن	الأمين الشنقيطي	المطابع الأهلية – الرياض
٥ – الأعلام	خير الدين الزركلي	دار العلم للملايين – بيروت
٦ – الاكتساب في الرزق والمستطاب	محمد بن الحسن الشيباني	دار الكتب العلمية – بيروت
٧ – بدائع الفوائد	ابن القيم	دار الفكر – بيروت
٨ – البداية والنهاية	ابن كثير	مكتبة المعارف – بيروت
٩ – بهجة المجالس وأنس المجالس	ابن عبدالبر القرطبي	دار الكتب العلمية – بيروت
١٠ – تاج العروس من جواهر القاموس	محمد الزبيدي	المطبعة الخيرية – مصر
١١ – تاريخ بغداد	الحافظ أبي بكر البغدادي	دار الكتب العلمية – بيروت
١٢ – التدمرية	ابن تيمية	ط١ شركة العبيكان – الرياض

اسم الكتاب	اسم المؤلف أو المحقق	بيانات الطبعة
١٣ – الترغيب والترهيب	المنذري	ط١ مطبعة السعادة – مصر
١٤ – التصوف في ميزان البحث والتحقيق	عبدالقادر السندي	
١٥ – تفسير القرآن العظيم	ابن كثير	إحياء الكتب العربية – مصر
١٦ – التفسير والمفسرون	د . محمد حسين الذهبي	دار الكتب الحديثة – القاهرة
١٧ – تقريب التهذيب	ابن حجر	دار المعارف – بيروت
١٨ – تلبيس إبليس	ابن الجوزي	نشر محمود الاستانبولي
١٩ – تهذيب الأسماء واللغات	النووي	دار الكتب العلمية – بيروت
٢٠ – تهذيب التهذيب	ابن حجر	دار صادر – بيروت
٢١ – تهذيب مدارج السالكين	عبدالمنعم العزي	المكتبة العلمية
٢٢ – التوكل على الله	ابن أبي الدنيا	دار الأرقم – الكويت
٢٣ – التوكل على الله	ابن أبي الدنيا	مكتبة القرآن – القاهرة
٢٤ – التوكل على الله وأثره في حياة المسلم	عبدالله الجارالله	ط١ دار طيبة – الرياض
٢٥ – تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد	سليمان بن عبدالله بن محمد ابن عبدالوهاب	ط٤ المكتب الإسلامي
٢٦ – ثلاث من شعب الإيمان للبيهقي	رسالة ماجستير	مطبوع على الآلة الكاتبة بالجامعة الإسلامية بالمدينة
٢٧ – الجامع لأحكام القرآن	القرطبي	دار الكتاب العربي
٢٨ – جامع الرسائل	ابن تيمية	دار الكتب

اسم الكتاب	اسم المؤلف أو المحقق	بيانات الطبعة
٢٩ – الجامع لشعب الإيمان	البيهقي	ط ١ الدار السلفية
٣٠ – الجامع الصحيح	الترمذي	المكتبة الإسلامية
٣١ – جامع العلوم والحكم	ابن رجب	دار المعارف – بيروت
٣٢ – حسن الظن با لله	ابن أبي الدنيا	دار الثقة – مكة
٣٣ – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء	ابن نعيم الأصفهاني	دار الفكر – بيروت
٣٤ – دراسات في الثقافة الإسلامية	صالح ذياب هندي	
٣٥ – دليل الفالحين شرح رياض الصالحين	محمد بن علان الأشعري المالكي	مطابع مكتبة الحلبي – مصر
٣٦ – الديباج المذهب في أعيان المذهب	ابن فرحون المالكي	دار التراث – القاهرة
٣٧ – ذيل طبقات الحنابلة	ابن رجب	دار المعرفة – بيروت
٣٨ – الرقى على ضوء عقيدة أهل السنة	د . علي العلياني	دار الوطن – الرياض
٣٩ – رسالة في أحكام الرقى والتمائم	محمد بن إبراهيم أبو معاذ	مكتبة الأمة بالقصيم
٤٠ – زاد المعاد في هدي خير العباد	ابن القيم	مؤسسة الرسالة – بيروت
٤١ – سنن ابن ماجه	تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي	دار الفكر – بيروت

اسم الكتاب	اسم المؤلف أو المحقق	بيانات الطبعة
٤٢ – سنن أبي داود	تحقيق : عبيد الدعاس وعادل السيد	دار الحديث – حمص
٤٣ – سنن الدارمي	عناية : محمد أحمد دهمان	دار إحياء السنة النبوية
٤٤ – سنن النسائي	مع شرح السيوطي وحاشية السندي	المطابع المصرية بالأزهر
٤٥ – السنة	عبدالله بن أحمد بن حنبل	ط١ دار ابن القيم – الدمام
٤٥ – سير أعلام النبلاء	الذهبي	مؤسسة الرسالة – بيروت
٤٦ – شأن الدعاء	الخطابي	دار المأمول للتراث – دمشق
٤٧ – شذرات الذهب في أخبار من ذهب	ابن العماد	دار الآفاق الجديدة – بيروت
٤٨ – شرح العقيدة الطحاوية	ابن أبي العز الحنفي	مؤسسة الرسالة – بيروت
٤٩ – صحيح ابن حبان	محمد بن حبان البستي	المكتبة السلفية – المدينة
٥٠ – صحيح الجامع الصغير	ناصر الدين الألباني	المكتب الإسلامي
٥١ – صحيح مسلم	ترتيب : محمد فؤاد عبدالباقي	دار الفكر – بيروت
٥٢ – صحيح مسلم بشرح النووي	النووي	دار الفكر – بيروت
٥٣ – صفة الصفوة	ابن الجوزي	دار المعرفة – بيروت
٥٤ – طبقات الحنابلة	القاضي أبو يعلى	دار المعرفة – بيروت
٥٥ – طبقات الشافعية الكبرى	عبدالوهاب السبكي	دار المعرفة – بيروت
٥٦ – طبقات الصوفية	محمد بن الحسين السلمي	مطبعة دار التأليف – مصر

اسم الكتاب	اسم المؤلف أو المحقق	بيانات الطبعة
٥٧ - طريق الهجرتين وباب السعادتين	ابن القيم	دار الكتب العلمية - بيروت
٥٨ - الطريق إلى ولاية الله		ط١ المطبوعات الحديثة
٥٩ - عمل اليوم والليل	ابن السني	مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة
٦٠ - فتاوى اللجنة الدائمة للإفتاء	جمع أحمد الدويش	مكتبة المعارف - الرياض
٦١ - فتح الباري شرح صحيح البخاري	ابن حجر العسقلاني	المكتبة السلفية
٦٢ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد	عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ	مكتبة السنة المحمدية
٦٣ - الفوائد	ابن القيم	دار النفائس - بيروت
٦٤ - فيض القدير شرح الجامع الصغير	المناوي	دار المعرفة - بيروت
٦٥ - في ظلال القرآن	سيد قطب	دار الشروق
٦٦ - القضاء والقدر	عمر الأشقر	مكتبة الفلاح - الكويت
٦٧ - لسان العرب	جمال الدين بن منظور	دار صادر - بيروت
٦٨ - مجموعة الرسائل المفيدة	حافظ الحكمي	ط٢ مطابع الجزيرة - الرياض
٦٩ - مجمع الزوائد	علي الهيثمي	مؤسسة المعارف - بيروت

اسم الكتاب	اسم المؤلف أو المحقق	بيانات الطبعة
٧٠ - المجموع الثمين من فتاوى ابن عثيمين	جمع فهد السلمان	دار الوطن
٧١ - مجموع الفتاوى	ابن تيمية	ط / الرئاسة العامة لشؤون الحرمين
٧٢ - مجموع القصائد الزهديات	عبدالعزيز السلمان	ط١ مطابع الخالد سوفت الرياض
٧٣ - محاسن التأويل	جمال الدين القاسمي	دار الفكر - بيروت
٧٤ - مختار الصحاح	محمد بن أبي بكر الرازي	دار الفكر - بيروت
٧٥ - مختصر شعب الإيمان	القزويني	مكتبة دار البيان - دمشق
٧٦ - مختصر منهاج القاصدين	أحمد المقدسي	المكتب الإسلامي
٧٧ - مدارج السالكين	ابن القيم	دار الكتاب العربي - بيروت
٧٨ - مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع	صفي الدين البغدادي	إحياء الكتب العربية - مصر
٧٩ - المستدرك على الصحيحين	الحاكم النيسابوري	دار المعرفة - بيروت
٨٠ - المسلم في عالم اليوم	عبدالفتاح عاشور	
٨١ - مسند الإمام أحمد	أحمد بن حنبل	المكتب الإسلامي - بيروت
٨٢ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير	أحمد الفيومي	دار الكتب العلمية - بيروت
٨٣ - المصنف	عبدالرزاق الصنعاني	المكتب الإسلامي

اسم الكتاب	اسم المؤلف أو المحقق	بيانات الطبعة
٨٤ – مفتاح دار السعادة	ابن القيم	مكتبة الرياض الحديثة الرياض
٨٥ – المقاصد الحسنة	السخاوي	دار الكتب العلمية – بيروت
٨٦ – المكاسب : الرزق الحلال وحقيقة التوكل	الحارث المحاسبي	مكتبة القرآن – القاهرة
٨٧ – منهاج السنة النبوية	ابن تيمية	ط١ مطابع جامعة الإمام
٨٨ – المنهاج في شعب الإيمان	الحليمي	دار الفكر – بيروت
٨٩ – منال الطالب في شرح طوال الغرائب	ابن الأثير	مطبعة المدني – القاهرة
٩٠ – نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض	الخفاجي	دار الكتاب العربي – مصر
٩١ – النهاية في غريب الحديث	ابن الأثير	المكتبة الإسلامية ودار التراث العربي – بيروت
٩٢ – وجوب التعاون بين المسلمين	عبدالرحمن بن ناصر السعدي	
٩٣ – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان	ابن خلكان	دار صادر – بيروت

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفهارس :

* * *